

المركز القومى للترجمة
عالم الطفل

المشروع القومى للترجمة

روديارد كيبلنج

كتاب الغابة

ترجمة: إيزابيل كمال
مراجعة: يعقوب الشارونى



1726

تقول بعض نظريات النقد الحديث المهتمة بكتابة الطفل: إن كاتب الأطفال يحتوى داخله على طفل، وإنك إن لم تستطع أن تكون طفلاً وأن تشعر بمشاعر الطفل وأحاسيسه وأنت توجه له خطابك الأدبى، فلن تفهمه ولن تمتعه بكتابتك له. وجوزيف روديارد كيبلنج عاش داخله طفل حُرِم من حنان الأم ورعاية الأب فى سن الطفولة، وهى تجربة مريرة وقاسية على الطفل تبقى آثارها داخله مدى العمر، ويبقى الطفل داخله يبحث عما فقده فى باكر حياته من أمان ودفء. وكان رد كيبلنج على هذا الفقد هو رد الكاتب والفنان الذى أحب طفولته وظل يعيشها فى كتاباته للطفل، فكان الكتاب الذى بين أيدينا أحد هذه الكتب التى كتبها كيبلنج لطفله الذى يعيش داخله، ولغيره من أطفال العالم الذين أحبوا كتبه وخلدوها، فخلدوا ذكراه كاتبا كبيرا ومهما.




تصميم الغلاف: إيناس الهندى

كتاب الغابة

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة عالم الطفل
المشرف على السلسلة: يعقوب الشاروني

- العدد: 1726
- كتاب الغابة
- روديارد كيبلنج
- إيزابيل كمال
- يعقوب الشاروني
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة:

The Jungle Book

By: Rudyard Kipling

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

كتاب الغابة

تأليف: روديارد كيبلنج
ترجمة: إيزابيل كمال
مراجعة: يعقوب الشاروني



2011

كيبلنج، روديارد.

كتاب الغابة/ تأليف: روديارد كيبلنج ترجمة: إيزابيل كمال؛ مراجعة: يعقوب الشاروني. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٧٦ص؛ ٢٠ سم. ـ (المشروع القومى للترجمة)

تدمك ٠ ٩٢٥ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ قصص الأطفال.

أ ـ كمال، إيزابيل. (مترجم)

ب ـ الشارونى، يعقوب. (مراجع)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٤٢/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -925- 0

ديوى ٨١٢,٠٢

فهرس

حياة روديارد كيبلنج

كان (جوزيف) روديارد كيبلنج كاتبًا للقصص القصيرة الغريبة، والشعر الصاخب، والروايات العظيمة. إنه واحد من أكثر الكتاب البريطانيين المحبوبين، وواحد من أصحاب أسوأ سمعة بين الكتاب لمواقفه المناصرة للعنصرية فى كتاباته. مع ذلك، كما كتب أحد النقاد، كان أيضًا واحدًا من أولئك الكتاب الذين "يمنحون قلوبهم منحًا مطلقًا حين يقدمونها لطفل". إن كتابات كيبلنج المتميزة للأطفال ـ مثل : كتابَى الغابة، مجرد قصص، كيم، عفريت تل بوك، القباطنة الشجعان، ستوكى ورفاقه ـ هى التى جعلت ذكراه خالدة إلى الأبد.

كان لدى كيبلنج ذلك النوع من المشاعر المختلطة من الحب والكراهية تجاه حياته، فقد عاش حياة مزدوجة؛ حيث انقسمت فى بدايتها إلى مرحلتين: فطفولته فى الهند كانت حياة ريفية ناعمة بدأت مع مولده فى ٣٠ ديسمبر ١٨٦٥ فى بومباى، واستمرت هذه الحياة الريفية ست سنوات. وفى أثناء وجوده فى الهند وباعتباره

طفلاً لأبوين من الطبقة المتوسطة، لقى التدليل والرعاية بدرجة مفرطة من الخدم والمربيات الهنود.

وفجأة، عندما كان فى السادسة، أخذوه هو وشقيقته الصغرى إلى إنجلترا، وتركوهما مع ثنائى أعلنا أنهما يقومان برعاية الأطفال الذين يعيش والديهم فى الهند. لم ينبه أحد روديارد الصغير وشقيقته إلى أنهما لن يريا والديهما بعد عودتهما إلى وطنهما إنجلترا، فالسيد كيبلنج وزوجته رحلا من إنجلترا فى سرية. ومرت على الطفلين خمس سنوات مروعة حتى التقيا مرة أخرى بوالديهما.

كانت تلك السنوات الخمس شاقة على روديارد، فقد كان يلقى معاملة سيئة، ويعانى من العزلة والضرب من العائلة الجديدة، وكانوا يطلقون عليه الكذاب واللص. لقد وصف تلك السنوات فيما بعد فى قصة أسماها " با.. با، الماشية السوداء ". ومما زاد الطين بلة، أن بعض المشكلات تفاقمت فى عينيه حتى كاد أن يصاب بالعمى. كان الطفلان يسعدان فى الإجازات فقط حين يُسمح لهما بالبقاء مع خالتهما المحبوبة المتزوجة من سير إدوارد بورن - جونز، الرسام الذى ينتمى لمدرسة ما قبل الرفائيلية، ثم تنقضى العطلة ويعودان مرة أخرى إلى "منزل الخراب" كما أطلق عليه كيبلنج فيما بعد.

عندما أتم كيبلنج الثانية عشرة من عمره، هجر حياته السابقة بالذهاب إلى مدرسة داخلية تسمى " كلية الخدمات المتحدة" فى

"وستورد هو ديفون". كتب عن خبراته وتجاربه هناك فى روايته الرائعة عن الحياة المدرسية "ستوكى ورفاقه". أحد أصدقائه صوّره فى هذه الفترة بأنه" ابتسامة وراءها صبى صغير"، رغم أن الحياة فى "وستورد هو" من الصعب أن تدعو للابتسام. مثل كثير من المدارس البريطانية فى تلك الفترة، كان المدرسون يسمحون بالكثير من المعاملة المستبدة والضرب.

تلك الفترة من حياة كيبلنج انقسمت أيضًا إلى عالمين مختلفين: الأيام المدرسية القاسية التى تمتد إلى ثلاثة عشر أو أربعة عشر أسبوعًا متصلاً بدون عطلات نهاية الأسبوع، ثم العطلات والتدليل فى منزل الخالة، حيث الحوائط مغطاة بلوحات لصور نساء حالمات رقيقات فى أوضاع وفقًا لأسلوب رسامى مدرسة ما قبل الرفائيلية التى أشرنا إليها.

ترك كيبلنج المدرسة قبل أن يتم السابعة عشرة من عمره وعاد للهند. عاش مع والديه لأول مرة منذ فارقهما وهو فى السادسة وبدا سعيدًا بذلك. وعلى الرغم من هذا، لا يثير الدهشة أن الوالدين الصالحين الوحيدين فى كتبه كانا والدين بالتبنّى، حيث إنه فى قرارة نفسه كان يسيطر عليه الشعور أن والديه الحقيقيين هجراه وتَخلَّيا عنه.

عمل روديارد فى الهند صحفيًا لمدة سبع سنوات، وعلى الرغم من حبه للهند، فقد كان يتحدث بحماس شديد عن توقه للتعليم فى جامعة إنجليزية. كتب كثيرًا من المقالات والقصص التى نُشرت فى

الصحف، وبدأ يحقق شهرة عريضة ككاتب. نُشرت له مجموعتان من الشعر والقصص: المجموعة الشعرية " أغانى الرحيل"، والمجموعة القصصية " حكايات بسيطة من التلال".

فى عام ١٨٨٩، ترك الهند وعاد إلى إنجلترا تسبقه سمعته ككاتب. كثير من قصصه تم جمعها ونشرها فى إنجلترا فى مجموعات: "ثلاثة جنود" و "ويلى وينكى الصغير" . رحبوا به فى إنجلترا باعتباره ديكنز الجديد ، وحققت كتبه شعبية كبيرة، وبهذا بدأت حياته الأدبية بداية جيدة .

كان لدى كيبلنج باعتباره كاتبًا مشهورًا عديد من الفرص للسفر والدخول فى المجتمع. قرر أن يرى العالم. سافر إلى أماكن متعددة فى أمريكا، ثم أبحر عائدًا إلى إنجلترا، وقد مر خلال هذه الفترة بعدة تجارب عاطفية، كما كتب روايته الأولى "الضوء الذى خبا".

فى إنجلترا التقى كيبلنج برجل غيَّر حياته، هو الناشر الأمريكى وولكوت بلاستير. قرر الاثنان الاشتراك فى كتابة رواية "مغامرة هندية رومانسية"، خرجت للحياة فى صورة محاكاة سيئة للكتابة الجيدة. كان لبلاستير شقيقة تُدعى كارولين، نشأت بينها وبين كيبلنج صداقة واهية. لكن عندما مات بلاستير فجأة على أثر إصابته بمرض الإنفلونزا، تزوج كيبلنج من كارولين وأطلق عليها "كارى". ورغم أن ذلك الزواج بعد وفاة بلاستير بثمانية أيام قد تم فى سرية تكاد أن تكون تامة فى ١٨٩٢ فقد استمر إلى نهاية حياتهما.

بعد زواجهما السريع، سافر روديارد وكارى كيبلنج فى رحلة حول العالم، وانتهى بهما المطاف فى بلدتها قرب براتليبورو، فيرمونت بأمريكا. وهناك بعد ذلك بعام واحد وُلدت ابنتهما الأولى، ثم الثانية. وهناك أيضًا كتب كيبلنج كتابَى الغابة. تمنى كيبلنج أن يعيش فى فيرمونت للأبد، لكنه لم يكن جارًا سلسًا. كان شديد البريطانية، شديد الانتقاد للآخرين، ولم يستطع استيعاب الأسلوب الأمريكى فى ممارسة شئون الحياة. ونشب شجار عنيف بينه وبين شقيق كارى حول الممتلكات، وشكاه الشقيق فى المحكمة بتهمة التهديد بالقتل، مما جعل كيبلنج مادة لسخرية جيرانه، وكان ذاك هو الشىء الذى لم يستطع كيبلنج التعايش معه.

فى ١٨٩٦اصطحب كيبلنج عائلته إلى إنجلترا وهو مفعم بالشعور بالحزن واليأس.

انقضت ثلاث سنوات وهم يتنقلون من مكان إلى آخر، ويقضون العطلات فى جنوب إفريقيا، يبحثون عن مكان يستقرون فيه. ثم فى أوائل فبراير ١٨٩٩عادوا إلى أمريكا لإدارة بعض الشئون المالية وبيع بيتهم فى فيرمونت. ثم مرض كل من كارى و روديارد بالالتهاب الرئوى. فى الوقت نفسه، عرفا أن شقيق الزوجة سيقاضيهما بتهمة العنصرية. تمكنت كارى من التغلب على مرضها لمتابعة الإجراءات القضائية، لكن روديارد كان تقريبًا يحتضر. حين شُفى من مرضه اكتشف أن ابنته الكبرى القريبة من قلبه جوزيفين، أصيبت هى أيضًا بالالتهاب الرئوى أثناء مرضه وماتت. عادت أسرة كيبلنج إلى

إنجلترا وقلوبهم محطمة حزنًا على وفاة الابنة جوزيفين ، ولم يعد كيبلنج إلى أمريكا بعد ذلك إطلاقًا.

فى إنجلترا، استقروا فى منزل يُطلق عليه "بيتمان"، وهو منزل حجرى رمادى فى ساسيكس بُنى عام ١٦٣٤، وأخيرًا أصبح لديهم بيت يستقرون فيه. وعاشت أسرة كيبلنج فى ذلك المنزل إلى نهاية حياتهم.

خلال كل هذا الترحال وهذه الأحزان، كان كيبلنج يواصل عمله فى الكتابة. كانت زوجته مسئولة مسئولية كاملة عن كل شئون الحياة المنزلية، حتى عن ميزانية نفقات العائلة. أدت دورها باعتبارها أمًا وممرضة ومسئولة عن الموارد المالية ومدبرة منزل وخادمة، لكنها لم تكن مطلقًا مصدر إلهام لكيبلنج أو موضع ثقته فى الأمور الأدبية. كانت علاقة محيرة لأصدقائهما ، لكنهما سعدا بها.

لقيت أعمال كيبلنج الأدبية نجاحًا شعبيًا كبيرًا، فأصبح الكاتب الإنجليزى الأكثر شهرة فى وقته، تُنشر كتبه على ضفتى الأطلنطى. حين أصابه المرض فى أمريكا احتشدت الجماهير خارج الفندق الذى يقيم به للصلاة من أجله، وامتلأت ردهات الفندق بالصحفيين فى انتظار أخباره. لكن بنفس درجة شعبيته مع القراء (حصل على جائزة نوبل للآداب فى عام١٩٠٧) كانت سمعته الأدبية بين الكتاب تنهار. لقد وجهوا النقد لحبكاته وشخصياته وإنتاجه الغزير، وبريطانيته الشوفينية، أو الوطنية المفرطة. وها نحن مرة أخرى أمام الحياة المزدوجة لرجل ألهم الكثيرين.

فى عام ١٩١٥، كان ابنه الوحيد جون عضوًا فى كتيبة الحرس الأيرلندى، وشارك فى الحرب العالمية الأولى. فى البداية قيل لهم إنه من المفقودين، ثم جاء بعد ذلك خبر موته، لكنهم لم يعثروا مطلقًا على جثته. تلك كارثة لم يُشْفَ منها روديارد وكارى طوال حياتهما.

حتى لحظة وفاته بعد ذلك بواحد وعشرين عامًا، ظل كيبلنج يعانى بشدة من فقده لولديه، بالإضافة لمعاناته من أمراض عضوية كثيرة، بما فيها قرحة الاثنى عشر التى عجز الأطباء عن تشخيصها وعلاجها، لكنه لم يتوقف مطلقًا عن الكتابة. كان كما قال عنه ناظر مدرسته فى "وستورد هو": "مسجون سجنًا أبديًا فى زجاجة الحبر".

جين يولين

مقدمة

عندما عمل روديارد كيبلنج صحفيًا فى الهند، كانت تُنشر بشكل منتظم فى الصحف قصص عن الأطفال المتوحشين أو الذين عاشوا مع حيوانات فأصابهم التوحش. كانت أراضى الغابات الشاسعة - غابة سال الشهيرة وأغصان أشجارها المتدلية التى لا تدخلها الشمس إلا فى أشكال متقطعة من الضوء - هى ملجأ لمئات الطيور الرائعة والحيوانات التى يغطيها الفراء. كثير من أراضى الغابة لم يكن اختراقها ممكنًا، على الرغم من أن بعض أجزائها الصغيرة كانت تستقر فيها القبائل المحلية التى تعيش فى قرى بعيدة مختبئة مليئة بالغبار. لذلك كانت الحواديت المخيفة عن الأشباح والغيلان والكائنات المستذئبة لها شعبية بين المواطنين المحليين.

فى الواقع، ظلت القصص التى تدور حول الأطفال المتوحشين شائعة حتى أواخر عشرينيات القرن العشرين، حين كانت الصحف فى كل أنحاء العالم تكتب قصص ميدنابور، والهند، والفتيات

الذئبات، "آمالا" و "كمالا". كان من المفترض أنهما شقيقتان عثر عليهما المبشرون فى رابية يسكنها النمل الأبيض وذئبة وجراؤها. كانت الطفلتان تعانيان من سوء التغذية والقذارة، تصدران أصواتًا حيوانية، وتأكلان السحالى الحية، وتلعبان فى التراب.

لكن الحكايات التى تروى قصص الأطفال الذين قامت برعايتهم حيوانات، لم تكن مقصورة على الغابات الهندية ـ ففى قوائم "ستيث تومسون موتيف إندكس"التى تضم الثيمات أو الموضوعات الأساسية فى الفلكلور، تم وضع موضوع حكايات الحيوانات التى ترعى الأطفال تحت رقم ٥٣٥ ب، وتعتبر واحدة من الثيمات الأكثر انتشارًا فى العالم. ضمن القوائم الأخرى هناك" رومولوس وريموس "المؤسسان الأسطوريان لروما، اللذان رضعا من أنثى ذئب. و"لاموس" الذى نشأ على العسل على يد حيتين. و "باريس وأتلانتا" اللذان ربتهما الدببة. بالطبع نتفق جميعًا على أن كل تلك القصص كانت حكايات شعبية.

فى خمسينيات القرن التاسع عشر، قبل ولادة روديارد كيبلنج فى بومباي مباشرة، كانت هناك سلسلة من الكتب والكتيبات عن أطفال الهند المتوحشين، بلغت أقصى شعبية لها فى كتاب "رحلة إلى مملكة أود" الذى كتبه اللواء سير و. هـ. سليمن، الذى نُشر فى١٨٥٨، وكان لا يزال متاحًا فى شباب كيبلنج، وتضمن روايات عن ستة أطفال مستذئبين، قال اللواء سليمن إنه رأى اثنين منهم بأم عينيه.

تم شـرح مفهوم الإنسـان الحيـوانى شـرحًـا علميًا لأول مـرة فى عام ١٧٥٨، على يد لينوس عالم الطبيعة الكبير فى الطبعة العاشرة لكتابه "منظومة الطبيعة "، حيث افترض أن الأشخاص المتوحشين يمكن التعرف عليهم بثلاثة أمور، أولها: أنهم يتسمون بالرباعية أى يسيرون على أربع: على أيديهم وأرجلهم أو أيديهم وركبهم، ويجدون صعوبة فى الوقوف معتمدين على القدمين فقط، حيث يقلدون الحيوانات التى عاشوا معها. الأمر الثانى: أنهم بُكْم، أو خُرْس، إذ ليس لديهم لغة إلا تلك الأصوات الحيوانية، مثل النباح والخوار والزئير. وأخيرًا، مُشْعِرون، أو لديهم شعر طويل بشكل زائد عن الحد، مما يتلائم مع أى شخص يعيش فى العراء متعرضًا لكل أنواع الطقس والمناخ دون ثياب.

بالطبع، يختلف الفلكلور عن الحقائق العلمية. ففى الحواديت والأساطير والخرافات، لا يكون الطفل الحيوانى هو الشخص المثير للفضول والشفقة عند لينوس، بل بالأحرى يولد بطلاً - مثل رومولوس، وريموس، ولاموس، وباريس، وأتلانتا. وهو ليس مغطى بالشعر بشكل يدعو للخوف، ولا يدعو للأسف لكونه يسير على أربع، بل هو بطل يقف منتصبًا على قدميه ووسيم إلى أبعد حد. وليس أبكم بل بالأحرى ينطق بلسان الملائكة.

ربما يكون كيبلنج قد قرأ كتاب سليمن. فمن المؤكد أنه اطلع على كثير من القصص التى كانت تُنشر بالصحف باعتباره كان يعمل صحفيًا. لكنه لم يقتبس أفكاره عن "موجلى"، الطفل الذى ربته

الذئاب بمساعدة دب ونمر أسود وثعبان ضخم باعتبارهم آباء روحيين له، من وجهة النظر الواقعية لطفل هندى جائع تعرض للأذى وملوث بالقذارة ينبح ولا يعرف اللغات الإنسانية نشأ على الروابى التى يقيم فيها النمل الأبيض. لكن شخصية موجلى التى رسمها كيبلنج ، جاءت مباشرة من قصص الأبطال التى تدور فى الريف والتى يعرفها كيبلنج حق المعرفة فى غابة سال.

يتحدث موجلى كل لغات الغابة، ومع ذلك يتعلم لغات البشر بالسهولة ذاتها. وعندما يصفه لنا كيبلنج، لا نرى طفلاً يثير الشفقة بنباحه وإصابته بجرب الحيوانات، بل نرى أحد الآلهة وسيمًا برونزى اللون.

فى العام الثانى بعد المعركة الكبرى مع الكلب الأحمر... لا بد أن موجلى قد اقترب من عامه السابع عشر، بل يبدو أكبر، بسبب التمارين الشاقة، والطعام الجيد، والحمامات وقتما يشعر بأقل درجة من الحر أو التراب، مما منحه القوة والنمو بدرجة أكبر من عمره الحقيقى. يمكنه أن يتأرجح بيد واحدة ممسكًا بأعلى فرع فى الشجرة لمدة نصف ساعة، عندما تسنح له الفرصة، لينظر إلى مجموعات الشجر الممتدة على مرمى البصر. بمقدوره أن يوقف غزالاً صغيرًا يعدو بسرعة ويلقيه على جانب الطريق وهو يمسكه من رأسه. يمكنه حتى أن يهز الخنازير البرية الضخمة زرقاء اللون التى تعيش فى المستنقعات فى الشمال. أهل الغابة الذين اعتادوا أن يخشوه لذكائه وفطنته أصبحوا الآن يخشونه لقوته الفريدة، وعندما

يتحرك بينهم بهدوء مستغرقًا فى شئونه، فإن همساته وهو قادم عبر ممرات الغابة تُسمع بوضوح. ومع ذلك فإن نظرة عينيه كانت رقيقة دائمًا.

ذاك هو طفل كيبلنج الحيوانى —نصف بطل، نصف راعى بقر، نصف عملاق رقيق، ينغمس فى الحمامات الترابية والطعام الجيد مثل تلميذ مدرسة بريطانى حقيقى. ويُعَدُّ موجلى سلف طرزان المباشر، الذى كان قبل كل شىء، هنديًا فى جوهره.

جين يولين

تمهيد

إن كتابًا بهذه الطبيعة، يقول عنه وفرة من المتخصصين إنه يتطلب الكثير، يكون لمن يكتبه كل الحق فى المعالجة الحرة وتنقيحها، وإن لم يكن راغباً فى ذكر كل المعارف المتاحة له، والتى يدين لها بالكثير.

فى المقام الأول يتوجب عليه تقديم الشكر والامتنان للباحث والضليع "باهادير شاه"، لأجل المادة التى جمعها عن الأفيال فى مدون هندى تحت رقم١٧٤، ولشقيقته اللطيفة، بودمينى، التى أمدته بشكل ثرى بمادة قصة "توماى صديق الأفيال"، وكثير من المعلومات المتضمنة فى قصة "خدم الملكة".

وتم جَمْع مغامرات موجلى من عصور مختلفة وأماكن عديدة، مستقاة من أشخاص مختلفين، معظمهم لديه الرغبة فى حفظ الأدب الذى نجهل مؤلفه.

مع ذلك، بالرغم من بعد المسافة، يشعر الكاتب بحريته فى أن يقدم الشكر والعرفان لرجل نبيل هندوسى ينتمى إلى "الصخرة

القديمة"، وهو مواطن رفيع المستوى لإقليم المنحدرات العليا فى جاكو، لتقييمه المُقْنِع للسمات القومية لطائفته الدينية، حتى إذا كان هذا التقييم لاذعًا فى بعض الأحيان.

وكذلك "ساهى"، عالم البحث والصناعة، وعضو "جماعة سيونى" التى انحلت حديثًا، وهو فنان مشهور فى معظم المعارض المحلية فى جنوب الهند، وملم بثقافة كثير من القرى، والتى أسهمت فى معظم المادة الفنية عن الشعوب والعادات والتقاليد، وكان هذا جليًا فى قصص "النمر - النمر" و "صيد كا" و "أشقاء موجلى".

كما يدين الكاتب فى الخطوط العريضة لقصة "ريكى - تيكى - تافى" لواحد من أهم علماء الحيوان الذين يبحثون فى الزواحف والبرمائيات فى شمال الهند، وهو باحث لا يخشى شيئًا ويتمتع باستقلال كبير فى أفكاره، صاحب مقولة: "لا للعيش فقط ونعم للمعرفة"، وأخيرًا ضحى بحياته أثناء انكبابه الزائد على دراسة الثعابين السامة الموجودة فى الشرق.

وهناك صدفة سفر سعيدة، مكنت المؤلف عندما كان مسافرًا على ظهر باخرة "إمبراطورة الهند"، من أن يقدم مساعدة بسيطة لزميل سفر. وكم كان ثراء رد الجميل لهذه المساعدة البسيطة، ويمكن لقراء ["عجل البحر" الأبيض] أن يحكموا على ذلك بأنفسهم.

أشقاء موجلى

والآن الحدأة "شيل" تعلن قدوم الليل
والوطواط "مانج" ينطلق
وقطعان الماشية حبيسة الزرائب والأكواخ
ونحن أحرار حتى الفجر،
إنها ساعة الفخر والقوة،
المخالب والأنياب والبراثن
أوه، هل تسمعون النداء؟ ـ صيد طيب لكم جميعًا
هذا يحمى قانون الغابة!

أغنية المساء فى الغابة

كانت الساعة السابعة من مساء يوم شديد الدفء فى تلال "سيونى"، عندما استيقظ الذئب الأب من راحته اليومية، وحك جلده، ثم تثاءب، وبسط كفيه كفًا بعد الآخر ليتخلص من الشعور

بالنعاس الذى يغمر أطرافه. كانت الذئبة الأم راقدة تتشمم بأنفها الرمادى الضخم جراءها الأربعة المنطرحين على الأرض وهم يصرخون، وشعاع القمر يسطع على فتحة الكهف الذى يعيشون فيه جميعًا.

قال الذئب الأب وهو يتثاءب: "حان وقت العودة للصيد". وفى اللحظة التى شرع يستعد فيها للذهاب أسفل التل عبر عتبة الباب، ظهر ظل صغير له ذيل كث يعوى قائلاً: "فليصحبك الحظ السعيد يا زعيم الذئاب، وحظًا سعيدًا وأسنانًا بيضاء قوية لأطفالك النبلاء، الذين لن ينسوا مطلقًا جياع هذا العالم".

كان هذا ابن آوى - "طباقى" لحَّاس الصحون - وكانت الذئاب فى الهند تكره طباقى لأنه يسعى دائمًا لإثارة الأذى والإزعاج وتلفيق الحكايات، يأكل الخرق وقطع الجلد من أكوام القمامة فى القرية. لكنهم كانوا يخافونه أيضًا، لأن طباقى كان عرضة لنوبات الجنون أكثر من أى كائن آخر فى الغابة، وإذا حدثت له إحدى هذه النوبات ينسى أنه خاف من قبل من أى كائن، ويقطع الغابة جريًا ليعض كل من يلقاه فى طريقه. حتى النمر يجرى ويختبئ عندما يصاب طباقى بنوبة الجنون، لأن الجنون هو أكثر صفة مشينة يمكن أن تتملك كائنًا متوحشًا. نحن نسميها داء الكلب، لكنهم يسمونها (ديوانى) بمعنى الجنون ويتجنبون من يصاب بها.

قال الذئب الأب بوقار: "تفضل بالدخول"، ثم أكمل بصرامة: "وانظر.. لا يوجد لدينا طعام".

قال طباقى: "بالطبع لا يوجد طعام مناسب لذئب، لكن بالنسبة لشخص عادى يفتقر إلى القوة مثلى فإن عَظْمَة يابسة تُعَد وليمة جيدة. مَن نحن معشر ابن آوى ليكون من حقنا أن نختار؟ "

خطا بسرعة نحو نهاية الكهف، حيث عثر على عظمة بها بعض اللحم، وجلس يأكلها محدثًا طقطقة حتى أتى عليها وهو سعيد.

قال وهو يلعق شفتيه: "كل الشكر لهذه الوجبة الطيبة، ياالجمال أطفالك النبلاء! يالاتساع عيونهم! وكم هم صغار أيضًا! حقًا، حقًا، لا بد أن أتذكر أن أطفال الملوك رجال منذ صغرهم".

والآن طباقى يعرف جيدًا مثلما يعرف الجميع أنه لا شىء يجلب سوء الحظ أكثر من إطراء الأطفال فى وجوههم، وقد شعر بالسعادة لرؤيته الذئب الأب والذئبة الأم قلقين.

جلس طباقى فى سكون، مستمتعًا بالأذى الذى تَسبَّبَ فيه، ثم قال بحقد:

"شرخان، ذلك الضخم، غَيَّر أرض الصيد الخاصة به. سيبدأ فى الصيد وسط هذه التلال عند طلوع القمر، هكذا قال لى".

كان شرخان هو النمر الذى يعيش قرب نهر وينجانجا، على بعد عشرين ميلاً.

قال الذئب الأب غاضبًا: "ليس له حق فى ذلك! طبقًا لقانون الغابة ليس له حق فى تغيير مأواه دون أن يحذرنا مسبقًا. سيخيف

كل رأس فى الغابة داخل حدود عشرة أميال، وأنا ـ أنا مضطر للخروج للصيد هذه الأيام لإطعام اثنين".

قالت الذئبة الأم بهدوء: "لم تطلق عليه والدته اسم "الأعرج" دون سبب، فهو يعرج على إحدى سيقانه منذ مولده، لهذا لا يقتل إلا الماشية. والآن الفلاحون فى وينجانجا غاضبون منه، وها هو يأتى إلى هنا ليُغضِب فلاحى قريتنا أيضًا. سيذرعون الغابة شبرًا شبرًا بحثًا عنه عندما يفر منهم، ونحن وأطفالنا علينا أن نمضى من هنا عندما يشعل البشر النار فى العشب. فى الحقيقة، نحن شاكرون جدًا لشرخان!"

قال طباقى: "هل تحبين أن أخبره بامتنانك؟"

قال الذئب الأب بحدة: "اخرج من هنا! اخرج من هنا واذهب للصيد مع سيدك. لقد تَسبَّبت فى ضرر كافٍ هذه الليلة."

قال طباقى بهدوء: "أنا ذاهب، يمكنك أن تسمع شرخان فى الأدغال تحتنا. لقد وفَّر هذا علىَّ إبلاغك بقدومه".

أصاخ الذئب الأب السمع، وهناك تحت فى الوادى الذى يجرى قرب النهر الصغير، سمع نواحًا رتيبًا غاضبًا نزقًا لنمر لم يصطد شيئًا ولا يكترث إذا عَرَفَت الغابة كلها ذلك.

قال الذئب الأب: "يا له من أحمق! أن يبدأ عمله الليلى بكل هذه الضجة! هل يعتقد أن ظباءنا مثل ثيران وينجانجا السمينة؟"

قالت الذئبة الأم: "صه. إنه لا ثور ولا ظبى ذاك الذى يصطاده الليلة.. إنه إنسان". تحول النواح إلى نوع من الهمهمة والخرخرة تبدو كأنها تأتى من جميع الجهات. إنها الضجة التى أربكت الحطابين والغجر الذين ينامون فى العراء، مما يوقعهم أحيانًا فى فم النمر.

قال الذئب الأب وهو يكشر عن كل أسنانه البيضاء: "إنسان!" وأصدر صوتًا معبرًا عن ازدرائه وقال: "ألا يوجد ما يكفى من الخنافس والضفادع فى البرك حتى يضطر أن يأكل إنسانًا ، وفى أرضنا أيضًا!"

كان قانون الغابة الذى لا يُصْدِر أبدًا أية أوامر دون سبب وجيه، يمنع كل الوحوش من أكل البشر، إلا إذا كان الوحش يقتل ليعلم أولاده كيف يصطادون، وفي تلك الحال عليه أن يقوم بالصيد خارج أراضى الصيد الخاصة بقطيعه أو قبيلته. السبب الحقيقى وراء هذا أنه عاجلاً أو آجلاً، سيصل الرجال البيض على ظهور الأفيال، ومعهم بنادق ومئات من الرجال السمر يحملون أجراس التنبيه والسهام النارية والمصابيح. وعندئذٍ تحل المعاناة على جميع سكان الغابة. وترى الحيوانات بينها وبين نفسها أن سبب ذلك أن الإنسان هو الكائن الأضعف والأعزل بين كل الكائنات الحية، ومن يلمسه يفتقد للروح الرياضية. يقولون كذلك. وهذا حقيقى. إن آكلى لحوم البشر يصابون بالجرب، ويفقدون أسنانهم.

ارتفعت الهمهمة، وانتهت بغمغمة خرجت من أعماق حلقوم النمر: "آاااه".

ثم تلا ذلك عواء ـ عواء يختلف عما يصدر عن النمور ـ صادر عن شرخان. قالت الذئبة الأم: "لقد أفلت منه الصيد.. ما هذا؟".

جرى الذئب الأب خارج الكهف بضع خطوات، وسمع شرخان يغمغم ويدمدم بوحشية ضارية، وهو يهرول باضطراب فوق أرض الأعشاب القصيرة.

قال الذئب الأب باحتقار: "الأحمق لم يعد لديه من الفطنة ما يمنعه من القفز فوق نيران معسكر الحطابين، وها هو قد أحرق أقدامه.. طباقى معه".

قالت الذئبة الأم: "شىء ما يتقدم صاعدًا التل"، وحركت إحدى أذنيها وهى تكمل كلامها قائلة: "انتبه".

خشخشت قليلاً أغصان الشجيرات الكثيفة فى الدغل، وجثم الذئب الأب على ساقيه الخلفيتين مستعدًا للوثب. وإذا كنت تراقب المشهد، لرأيت أروع شىء فى العالم ـ توقف الذئب فى منتصف الوثبة، فقد قام بوثبته قبل أن يرى ما الذى يقفز عليه، ثم حاول أن يمنع نفسه. كانت النتيجة أنه انطلق مباشرة فى الهواء لمسافة أربع أو خمس أقدام، ثم حط تقريبًا فى نفس المكان الذى انطلق منه.

قال بحدة: "إنسان، طفل بشرى.. انظروا !"

أمامه مباشرة، كان هناك طفل أسمر عارٍ، بالكاد يستطيع السير، ممسكًا بغصن منخفض لشجرة ـ لم يسبق لكائن بهذه

النعومة، وهذا الصغر، أن أتى إلى كهف الذئب فى الليل. تَطلَّع ببراءة نحو وجه الذئب الأب وضحك.

قالت الذئبة الأم: "هل هذا طفل بشرى؟ لم يسبق لى أن رأيت من قبل طفلاً من أبناء البشر. أحضِرْه إلى هنا".

الذئب الذى اعتاد على حمل أطفاله، يستطيع إذا اقتضت الضرورة أن يمسك بفمه بيضة دون أن يكسرها. وعلى الرغم من أن أنياب الذئب أمسكت بظهر الطفل بشدة، فلا سِنًّة واحدة خدشت جلده وهو يضعه بين أطفاله .

قالت الذئبة الأم بنعومة: "كم هو صغير! كم هو عار! وكم هو جرىء!" كان الرضيع يشق طريقه بين أطفال الذئب ليقترب من مخبأ دافئ. قالت الذئبة الأم: "آه، ها هو يحصل على وجبته مع الآخرين، مع أنه طفل إنسان. هل حدث لذئب أن استطاع التفاخر بوجود طفل بشرى بين صغاره؟"

قال الذئب الأب: "لقد سمعت أن ذلك حدث أحيانًا، لكن لم أسمع بحدوثه فى قطيعنا أو فى حياتى. إنه خالٍ من الشعر تمامًا، ويمكننى أن أقتله بلمسة من قدمى، ومع ذلك انظرى إليه، إنه يتطلع إلينا دون خوف".

احتجب ضوء القمر عن فتحة الكهف، لأن رأس شرخان المربع وأكتافه الكبيرة كانت تسد المدخل، وخلفه طباقى يصرخ قائلاً: "سيدى، سيدى، لقد دخل هنا!"

قال الذئب الأب رغم أن عينيه كانتا مفعمتين بالغضب : "لقد منحنا شرخان شرفًا عظيمًا.. ماذا يريد شرخان؟"

قال شرخان: "فريستى.. طفل بشرى دخل من هذا الطريق.. لقد هرب أبواه، أعطنى إياه."

كان شرخان قد قفز فوق نار معسكر الحطابين، كما قال الذئب الأب من قبل، وكان حانقًا يتميز غضبًا من الألم الذى يشعر به فى أقدامه المحترقة. لكن الذئب الأب كان يعرف أن فتحة الكهف شديدة الضيق على نحو لا يسمح بمرور نمر. وحتى فى المكان الذى وقف فيه، كانت أكتاف شرخان ومخالبه الأمامية لا تستطيع التحرك للأمام، مثل رجل يحاول القتال داخل برميل.

قال الذئب الأب: "الذئاب شعب حر، يتلقون أوامرهم من رئيس القطيع، وليس من أى قاتل ماشية مخطط. الطفل البشرى طفلنا - نقتله نحن إذا قررنا."

"تقررون أو لا تقررون! أى كلام هذا عن القرار؟ بحق الثور الذى قتلته، هل سأظل واقفًا على حافة عرين الكلاب الذى تسكن فيه أطالب بحقى؟ إنه أنا، شرخان، الذى يتحدث!"

ملأت زمجرة النمر الكهف بالرعد. خلصت الذئبة الأم نفسها من صغارها الملتصقين بها، واتجهت مباشرة ناحيته وعيناها تشعان مثل قمرين خضراوين يشعان فى الظلام، وواجهت عينى شرخان المتقدتين.

"وهذه أنا، راكشا (الشيطانة)، من تجيبك. الطفل البشرى طفلى أنا، يا أعرج ـ ملكى أنا! لن يُقتل. سيعيش ويرعى مع القطيع ويصطاد مع القطيع، وخلاصة القول، اسمعنى جيدًا يا صائد الأطفال البشريين الصغار العراة ـ يا آكل الضفادع ـ يا قاتل الأسماك ـ هذا الطفل سيطاردك فيما بعد! أما الآن فابتعد من هنا، وإلا بحق الأيل الضخم الذى قتلته (أنا لا آكل جيف الماشية) عد إلى أمك، يا حيوان الغابة المحترق، واعرج على سيقانك مثلما لم يحدث فى العالم من قبل! اذهب!"

تَطلَّع الذئب الأب مبهوتًا. لقد نسى تقريبًا تلك الأيام حين حظى بالذئبة الأم فى قتال شريف بينه وبين خمسة ذئاب أخرى، حين دخلت القطيع، ولم يطلقوا عليها اسم "الشيطانة" لمجرد المجاملة. يمكن لشرخان مواجهة الذئب الأب، لكنه لن يستطيع مجابهة الذئبة الأم، لأنه يعرف أنه يقف فى موضع تحظى فيه بكل ميزات امتلاك الأرض، وستقاتل حتى الموت. لذلك ابتعد عن فتحة الكهف وهو يدمدم متذمرًا. وعندما ابتعد مسافة كافية صاح:

"كل كلب ينبح فى أرضه! سنرى ماذا سيقول القطيع لمن يربى الأطفال البشريين. الطفل ملكى، وفى النهاية سيكون بين أسنانى، أيها اللصوص ذووالذيول الكثة!"

ألقت الذئبة الأم بنفسها بين الصغار وهى تلهث، وقال لها الذئب الأب ببطء ووقار:

"كلام شرخان به كثير من الحقيقة. لابد أن يعرض الرضيع البشرى على القطيع. هل ستحتفظين به أيتها الأم؟"

قالت لاهثة: "أحتفظ به؟ لقد أتى عاريًا، فى الليل، وحيدًا وجائعًا جدًا، ومع ذلك لم يكن خائفًا! انظر، لقد استطاع بالفعل أن يدفع أحد أطفالنا جانبًا. وذاك السفاح الأعرج يريد أن يقتله ويهرب إلى وينجانجا، بينما الفلاحون هنا يفتشون كل وكر وعرين طلبًا للثأر! أحتفظ به؟ مؤكد أننى سأحتفظ به. نم فى هدوء، أيها الضفدع الصغير. أنت موجلى ـ سأسميك موجلى تيمنًا بالضفدع موجلى ـ سيأتى الوقت الذى تصطاد فيه شرخان مثلما طاردك لاصطيادك".

قال الذئب الأب: "لكن ماذا سيقول قطيعنا؟"

ينص قانون الغابة بوضوح على أن أى ذئب، حين يتزوج، يبتعد عن قطيعه الذى ينتمى إليه، لكن بمجرد أن يكبر أطفاله ويتمكنوا من الوقوف على أقدامهم، لا بد أن يحضرهم إلى مجلس القطيع، الذى يُعْقَد عادة مرة فى الشهر عندما يكتمل القمر، لتتعرف عليهم الذئاب الأخرى. بعد ذلك الفحص يصبح الصغار أحرارًا فى الحركة والجرى أينما شاءوا. وحتى يقوم كل منهم بقتل أول ظبى، لا يُقْبل أى عذر من ذئب كبير من القطيع يقتل واحدًا من هؤلاء الصغار. والعقاب هو الموت أينما وُجد القاتل، ولو فكرت دقيقة ستجد أن الأمر لا بد أن يكون بهذا الشكل.

انتظر الذئب الأب حتى استطاع صغاره الجرى قليلاً، ثم أخذهم فى ليلة اجتماع القطيع، ومعهم موجلى والذئبة الأم إلى صخرة المجلس، وهى قمة تل مغطاة بالأحجار والصخور الكبيرة المستديرة،

يستطيع مائة ذئب أن يختبئوا وراءها. "أكيلا" وهو ذئب ضخم رمادى اللون، يتولى قيادة كل أفراد القطيع بقوته وحكمته. تَمدَّد بطوله على صخرته، وأسفل الصخرة جلس أربعون أو يزيد من الذئاب من كل حجم ولون، بداية من المحنكين ذوى الفراء الملون، الذين يستطيع كل واحد منهم صيد ظبى بمفرده، وصولاً إلى الذئاب الصغيرة السوداء التى تبلغ من العمر ثلاث سنوات والتى تعتقد فى أنفسها المقدرة على الصيد بمفردها. مضى الآن عام منذ تولى الذئب المتوحد قيادة القطيع. فى شبابه سقط مرتين فى شراك الذئاب التى ينصبها الصيادون، وتَعرَّض مرة للضرب وتُرك ليموت، لذلك فهو على دراية جيدة بأساليب وعادات البشر. دار كلام قليل للغاية حول الصخرة. تَكوَّم الصغار فوق بعضهم بعضًا فى وسط الدائرة التى كوَّنها آباؤهم وأمهاتهم، وبين حين وآخر يذهب واحد من الذئاب الكبيرة بهدوء إلى أحد الصغار، يتطلع إليه بدقة، ثم يعود لمجلسه دون أن تحدث كفوف أرجله أى صوت. أحيانًا تدفع إحدى الأمهات صغيرها تحت ضوء القمر، لتتأكد أنه تم فحصه ومعاينته. صاح أكيلا من فوق صخرته: "أنتم تعرفون القانون - أنتم تعرفون القانون، انظروا جيدًا، يا معشر الذئاب"، وقد تردد الأمهات القلقة آخذة منه خيط الحديث: "انظروا - انظروا جيدًا، يا معشر الذئاب!"

فى النهاية.. وقف شعر عنق الذئبة الأم حين حانت اللحظة، ودفع الذئب الأب الرضيع البشرى أمامه وقال: "الضفدع موجلى"

مثلما اعتادوا أن ينادوه، دفعه إلى وسط الدائرة، حيث كان جالسًا يضحك ويلعب ببعض الحصوات التى تبرق فى ضوء القمر.

لم يرفع أكيلا رأسه عن كفيه إطلاقًا، بل ظل على صيحته الرتيبة: "انظروا جيدًا". جاءت من وراء الصخور زمجرة مكبوتة ـ صوت شرخان يصيح: "الرضيع ملكى، أعطونى إياه. ماذا يفعل شعب حر بطفل بشرى؟" لم تهتز ولا حتى أذنا أكيلا، وكل ما قاله: "فكروا جيدًا يا معشر الذئاب! ما هى القواعد التى يجب أن يتبعها شعب حر مع من ينقذه هذا الشعب؟ فكروا جيدًا."

كان هناك "كورس" من العواء العميق، وقام ذئب صغير فى الرابعة من عمره بتكرار ساخر لسؤال شرخان لأكيلا: "ماذا يفعل شعب حر برضيع بشرى؟". ويقضى قانون الغابة بأنه إذا حدث أى جدل بصدد حق ذئب صغير فى أن يقبله القطيع، يجب أن يتحدث بشأنه عضوان على الأقل من القطيع ليسا أباه وأمه.

قال أكيلا: "من سيتحدث عن هذا الصغير؟ مَنْ مِنْ أفراد الشعب الحر سيتحدث؟" لم يتلقَّ أية إجابة، وتأهبت الذئبة الأم للاستعداد لما قد يكون آخر قتال لها، إذا وصلت الأمور للقتال.

عندئذٍ نهض الكائن الوحيد الآخر المسموح له بالكلام فى مجلس القطيع ـ بالو، الدب البنى الناعس الذى يُعَلِّم صغار الذئاب قانون الغابة: بالو العجوز، الذى يستطيع أن يأتى ويذهب أينما شاء لأنه يأكل فقط جوز الهند وجذور النبات والعسل ـ نهض على ساقيه الخلفيتين وزأر.

قال: "الرضيع البشرى - الرضيع البشرى؟ أنا أتحدث نيابة عن الرضيع البشرى. لا ضرر من الرضيع البشرى. ليس لدىّ ملكة الكلمات، لكنى أقول الحقيقة. دعوه يجرى مع القطيع، ويدخل مع الآخرين. أنا بنفسى سأعلمه".

قال أكيلا: "ما زلنا نحتاج شخصًا آخر، لقد تحدث بالو، وهو معلمنا الذى يعلم صغارنا، من يتحدث بالإضافة لبالو؟".

سقط ظل أسود فى قلب الدائرة. إنه باجيرا النمر الأسود، يغطى اللون الأسود كل جسمه، لكن انعكاس أضواء معينة عليه يجعل فراءه يشبه بريق الحرير. الجميع يعرفون باجيرا، ولا يجرؤ أحد على المرور فى طريقه، لأنه بارع مثل طباقى، وشجاع مثل الجاموس البرى، ومتهور مثل فيل جريح. لكن له صوت ناعم مثل العسل البرى حين يتساقط من شجرة، أنعم من الفجر.

دمدم قائلاً: "يا أكيلا وأنتم يا معشر الأحرار، ليس لى حق المشاركة فى مجلسكم. لكن قانون الغابة يقول إذا كان هناك شك حول موضوع لا يدخل فى نطاق القتل يتعلق بصغير جديد، فإن حياة ذلك الصغير يمكن أن يُدفع ثمنها. ولم يقل القانون من الذى يدفع أو لا يدفع ذلك الثمن. هل أنا على صواب؟"

قال الذئاب صغار السن الذين كانوا جائعين على الدوام: "رائع! رائع! استمعوا إلى باجيرا، يمكن شراء حياة الصغير بثمن. إنه القانون!"

"لأنى أعـــرف أنه لـــيس لى الحق فى الـــكلام، اســــمـــحـــوا لى بالانصراف."

صاح عشرون صوتًا: "فلتتحدث".

"من العـار قتل طفل رضيع أعـزل. علاوة عن ذلك، ربما يجلب لـكم صـيـدًا أفـضل عـنـدمـا يـكـبـر. بـالـو تحـدث نـيابـة عنه. والآن سأضيف إلى كلمة بالو ، ثورًا ضخمًا، قُتِلَ حديثًا، لا يبعد نصف ميل عن هنا، إذا قبلتم الرضيع البشرى وفقًا للقانون. هل هذا صعب؟"

ارتفعت ضجة من عشرات الأصوات تقول: "ما هى الحكاية؟ سيموت تحت أمطار الشتاء. ستحرقه الشمس. ما الضرر الذى يمكن أن يفعله بنا ضفدع أعزل؟ دعوه يجرى مع القطيع. أين الثور يا باجيرا؟ اقبلوه"، عندئذٍ جاء عواء أكيلا العميق وهو يصيح: "انظروا جيدًا، انظروا جيدًا يا معشر الذئاب!"

كان موجلى لا يزال منشغلاً باللعب بالحصوات، ولم يلحظ الذئاب وهى تقترب منه وتتطلع إليه واحدًا واحدًا. وفى النهاية هبطوا جميعًا التل وذهبوا إلى حيث الثور المقتول، ولم يبقَ إلا أكيلا وباجيرا وبالو وعائلة موجلى. كانت زمجرة شرخان لا تزال تتردد فى سماء الليل، فقد كان شديد الغضب لأنهم لم يعطوه موجلى.

قال باجيرا من تحت شواربه: "نعم، زَمْجِر جيدًا، لأنه قد اقترب الوقت الذى سيستطيع فيه ذلك الشىء العارى أن يجعلك تزمجر بشكل مختلف، وإلا فأنا لا أعرف شيئًا عن بنى البشر".

قال أكيلا: "لقد تم الأمر على خير ما يرام، فالبشر وأولادهم حكماء جدًا. ربما يقدم لنا المساعدة ذات يوم".

قال باجيرا: "هذا صحيح، سيقدم المساعدة فى وقتها، لأنه لا يمكن لأحد أن يأمل فى قيادة القطيع إلى الأبد".

لم يقل أكيلا شيئًا. كان يفكر فى الوقت الذى يأتى على أى قائد لأى قطيع حين تذهب قوته، ثم يصبح أضعف فأضعف، حتى تقتله الذئاب فى النهاية ويأتى من بعده قائد جديد ـ ليُقْتَل أيضًا حين يأتى عليه الدور.

قال للذئب الأب: "خذه بعيدًا، ودرِّبه ليليق بكونه واحدًا من الشعب الحر".

وهكذا انضم موجلى لقطيع سيونى للذئاب مقابل الثور المقتول وكلمة بالو الطيبة .

والآن لا بد أن تكون راضيًا لأنك تخطيت عشر أو إحدى عشرة سنة كاملة، ولا يمكنك أبدًا أن تخمن الحياة الرائعة التى عاشها موجلى بين الذئاب، لأنه لو تم تدوين كل هذه الأمور فإنها ستملأ كتبًا كثيرة. لقد نما مع صغار الذئاب، على الرغم من أنهم بالطبع كانوا بالفعل ناضجين إلى حد كبير، فى حين كان هو لا يزال رضيعًا. وقد علمه الذئب الأب ما يجب أن يقوم به من مهام، ومعانى الأشياء فى الغابة، حتى إن حفيف كل شجرة على حدة، وكل عبير مختلف من نسائم الليل الدافئ، وكل نغمة من نعيق البوم فوق رأسه، وكل خدش من مخالب خفاش على أغصان شجرة جثم فوقها

بعض الوقت، وكل طرطشة لأية سمكة صغيرة قفزت فى بركة ماء، أصبحت كلها مهمة له مثل العمل الكثير الذى يقوم به رجل أعمال فى مكتبه. عندما لا يكون منشغلاً بالتعلم كان يجلس فى الخارج تحت الشمس وينام، ثم يأكل وينام مرة أخرى، وعندما يشعر بالحر أو بأنه متسخ يسبح فى إحدى برك الغابة، وعندما يرغب فى أكل العسل (أخبره بالو أن العسل وجوز الهند لذيذان مثل أكل اللحم النىء) يتسلق الشجر ليجلبه، وقد علمه باجيرا كيف يفعل ذلك. كان باجيرا يستلقى على غصن شجرة ويناديه: "هيا تعالَ، يا شقيقى الصغير". وفى البداية كان موجلى يتعلق بالأغصان مثل شخص كسلان، لكنه فيما بعد تعلم كيف يقذف بنفسه بين الأغصان بشجاعة وقوة مثل القرد الرمادى الشجاع، وأن يتخذ مكانه على صخرة المجلس، أيضًا، عندما تعقد اجتماعات القطيع، وهناك اكتشف أنه إذا حَدّق بشدة فى أى ذئب، فإن الذئب سيُرغَم أن يخفض عينيه، وهكذا اعتاد أن يحدق فيهم من باب المزاح والتسلية. فى أوقات أخرى كان يخرج الشوك من أقدام أصدقائه، لأن الذئاب تعانى بمرارة من الشوك وأغلفة الثمار الشائكة التى تنغرز فى جلودها. كان يهبط التل فى الليل ويذهب إلى الأرض الزراعية، ويتطلع بفضول شديد نحو الفلاحين فى أكواخهم، لكنه لم يكن يثق فى بنى البشر، لأن باجيرا أراه صندوقًا مربعًا له باب قابل للسقوط ليغلقه، مخبأ ببراعة شديدة فى الغابة، حتى إنه يمكن الدخول فيه بغير أن يتنبه، وأخبره أن هذا فخ. الشىء الذى أحبه أكثر من أى شىء آخر هو الذهاب مع باجيرا إلى قلب الغابة المظلم الدافئ، لينام ويقضى اليوم كله فى النعاس، وفى الليل يرىَ كيف يصطاد

باجيرا فرائسه. كان باجيرا يقتل الفرائس يمينًا ويسارًا إذا شعر بالجوع، وهكذا كان موجلى يفعل، مع استثناء واحد. بمجرد أن أصبح صبيًا يافعًا يمكنه أن يفهم الأمور، قال له باجيرا إنه لا يجب على الإطلاق أن يلمس الماشية ، لأنه تم شراؤه لينضم إلى القطيع بحياة ثور. قال باجيرا: "كل الغابة ملك لك، تستطيع أن تقتل كل من تجد فى نفسك القوة التى تمكنك من قتله، لكن لأجل خاطر الثور الذى اشتراك بحياته لا يجب إطلاقًا أن تقتل أو تأكل ماشية سواء صغيرة أو كبيرة. ذاك قانون الغابة". وأطاع موجلى بإخلاص.

وراح ينمو وينمو مثلما ينمو أى فتى لا يعرف أنه يتعلم أية دروس، وليس لديه شىء فى العالم يفكر فيه عدا الأشياء التى يأكلها.

أخبرته الذئبة الأم مرة أو مرتين أن شرخان لم يكن مخلوقًا موضع ثقة، ويومًا ما عليه أن يقتله. ولكن على الرغم من أن الذئب الصغير يجب أن يتذكر تلك النصيحة كل ساعة، فإن موجلى نسيها لأنه كان فى حقيقته صبيًا - على الرغم من أنه كان سيسمى نفسه ذئبًا لو كان يستطيع الحديث بأية لغة بشرية.

كان شرخان يمر دائمًا فى طريقه فى الغابة، ولأن أكيلا تَقَدَّمَ فى العمر وأصابه وهن الشيخوخة، جاء النمر الأعرج وعقد صداقات مع ذئاب القطيع الأصغر سنًا، الذين قلدوه فى تناول الفتات، وهو أمر لم يكن أكيلا ليسمح به لو أنه ما زال يمتلك القدرة على ممارسة سلطاته الكاملة. عندئذٍ أخذ شرخان يتملقهم،

ويتعجب من أن مثل هؤلاء الصيادين الشباب اليافعين يرضون أن يتولى قيادتهم ذئب يموت وصبى من بنى البشر.

قال شرخان: "قالوا لى إنكم لا تجرؤون فى المجلس على النظر فى عينيه". وراحت الذئاب تعوى وقد وقفت هائجة .

باجيرا، الذى كانت له عيون وآذان فى كل مكان، عرف شيئًا من هذه الأمور، وقال لموجلى مرة أو مرتين، وشرح له بأكثر من طريقة، أن شرخان سيقتله يومًا ما. وكان موجلى يضحك ويقول: "لدىّ القطيع، لدىّ أنت، وبالو على الرغم من أنه كسول جدًا، قد يقوم بضربة أوضربتين من أجلى، لماذا أخاف؟ ".

ذات يوم شديد الدفء خطرت ببال باجيرا فكرة جديدة ـ وُلِدت من شىء سمعه، ربما يكون حيوان القنفذ المدعو "ساحى" هو الذى أخبره بذلك، لكنه قال لموجلى عندما أوغلا فى الغابة، بينما كان الولد ممددًا ورأسه على ظهر باجيرا الأسود الجميل: "شقيقى الصغير، كم مرة أخبرتك أن شرخان عدوك؟"

قال موجلى الذى كان بطبيعة الأمر لا يجيد العد: "مرات كثيرة مثل عدد ثمار جوز الهند على الشجرة، ما الأمر؟ أنا أشعر بالنعاس يا باجيرا، وشرخان ليس سوى ذيل طويل وصوت مرتفع ـ مثل الطاووس مور".

"لكن ليس هناك وقت للنوم ، بالو يعرف ذلك، وأنا أعرف ذلك، والقطيع كله يعرف ذلك، حتى الحمقى، الأيائل الحمقى يعرفون ذلك. طباقى أخبرك أيضًا".

قال موجلى: "هووا هووا من فترة ليست بعيدة أتانى طباقى وقال كلامًا وقحًا.. إننى كنت قطعة طعام إنسانية عارية ، ولا أستطيع حتى تقشير ثمرة جوز هند، لكنى أمسكت طباقى من ذيله وطوحت به مرتين وأنا ألطمه بشجرة جوز الهند لأعلمه أن يتحدث بأسلوب أفضل".

"كان ذلك حمقًا منك، لأنه على الرغم من أن طباقى يوقع الفتنة بين الناس، فقد قال لك شيئًا يهمك. افتح عينيك جيدًا يا شقيقى الصغير. لن يجرؤ شرخان أن يقتلك فى الغابة، لكن تذكر، أكيلا طعن فى السن، وسرعان ما يأتى اليوم الذى لا يستطيع فيه أن يقتل ظبيًا، وعندئذ لن يظل زعيمًا. وأيضًا كثير من الذئاب التى عاينتك وفحصتك أول مرة حَضَرْتَ فيها إلى المجلس، أصبحوا كبارًا الآن، والذئاب الصغيرة تعتقد، مثلما علمهم شرخان، أن طفل بنى البشر ليس له مكان بين القطيع. فى غضون وقت قليل ستصبح أنت رجلاً".

قال موجلى: "وما الذى يمنع الرجل من أن يجرى مع أشقائه؟ لقد وُلِدْتُ فى الغابة، وأطعت قانون الغابة، ولا يوجد ذئب واحد فى القطيع لم أخرج له من كفوفه شوكة، مؤكد أنهم أشقائى!"

تمطَّى باجيرا بأقصى ما يستطيع وأغمض عينيه نصف إغماضة وقال: "شقيقى الصغير، تَحسَّسْ تحت فكى".

مد موجلى يده السمراء القوية، وتمامًا تحت ذقن باجيرا الحريرية، حيث العضلات المستديرة العملاقة كلها مختبئة وراء الشعر اللامع، شعر تحت يده ببقعة صغيرة مجردة من الشعر.

"لا يوجد شخص واحد فى الغابة كلها يعرف أننى أنا باجيرا، أحمل هذه العلامة - علامة الطوق. إننى يا شقيقى الصغير وُلِدت بين بنى البشر، وبين البشر أيضًا ماتت أمى - فى أقفاص قصر الملك فى أوديبور. بسبب ذلك دفعت ثمنك فى المجلس عندما كنت مجرد طفل رضيع عار. نعم، أنا أيضًا وُلِدت بين البشر. لم أرَ الغابة مطلقًا. كانوا يطعموننى من خلف القضبان فى قفص حديدى، حتى حدث ذات ليلة أن شعرت أننى باجيرا - النمر الأسود - ولست لعبة لأى إنسان، وحطمت القفل السخيف بضربة واحدة من كفى وخرجت. ولأننى عرفت أساليب البشر، أصبحت مرعبًا فى الغابة أكثر من شرخان. أليس هذا صحيحًا؟"

قال موجلى: "بلى، الغابة كلها تخشى باجيرا - كلها عدا موجلى".

قال النمر الأسود بحنان شديد: "أوه، أنت طفل بنى الإنسان، ولأننى فى النهاية عدت لغابتى، أنت كذلك لا بد أن تعود يومًا إلى البشر - إلى البشر أشقائك - إذا لم تُقتل فى المجلس".

قال موجلى: "لكن ما السبب - ما السبب الذى يجعل أى شخص يتمنى أن يقتلنى؟"

قال باجيرا: "انظر إلىّ". ونظر موجلى إليه بثبات فى عينيه مباشرة. أدار النمر الأسود رأسه بعيدًا، لمدة نصف دقيقة.

قال وهو يحرك ساقه بين أوراق الأشجار: "ذلك هو السبب، ولا حتى أنا أستطيع أن أنظر فى عينيك، أنا الذى وُلِدت بين بنى البشر، وأحبك، يا شقيقى الصغير. الآخرون يكرهونك لأن عيونهم

لا تستطيع الالتقاء بعينيك، ولأنك حكيم، ولأنك تسحب الشوك من أقدامهم ـ لأنك إنسان".

قال موجلى وهو متجهم الوجه والعبوس يبدو تحت حاجبيه السوداوين الكثيفين: "أنا لا أفهم فى هذه الأمور".

قال باجيرا: "ما هو قانون الغابة؟ فكر أولاً ثم تكلم. يعرفون بمنتهى اللامبالاة أنك إنسان. لكن كن حكيمًا. أعرف فى قلبى الوقت الذى لن يتمكن فيه أكيلا من القيام بعملية القتل القادمة ـ وكل مطاردة ستكلفه المزيد ليحظى بصيد ظبى ـ حينئذ سينقلب القطيع عليه وعليك. سيعقدون مجلس الغابة على الصخرة، وعندئذ ـ وعندئذ ـ لقد وصلت إلى حل". ونهض واثبًا وقال: "هيا بنا بسرعة نذهب إلى أكواخ البشر فى الوادى، ونأخذ بعضًا من "الزهرة الحمراء" التى تنمو هناك، حتى إذا جاء الوقت يكون لديك صديق قوى، أقوى حتى منى ومن بالو ومن أفراد القطيع الذين يحبونك. هيا نقطف الزهرة الحمراء".

كان باجيرا يقصد بالزهرة الحمراء "النار"، ولا يوجد مخلوق فى الغابة يطلق على النار اسمها الحقيقى. كل الحيوانات يخافونها بشدة، ويخترعون مئات الطرق فى وصفها.

قال موجلى: "الزهرة الحمراء؟ تلك التى تنمو خارج أكواخهم وقت الشفق. سأحضر لك بعضًا منها".

قال باجيرا بفخر: "هكذا يتحدث أطفال بنى البشر، تذكر أنها تنمو فى أوانٍ صغيرة. أحضِرْ واحدة بسرعة، وحافِظْ عليها بجانبك حتى وقت الحاجة".

قال موجلى: "عظيم! سأذهب. لكن هل أنت متأكد يا صديقى العزيز باجيرا"- أفلت ذراعه من حول العنق الرائع بنعومة، ونظر بعمق فى العينين الكبيرتين - "هل أنت متأكد أن كل هذا من فعل شرخان؟"

"بحق القفل المحطم الذى حررنى، أنا متأكد يا شقيقى الصغير".

قال موجلى: "إذن، بحق الثور الذى مات ثمنًا لحياتى، سأجعل شرخان يدفع ثمن كل هذا، وربما أكثر قليلاً." وواصل طريقه.

قال باجيرا لنفسه وهو يتمدد مرة أخرى: "ذاك هو الإنسان. ذاك هو الإنسان تمامًا. أوه يا شرخان، منذ عشر سنوات لم يمر عليك يوم صيد أكثر سوادًا من ذلك اليوم الذى حاولت فيه صيد هذا الضفدع!".

جرى موجلى مبتعدًا فى الغابة، كان يجرى سريعًا جدًا، حتى شعر بقلبه ساخنًا بين ضلوعه. وصل إلى الكهف عندما انتشر ضباب المساء، والتقط أنفاسه، ونظر إلى الوادى. كان الصغار يلعبون فى الخارج، لكن الذئبة الأم فى مؤخرة الكهف أدركت من لهاثه أن ثمة شيئًا يقلق ضفدعها.

قالت: "ما الأمر يا ولدى؟"

رد عليها قائلاً: "بعض الهذر والثرثرة من شرخان.. سأصطاد فى حقول الأرض المزروعة الليلة". واندفع بين الأشجار، نحو النهر فى قاع الوادى. هناك بدأ يتطلع حوله بعين فاحصة لأنه سمع ضجة صيد القطيع. وسمع خوار أيل، وشخير ظبى يتحول إلى

صياح. ثم عواء الذئاب الصغيرة الشرير المرير: "أكيلا! أكيلا! دعوا الذئب المتوحد يستعرض قوته. أفسِحوا مكانًا لزعيم القطيع! هيا يا أكيلا! اقفز".

لا بد أن الذئب المتوحد حاول القفز على فريسته لكنه لم يفلح، لأن موجلى سمع طرقعة أسنانه ثم عواءً كما لو كان الظبى قد قَلَبَه وجثم فوقه برجليه الأماميتين.

لم ينتظر موجلى أى شىء آخر، بل اندفع بعنف وسرعة، وخفت صوت العواء وراءه وهو يجرى مندفعًا فى الأرض الزراعية حيث يعيش الفلاحون.

قال لاهثًا وهو يستريح بين علف الماشية بقرب نافذة كوخ: "قال باجيرا الحقيقة، الغد سيكون يومًا مشهودًا لأكيلا ولى".

عندئذ ضغط وجهه ملتصقًا بالنافذة وراقب النار فى الموقد. رأى زوجة صاحب الكوخ تنهض فى الليل وتغذى النار بكتل الفحم السوداء. وعندما انبلج الصبح وانقشع الضباب وصار الجو باردًا، رأى الطفل ابن صاحب الكوخ يلتقط قدرًا مجدولة من أغصان الأشجار مبطنة من الداخل بالطين، ويملؤها بكتل من الفحم الأحمر الساخن، ويضعها تحت الغطاء الذى يلتف به، ثم يخرج ليعتنى بالأبقار فى الحظيرة .

قال موجلى: "هل هذا كل شىء؟ إذا كان صبىٌّ صغير يستطيع القيام به، فلا شىء يخشاه المرء". وهكذا سار بخطوات مسرعة حول الركن والتقى بالولد، وأخذ القدر من يده، واختفى فى الضباب، بينما راح الولد يبكى من الخوف.

قال موجلى وهو ينفخ فى القدر مثلما رأى المرأة تفعل: "إنها مثلى تمامًا، هذا الشىء سيموت إذا لم أعطه شيئًا ليأكله". وألقى بالأغصان واللحاء الجاف على الفحم المتوهج. فى منتصف الطريق إلى التل التقى بباجيرا وندى الصبح المشرق يبرق على فرائه مثل "أحجار القمر" الكريمة اللؤلؤية الزرقاء.

قال النمر الأسود: "لقد أخفق أكيلا، ربما قتلوه البارحة، لكنهم يطلبونك أنت أيضًا. كانوا يبحثون عنك على التل".

"كنت أجوب الأراضى الزراعية. أنا مستعد ، انظر!"ورفع موجلى قدر النار.

"رائع! لقد رأيت رجالاً يلقون بالأغصان الجافة فى هذه النار، وها هى الزهرة الحمراء قد أينعت فى نهاية الأمر. هل أنت خائف؟"

"لا، ولماذا أخاف؟ أتذكر الآن - إن لم يكن حلمًا - كيف، قبل أن أكون ذئبًا، كنت أرقد بجوار الزهرة الحمراء، وكان يملؤنى الدفء والسرور".

ظل موجلى طوال ذلك اليوم جالسًا فى الكهف يرعى قدر النار ويلقى بالأغصان الجافة فيها ليرى كيف تبدو أمامه، حتى وجد غصنًا أرضاه. وفى المساء حين أتى طباقى إلى الكهف وقال له بوقاحة شديدة إنهم كانوا يطلبونه عند صخرة المجلس، ظل يضحك حتى انصرف طباقى. وذهب موجلى إلى المجلس وهو لا يزال يضحك.

كان أكيلا الذئب المتوحد راقدًا بجانب صخرته علامة على أن منصب زعامة القطيع قد أصبح خاليًا، وشرخان مع أتباعه من الذئاب آكلي الفضلات يجوبون المكان جيئة وذهابًا وهم يتباهون. جلس باجيرا قرب موجلي، وقدر النار بين ركبتي موجلي. عندما اجتمع شمل الجميع، بدأ شرخان خطبته ـ وهو أمر لم يكن يجرؤ على فعله مطلقًا حين كان أكيلا في ذروة قوته ومجده.

همس باجيرا قائلاً: "ليس له حق،يقولون إنه من سلالة الكلاب. واجِهْه بهذا وسيصيبه الرعب".

وثب موجلي على قدميه. وصاح: "أيها الشعب الحر، هل يتولى شرخان زعامة القطيع؟ ما علاقة نمر بزعامتنا؟"

بدأ شرخان الكلام قائلاً :كما ترون .. الترشيح للزعامة ما زال متاحًا، وقد طُلب منى أن ألقى كلمة..."

قاطعه موجلي قائلاً: "من الذى طلب منك ؟ هل نحن كلنا أبناء آوى حتى نتملق قاتل الماشية هذا؟ إن زعامة القطيع تنحصر فى أفراد القطيع فقط".

تعالت الضجة والصيحات قائلين: "اصمت. أنت ابن البشر! دعه يتكلم. إنه يحفظ قانوننا". وفى النهاية دوى صوت الكبار كالرعد: "دعوا الذئب الميت يتحدث". عندما يخفق زعيم القطيع فى قنص فريسته، يطلقون عليه "الذئب الميت" بقية حياته، التى لن تطول.

رفع أكيلا رأسه العجوز بقلق وقال:

"أيها الشعب الحر، وأنتم أيضًا معشر ابن آوى وشرخان.. على مدى اثنى عشر موسمًا توليت زعامتكم من صيد إلى صيد، وفى كل تلك المرات، ولا مرة واحدة وقعنا فى فخ الصيادين أو تعرضنا للبتر. وجاءت اللحظة التى أخفقت فيها فى عملية الصيد. أنتم تعرفون كيف تم تدبير هذه المكيدة. تعلمون كيف دبرتم لى مواجهة ظبى عَصِىّ لإظهار ضعفى. لقد تمت هذه المكيدة بمهارة. من حقكم أن تقتلونى هنا على صخرة المجلس.. الآن. لذلك أتوجه إليكم بالسؤال: من الذى سيضع نهاية لحياة الذئب المتوحد؟ لأن هذا من حقى، طبقًا لقانون الغابة، تقدموا واحدًا واحدًا!"

حل عليهم الصمت لفترة طويلة، حيث لم يرحب أى ذئب بأن يقاتل أكيلا حتى الموت. ثم جأر شرخان: "باه! ماذا نفعل مع هذا الأحمق الذى تساقطت أسنانه؟ إنه محكوم عليه بالموت! أما من عاش طويلاً فهو الطفل البشرى. أيها الشعب الحر، إنه صيدى من البداية. أعطونى إياه. قلق من ناحية هذا الإنسان الأحمق. لقد أوقع الغابة فى المتاعب لمدة عشرة مواسم، أعطونى الطفل البشرى، وإلا سأظل أصطاد هنا دائمًا، ولا أعطيكم عظمة واحدة. إنه إنسان، وابن إنسان، وأنا أكرهه من أعماق قلبى!"

هنا تعالى عواء أكثر من نصف أفراد القطيع: "إنسان! إنسان! ماذا يفعل إنسان معنا؟ دعوه يذهب إلى المكان الذى ينتمى إليه".

صرخ شرخان: "وتثيرون كل أهل القرى علينا؟ لا! أعطونى إياه. إنه إنسان، ولا يمكن لأى واحد منا أن ينظر فى عينيه".

رفع أكيلا رأسه مرة أخرى، وقال: "لقد شاركنا طعامنا، ونام معنا، ولعب معنا. لم يكسر كلمة واحدة من قانون الغابة ".

قال باجيرا بألطف نغمة صوت لديه: "وأيضًا أنا، دفعت ثمنه ثورًا حين تم قبوله فى المجلس. ثمن الثور قليل، لكن شرف باجيرا شىء يستحق القتال من أجله".

عوى أفراد القطيع قائلين: "دفعت الثور ثمنًا له منذ عشر سنوات! ما الذى يعنينا من عظام ثور عمرها عشر سنوات؟"

قال باجيرا، وأسنانه البيضاء تبدو تحت شفته: " وكأنكم تقولون وماذا يهمنا من العهد ؟ ومع ذلك تطلقون على أنفسكم الشعب الحر!"

زأر شرخان : "لا يمكن لبشرى أن يجرى مع أهل الغابة. أعطونى إياه!"

قال أكيلا: "إنه شقيقنا فى كل شىء عدا الدم، وتريد أن تقتله هنا! فى الحقيقة، لقد عشت عمرًا مديدًا. بعضكم من آكلى الماشية، وقد سمعت من الآخرين، أنكم تحت إشراف وتعليم شرخان، تذهبون فى الليالى المظلمة وتخطفون أطفال الفلاحين من على عتبات أبوابهم . لذلك أعرف أنكم جبناء، وللجبناء أُوَجِّه حديثى. مؤكد أننى يجب أن أموت، ولم يعد لحياتى قيمة، أو قد أقدمها فداء لحياة البشرى. لكن لأجل خاطر شرف القطيع. الذى نسيتموه لأنكم بلا زعيم ـ أعدكم إذا تركتم البشرى يذهب للمكان الذى ينتمى إليه، لن أدافع عن نفسى حين تأتى ساعة موتى ولا

بِسِنَّة واحدة. سأموت بلا قتال. ذلك سيوفر على القطيع حياة ثلاثة على الأقل. لا يمكننى أن أقدم أكثر من ذلك، لكن إذا أردتم، سأوفر عليكم العار الذى سيجلبه قتل شقيق لكم لم يرتكب ذنبًا - شقيق تحدثوا عنه وأدخلوه إلى القطيع وفقاً لقانون الغابة".

زمجر أفراد القطيع قائلين: "إنه إنسان، إنسان إنسان!"

وبدأت معظم الذئاب تتجمع حول شرخان، الذى بدأ يهز ذيله.

قال باجيرا لموجلى: "والآن.. ها هى خيوط اللعبة تتجمع بين يديك. لا حيلة أمامنا سوى القتال".

نهض موجلى واقفًا، وقدر النار بين يديه. ثم مد يديه، وتثاءب فى وجه المجلس. لكنه كان يمتلئ غيظًا وأسفًا، لأن طبعه كان يشبه طباع الذئاب، ولم تخبره الذئاب أنهم كانوا يكرهونه إلى هذه الدرجة. صرخ قائلاً: "اسمعوا! لا حاجة لثرثرة هذا الكلب. لقد أخبرتمونى الليلة كثيرًا أننى إنسان (وحقيقة كنت أتمنى أن أظل ذئبًا معكم حتى نهاية حياتى)، وأشعر أن كلماتكم حقيقية. لذلك لن أدعوكم أشقائى بعد ذلك، بل سأدعوكم كلابًا، كما ينبغى لبشرى أن يدعوكم. ما ستفعلونه وما لن تفعلوه ليس من حقكم أن تقرروه.. الموضوع يخصنى أنا. وربما لنتمكن من رؤية الموضوع بمزيد من الوضوح، أنا، الإنسان، أحضرت معى هنا قليلاً من الزهرة الحمراء التى تخشونها أنتم معشر الكلاب".

ألقى بقدر النار على الأرض، وأشعل بعض الفحم المتوهج ببعض الطحالب الجافة فانطلقت النيران، مما أدى إلى تراجع كل المجلس إلى الوراء فى رعب أمام ألسنة النيران المتوهجة.

وضع موجلى غصنه الجاف فى النار حتى اشتعل وقرقع، ودار به حول رأسه بين الذئاب الخائفة.

قال باجيرا بصوت منخفض: "أنت السيد، أنقِذْ أكيلا من الموت. كان دائمًا نعم الصديق لك".

أما أكيلا، الذئب الشرس العجوز الذى لم يَسْتَجْدِ فى حياته طلبًا للرحمة، فقد نظر نحو موجلى نظرة إشفاق، لأن الولد وقف عاريًا تمامًا، وشعره الأسود الطويل ينسدل على كتفيه فى ضوء الغصن المتوهج، مما جعل الظلال تقفز وترتجف.

قال موجلى، وهو يحدق حوله ببطء: "رائع! أرى أنكم كلاب. سأترككم وأذهب للبشر الذين أنتمى إليهم.. إذا كنت أنتمى إليهم. أغلقت الغابة أبوابها فى وجهى، ولا بد أن أنسى كلامكم ورفقتكم، لكنى سأكون أكثر رحمة منكم، لأننى كنت شقيقكم فى كل شىء عدا الدم. أعدكم أننى عندما آخذ مكانى كإنسان بين بنى البشر لن أخونكم لصالح بنى البشر مثلما قمتم بخيانتى". ركل النار بقدمه، فارتفع منها الشرر.." لن تكون هناك حرب بين أى منا فى القطيع. لكن هناك دَيْن يجب أن أوفيه قبل أن أذهب". اتجه مباشرة إلى المكان الذى يجلس فيه شرخان ينظر حوله بغباء متطلعًا للنار، وأمسك به من شعر ذقنه. وتبعه باجيرا تحسبًا لأية أحداث. صرخ موجلى قائلاً: "انهض أيها الكلب! انهض عندما يتحدث رجل، وإلا سأشعل النار فى شعرك!"

تـراخت أذنـا شـرخـان إلـى الـوراء حـول رأسـه، وأغـمض عـينـيه، لأن الغصن المتوهـج كان شديد القرب منه.

"قاتل الماشية هـذا قـال إنه سيقتلنى فى المجلس لأنه لم يقتلنى عنـدمـا كنت مـجـرد طـفل رضيع. ثـرثـرة كثـيـرة بلا طـائل، لـكن هل نضـرب الكلاب ونحن رجال؟ حرك شعـر لحيتك أيها الـكلب الأعرج، وسـأدك الـزهـرة الحـمـراء فى حـنـجـرتك!" ضـرب شـرخـان على رأسـه بالغصن المتقد، وعوى النمر وانتحب من عذاب الخوف.

"باه! فلتحترق يا قطة الغابة ـ اذهب الآن! لكن تـذكر عندما آتى المرة القـادمة إلى صخـرة المجلس، مثـلمـا يجـدر بـالإنسـان أن يـأتـى، سيكون جلد شـرخان موضوعًا على رأسى. أما بالنسبة للباقين، فإن أكيلا سيـمضـى حرًا ليعيش كما يحب. لن تقتلوه، لأن هـذا يتعارض مع إرادتى. ولا أعتقد أنكم ستبقون هنـا بعـد ذلك، تتدلـى ألـسنتكم كما لـو كنتم شيئًا آخر غير مجموعة كلاب أسـوقها أمامى.. هـكذا! اذهبوا!"، كـانت النـار تتوهـج بشدة فـى نهاية الغصن، وموجلى يندفع يمينًا ويسارًا فـى الدائـرة، والـذئاب تجـرى وهـى تـعوى وقد اشتعلت النـار فى فـرائها. فـى النهـاية لم يتبق فـى المكـان سوى أكيلا، وباجيرا، وربمـا عشـرة ذئـاب يـسـانـدون مـوجلـى. عـنـدئـذٍ بـدأ شـىء مـا يـؤلم موجلى من الـداخل، ألم لم يشـعـر به فى حيـاته من قـبل، وأمـسك أنفاسه وأخذ يبكى بحرقة، والدموع تبلل وجهه.

قـال: "مـا هـذا؟ مـا هـذا؟ لا أتمنـى أن أغـادر الـغـابة، ولا أدرى مـا هـذا. هل أنا أحتضر يا باجيرا؟"

قال باجيرا: "لا يا شقيقى الصغير. إنها مجرد دموع يذرفها البشر عادة، والآن أعرف أنك رجل ولم تعد طفلاً. لقد أغلقت الغابة أبوابها بالفعل أمامك من الآن فصاعدًا. دع دموعك تسيل يا موجلى. إنها مجرد دموع". وهكذا جلس موجلى وأخذ فى البكاء وقلبه ينفطر من الألم، وهو الذى لم يبكِ فى حياته من قبل مطلقًا.

قال: "والآن، ها أنا ذاهب إلى البشر، لكن علىّ أولاً أن أودع أمى". ومضى إلى الكهف، حيث تعيش أمه مع الذئب الأب، وبكى على فرائها، بينما تعوى الذئاب الأربعة الصغيرة على نحو يثير الرثاء.

قال موجلى: "لن تنسونى؟".

قالت الذئاب الصغيرة: "لن ننساك طالما هناك رائحة نشمها ويمكننا تتبعها. تعالَ إلى سفح التل عندما تصبح إنسانًا، وسنتحدث معك، وسنذهب إلى أرض المحاصيل لنلعب معك فى الليل".

قال الذئب الأب: "عد إلينا سريعًا! أوه، أيها الضفدع الصغير الحكيم، عد إلينا مرة أخرى سريعًا، لأننا نتقدم فى السن، أنا وأمك".

قالت الذئبة الأم: "عد إلينا سريعًا، يا ولدى الصغير العارى، واسمع جيدًا يا طفل البشر، لقد أحببتك أكثر مما أحببت أولادى".

قال موجلى: "مؤكد أننى سآتى إليكم، وعندما آتى، سيكون ذلك لكى أضع جلد شرخان على صخرة المجلس. لا تنسونى! قولوا لهم فى الغابة ألا ينسونى أبدًا !"

كان الفجر قد بدأ يشرق بنوره حين هبط موجلى سفح التل بمفرده، ليواجه تلك المخلوقات الغامضة التى يدعونها بشرًا.

أغنية الصيد لقطيع سيونى

عندما طلع الفجر ارتفع خوار الظبى مرة ومرتين!
ووثبت الظبية مرة ومرتين!
من بحيرة الغابة التى تشرب منها الغزلان
كنت وحدى أستكشف، وأنظر مرة ومرتين!

عندما طلع الفجر ارتفع خوار الظبى مرة ومرتين!
اختلس الذئب النظر مرة ومرتين!
ليحمل الرسالة للقطيع المنتظر
وبحثنا واكتشفنا وحاربنا على دربه مرة ومرتين!

عندما طلع الفجر هتف قطيع الذئاب مرة ومرتين !

الأقدام في الغابة لا تترك أثرًا!

لكن عيوننا ترى في الظلام - في الظلام !

واللسان يمنحنا كلامه مرة ومرتين!

صيد "كا"

النقاط على فرائه تميز الفهد، والقرون فخر الجاموس

كن نظيفًا، لأن قوة الصياد تُعرف من بريق جلده.

إذا اكتشفت أن الثور يستطيع أن يطرحك أرضًا،

أو أن الغزال ثقيل الحواجب يستطيع أن يطعنك بقرونه،

لا تتوانَ فى إخبارنا، نعرف ذلك منذ عشرة مواسم.

لا تقهر أطفال الغريب، بل رحب بهم كشقيقة وشقيق،

لأنهم صغار وضعاف، ربما تكون أمهم الدبة.

"لا أحد مثلى" .. هذا ما يقوله الصغير فخورًا بأول صيد،

لكن الغابة شاسعة والصغير ضئيل. اتركوه يتأمل ويهدأ.

قول مأثور عن بالو

كل ما سَيُحْكَى هنا حدث فى وقت ما قبل أن يغادر موجلى قطيع ذئاب سيونى، أو يثأر لنفسه من النمر شرخان. حدث ذلك أيام كان بالو يعلمه قانون الغابة. كان الدب الضخم الجاد العجوز بنى اللون سعيدًا أن يحظى بتلميذ سريع البديهة هكذا، لأن الذئاب الصغيرة تتعلم من قانون الغابة ما تحتاج لتطبيقه فى حدود قطيعها وقبيلتها فقط، تسرع بالجرى والفرار بمجرد أن تتمكن من ترديد أناشيد الصيد: "الأقدام التى لا تصدر أصواتًا على الأرض، العيون التى ترى فى الظلام، الآذان التى تسمع صوت الرياح فى مخابئها، والأسنان الحادة البيضاء، تلك كلها علامات تميز أشقاءنا عدا طباقى ابن آوى والضباع التى نكرهها". لكن موجلى، باعتباره طفلاً بشريًا، كان عليه أن يتعلم أكثر من هذا بكثير. فى بعض الأحيان كان باجيرا النمر الأسود يأتى متسكعًا فى الغابة ليباشر بنفسه كيف تجرى الأمور مع صغيره العزيز، وقد يعبِّر عن رضاه بصوت خفيض ورأسه على شجرة وموجلى يكرر على مسامع بالو ما تلقَّاه من دروس اليوم. كان الولد بمقدوره تسلق الأشجار بنفس قدرته على السباحة، ويستطيع السباحة بنفس المهارة التى يجرى بها. لذلك علمه بالو معلم القانون قوانين البر والبحر: كيف يميز بين الغصن العطن والغصن السليم، كيف يتحدث بأسلوب مهذب إلى النحل البرى حين يقترب من خلية ترتفع عن الأرض خمسين قدمًا، ماذا يقول للخفاش مانج حين يزعجه فى مكانه على الغصون فى منتصف النهار، وكيف ينبه ثعابين الماء فى البرك قبل أن يندفع سابحًا بينها. لا أحد من سكان الغابة يحب أن يزعجه الآخرون،

والجميع على أهبة الاستعداد للفرار عند قدوم أى دخيل. وتعلم موجلى أيضًا نداء الصيادين الغرباء، الذى يجب أن يكرره بصوت مرتفع أى فرد من سكان الغابة أينما أراد أن يصطاد خارج حدود أرضه إلى أن يتلقى الإجابة، فيقول ما معناه: "اسمح لى أن أصطاد هنا لأنى جوعان"، والإجابة تكون هكذا: "اصطد إذن ما يكفى لطعامك وليس للمتعة".

كل هذه الأمور تبين لك ما كان على موجلى أن يتعلمه ويحفظه عن ظهر قلب، وقد يصيبه الإنهاك الشديد من ترديد نفس القول أكثر من مئة مرة. لكن مثلما قال بالو لباجيرا ذات يوم حين غضب موجلى وجرى ومزاجه سيىء: "الطفل البشرى طفل بشرى، رغم ذلك عليه أن يتعلم كل شىء عن قوانين الغابة".

قال النمر الأسود الذى من الممكن أن يفسد موجلى بتدليله له لو جرت الأمور حسب طريقته: "لكن انظر كم هو صغير الحجم. كيف لهذا الرأس الصغير أن يحمل كل هذا الكلام الكثير؟!"

"هل هناك شىء فى الغابة أصغر جدًا من أن يُقْتَل؟ لا. لذلك أنا أعلمه هذه الأشياء، ولذلك أيضًا أضربه، أضربه ضربًا خفيفًا حين ينسى".

جأر باجيرا قائلاً: "ضربًا خفيفًا! ماذا تعرف أنت عن اللطف أو الخفة، يا صاحب الكف الحديدية العجوز؟ وجهه كله ملىء اليوم بالكدمات والخدوش من جراء هذا الضرب الخفيف. أوف".

رد عليه بالو بجدية شديدة: "أن يمتلئ بالكدمات والخدوش من قمة رأسه حتى أخمص قدميه من ضربى أنا الذى أحبه، أفضل

مما يمكن أن يصيبه بسبب الجهل. أنا أعلمه الآن كلمات التواصل الرئيسية للغابة التى ستحميه من الطيور والثعابين، وكل من يصطاد من ذوى الأربع، عدا قطيعه. يمكنه الآن أن يطلب الحماية من جميع سكان الغابة، فقط لو تذكر تلك الكلمات .. ألا يستحق ذلك قليلاً من الضرب؟".

"حسنًا، انتبه فقط ألا تقتل الطفل البشرى. إنه ليس جذع شجرة لتنشب فيه مخالبك الحادة. لكن ما هى كلمات التواصل تلك التى تتحدث عنها؟ من المفترض أن أمد يد المساعدة لا أن أسأل". مد باجيرا كفه وعبر عن إعجابه بمخالبه ذات اللون الأزرق الفولاذى - رائعة النحت - وأكمل: "ما زلت أرغب فى معرفتها".

"إذن سأنادى على موجلى وهو سيقولها لك - إذا رغب فى ذلك. هيا تعالَ يا شقيقى الصغير!".

قال موجلى بصوت منخفض غاضب من فوق رؤوسهم: "رأسى يطن مثل خلية نحل". وانزلق هابطًا جذع شجرة وهو ممتلئ غضبًا وسخطًا. وأضاف عندما وصل إلى الأرض: "لقد أتيت من أجل باجيرا وليس من أجلك أنت، يا بالو البدين العجوز!".

قال بالو رغم شعوره بالألم والحزن: "الأمر سيان عندى، قل لباجيرا إذن كلمات التواصل الرئيسية للغابة التى علمتها لك اليوم".

قال موجلى سعيدًا باستعراض معلوماته: "كلمات التواصل الخاصة بأية فئة؟ الغابة بها ألسنة متعددة. أنا أعرفها كلها".

"ما تعرفه قليل، أنت لا تعرف الكثير. انظر يا باجيرا، إنهم لا يشكرون مدرسهم أبدًا. ولا ذئب صغير عاد مرة ليشكر بالو العجوز على تعليمه له. قل إذن كلمات التواصل الرئيسية الخاصة بأهل الصيد - أيها التلميذ النجيب".

قال موجلى، وهو يتلو كلماته بلهجة الدب التى يستخدمها كل أهل الصيد: "نحن من دم واحد أنت وأنا".

"عظيم، والآن كلمات التواصل الخاصة بالطيور".

كرر موجلى ما قاله، وفى نهاية الجملة أطلق صفارة الحدأة.

قال باجيرا: "والآن كلمات التواصل الخاصة بالثعابين".

كانت الإجابة عبارة عن هسيس أفاعٍ شديد الإتقان بدرجة لا توصف، ورفس موجلى بقدميه، وصفق بيديه استحسانًا وإعجابًا بنفسه، وقفز على ظهر باجيرا، الذى كان يجلس جانبًا، وأخذ يقرع بكعبيه جسده اللامع، وينظر إلى بالو وعلى وجهه أسوأ تعبيرات يمكنه أن يتصورها.

قال الدب البنى برقة: "هكذا! هكذا! كان هذا يستحق بعض الكدمات. يومًا ما ستتذكرنى". ثم التفت جانبًا ليحكى لباجيرا كيف توسل إلى الفيل البرى "حاثى" الذى يعرف كل تلك الأشياء ليخبره بكلمات التواصل الرئيسية، وكيف أخذ حاثى موجلى وسبح به فى بركة الماء ليحصل على كلمات التواصل الخاصة بالثعابين من أحد ثعابين الماء، لأن بالو لم يستطع نطقها نطقًا صحيحًا، وكيف أن

موجلى أصبح الآن آمنًا إلى حد كبير ضد كل الحوادث فى الغابة، لأنه لا ثعبان ولا طائر ولا حيوان سيؤذيه.

أنهى بالو كلامه وهو يربت على فروة بطنه الكثيفة بفخر: "هكذا إذن لا يوجد من تخشاه".

قال باجيرا بصوت منخفض لا يسمعه أحد: "إلا قبيلته"، ثم أكمل بصوت مرتفع موجهًا حديثه إلى موجلى: "انتبه لضلوعى يا شقيقى الصغير! ما كل هذا الوثب لأعلى وأسفل؟!"

كان موجلى يحاول أن يلفت إليه أنظارهما ليستمعا إليه، فيسحب فراء كتف باجيرا ويرفسها بقوة. حين أصغى الاثنان إليه كان يصيح بأعلى صوته: "لذا سيكون لى قبيلة خاصة، أقودهم بين الأغصان طوال اليوم".

قال باجيرا: "ما هذه الحماقة الجديدة أيها الحالم الصغير؟".

قال موجلى: "نعم"، وألقى بالأغصان والوحل على العجوز بالو، وواصل كلامه قائلاً: "لقد وعدونى بذلك. آه!".

"أوووف!" سحب بالو موجلى من على ظهر باجيرا بكفه الكبيرة. ولأن الولد سقط بين كفيه الأماميتين استطاع أن يرى أن الدب غاضب.

قال بالو: "موجلى، أنت تحدثت مع "الباندارلوج".. شعب القرود".

نظر موجلى نحو باجيرا ليرى إذا كان النمر الأسود غاضبًا أيضًا، فرأى عينى باجيرا قاسيتين مثل حجر أخضر.

"تحدثت مع شعب القرود - تلك القرود الرمادية - ذلك الشعب الذى ليس له قانون - يأكلون كل شىء. هذا عار كبير".

قال موجلى (وكان لا يزال على ظهره): "عندما أصابنى بالو فى رأسى، ذهبت بعيدًا، ونزلت القرود الرمادية من أعلى الأشجار وأحاطتنى بشفقتها! لم يهتم بى أحد غيرهم". ثم تنهد قليلاً.

قال بالو بصوت غليظ: "شفقة شعب القرود! سكون تيار الماء النازل من الجبل! برودة شمس الصيف! وماذا بعد يا أيها الطفل البشرى؟"

"وبعد ذلك، وبعد ذلك أعطونى جوز الهند وأشياء لذيذة لآكلها، وحملونى على أذرعهم إلى قمم الأشجار، وقالوا إنى شقيقهم بالدم عدا أننى لا أملك ذيلاً، وأننى سأكون زعيمهم يومًا ما".

قال باجيرا: "إنهم قوم بلا زعيم، إنهم يكذبون.. دائمًا يكذبون".

"لقد كانوا غاية فى اللطف، وطلبوا منى أن أعود إليهم مرة أخرى. لماذا يتحتم علىّ عدم الذهاب إلى شعب القرود أبدًا؟ إنهم يقفون على قدمين مثلى. لا يضربوننى بكفوفهم القوية. يلعبون طول اليوم. دعنى أنهض! يا بالو السيىء، دعنى أنهض! سألعب معهم مرة أخرى".

قال الدب وصوته كالرعد فى ليلة حارة: "اسمع أيها الطفل البشرى - لقد علمتك كل قوانين الغابة، الخاصة بكل شعوب الغابة - عدا شعب القرود الذين يعيشون على الشجر، فليس لهم قانون.

إنهم شعب منبوذ. ليس لديهم لغة خاصة بهم، بل يستخدمون الكلمات المسروقة التى يسمعونها حين يسترقون السمع على الآخرين، ويختلسون النظر، وينتظرون أعلى الأغصان. إن طريقهم ليس طريقنا. ليس لديهم زعماء. ليس لديهم ذاكرة. إنهم يتفاخرون ويثرثرون ويزعمون أنهم شعب عظيم يوشك أن يقوم بإنجازات عظيمة فى الغابة، لكن سقوط ثمرة جوز هند واحدة كفيل بأن يغير رأيهم فيضحكوا وينسوا كل شىء. نحن أهل الغابة ليس لنا أى تعامل معهم. إننا لا نشرب من حيث يشربون، لا نذهب للمكان الذى يذهبون إليه، لا نصطاد حيث يصطادون، ولا نموت حيث يموتون. هل سمعتنى يومًا أتحدث عن الباندارلوج فى أية مناسبة حتى هذه اللحظة؟"

حين انتهى بالو قال موجلى هامسًا، لأن الغابة كانت تسبح فى سكون عميق: "لا".

"إن شعوب الغابة أخرجتهم من أفواهها كما أخرجتهم من تفكيرها. إنهم كثيرون وأشرار وقذرون، ولا يخجلون من شىء.. ويرغبون، إذا كانت لديهم رغبة محددة، أن يلحظهم أهل الغابة. لكننا لا نلحظهم حتى عندما يقذفون ثمار جوز الهند والقاذورات على رؤوسنا".

لم يكد ينتهى من كلامه حتى انهال سيل من ثمار جوز الهند والأغصان الجافة عليهم من خلال أغصان الأشجار، وسمعوا سعالاً وصيحات وقفزات غاضبة فوقهم فى الهواء بين الغصون.

قال بالو: "ممنوع التعامل مع معشر القردة هنا، ممنوع تعامل سكان الغابة معهم.. تذكر هذا".

قال باجيرا: "ممنوع، هذا صحيح، لكننى ما زلت أعتقد أن بالو كان لابد أن يحذرك منهم قبل الآن".

"أنا.. أنا؟ كيف كان لى أن أخمن أنه سيلعب مع مثل أولئك الحثالة؟ شعب القردة! أوف!"

انهال سيل قوى على رؤوسهم، وهرول الاثنان وأخذا معهما موجلى. ما قاله بالو عن القردة حقيقى تمامًا. إنهم ينتمون إلى قمم الأشجار، ولأن الحيوانات نادرًا ما تتطلع إلى أعلى، لم تكن هناك مناسبة للقرود وأهل الغابة أن يلتقى أحدهم بالآخر فى طريقه. لكن أينما وجدت القردة ذئبًا مريضًا أو نمرًا جريحًا، أو دبًا، فإنها تعذبه، وتلقى بالعصى وثمار جوز الهند على أى حيوان للتسلية أملاً أن يلفتوا الأنظار، ثم يأخذون فى الصياح وغناء أغان تافهة، ويدعون سكان الغابة للصعود إلى قمم الأشجار التى يقفون فوقها ويقاتلونهم. أو قد يبدأون فى الشجار الساخط مع بعضهم بعضًا على لا شىء، ويتركون القردة الميتة نتيجة هذا الصراع فى مكان يمكن لسكان الغابة رؤيته. طالما بحثوا عن زعيم لهم، وعن قوانين وعادات خاصة بهم، لكنهم لم يصلوا إلى تنفيذ هذا تنفيذًا فعليًا، لأنهم لا يستطيعون أن يتذكروا أمرًا أكثر من يوم واحد، لذلك يقومون بتسوية الأمور بقولهم: "ما يفكر فيه الباندارلوج الآن هو ما ستفكر فيه الغابة فيما بعد". وكانت طريقتهم هذه فى التفكير

تريحهم كثيراً. لم يتمكن أى حيوان من الوصول إليهم. لكن على الجانب الآخر لم يلحظ أى حيوان وجودهم ولا التفت إليهم، لذلك كانت سعادتهم بالغة حين أتى موجلى ولعب معهم، وسمعوا كم أصبح بالو غاضبًا بسبب ذلك.

لم يقصدوا القيام بأكثر من ذلك - الباندارلوج لم يقصدوا القيام بأى شىء على الإطلاق. لكن أحدهم اخترع ما بدا له فكرة عبقرية، وقال لكل الآخرين إن موجلى قد يكون شخصًا نافعًا إذا ضموه إلى قبيلتهم، لأنه يجيد حبك الأغصان معًا للحماية ضد الرياح، لذلك إذا أمسكوا به. سيجعلونه يعلمهم، بالطبع، لأن موجلى ابن حطاب، ورث كل أنواع الغرائز، واعتاد بناء أكواخ صغيرة من الأغصان المتساقطة، دون أن يفكر كيف وصل لإتقانها. وكان شعب القردة يراقبونه من فوق الأشجار، معتقدين أن لعبه رائع. هذه المرة، قالوا إنهم حقيقة يريدون أن يكون لهم زعيم وأن يصبحوا الشعب الأكثر حكمة فى الغابة، الأكثر حكمة حتى إن الآخرين جميعًا سيلاحظونهم ويحسدونهم. لذلك تتبعوا بالو وباجيرا وموجلى عبر الغابة بهدوء شديد حتى حانت لحظة قيلولة منتصف النهار، وموجلى الذى كان يشعر بالخجل الشديد من نفسه، نام بين النمر الأسود والدب، مقررًا ألا يلعب مع شعب القردة مرة أخرى.

ما شعر به بعد ذلك مباشرة كان أيادٍ على ساقيه وذراعيه، أيادٍ صغيرة قاسية قوية، ثم حفيف أغصان على وجهه، ثم وجد نفسه يحلق فوق الأغصان الكبيرة المتمايلة، بينما أيقظ بالو الغابة

بصراخه العميق وباجيرا يقبض على جذع الشجرة بكل أسنانه. أطلق الباندارلوج صيحات النصر وأسرعوا بتسلق قمم الأشجار العالية بحيث لا يمكن لباجيرا أن يصل إليهم، وصاحوا: "لقد تنبه لنا! باجيرا تنبه لنا. كل سكان الغابة معجبون بنا لمهارتنا ودهائنا." ثم بدأوا فى الفرار، وفرار شعب القردة فوق الأشجار واحد من الأمور التى لا يمكن للمرء أن يصفها، فلهم طرقهم المعتادة، وتقاطعات طرقهم فوق التلال وتحتها، كلها ترتفع عن الأرض من خمسين إلى سبعين أو حتى مائة قدم! وبهذه الوسيلة يمكنهم السفر حتى أثناء الليل إذا اقتضت الضرورة. أمسك اثنان من أقوى القردة موجلى من تحت ذراعيه وأخذا يقفزان به وهما يؤرجحانه عبر قمم الأشجار، مسافة عشرين قدمًا فى الوثبة الواحدة. لو لم يكونا يحملان موجلى لاستطاعا مضاعفة السرعة، لكن وزن الولد كان يعوق سرعتهما. وعلى الرغم من أن موجلى أصبح مريضًا ومصابًا بالدوار، فقد استمتع بالاندفاع السريع، مع أن اللمحات الخاطفة للأرض البعيدة تحته قد أخافته، وإحساسه المرعب بالهزات التى يتعرض لها فوق لا شىء سوى الهواء والفراغ جعل قلبه يقفز بين أسنانه.

واندفع القردان اللذان يحملانه ودفعاه فوق شجرة حتى شعر بأن الأغصان الرفيعة جدًا تقرقع وتنحنى تحتهم، ثم سعلا وشهقا وقذفا بأنفسهما فى الهواء متأرجحين لأعلى ولأسفل، وتعلقا بأيديهما أو بأقدامهما بالأغصان المنخفضة للشجرة المجاورة. كان يستطيع أحيانًا أن يرى على بعد أميال وأميال الغابة الخضراء

الساكنة، كما يمكن لرجل فوق الصارى أن يرى البحر تحته على بعد أميال، ثم تصفعه الأغصان وأوراق الأشجار فى وجهه، ويكاد هو وحارساه أن يصلوا إلى الأرض مرة ثانية. وهكذا استمرت قبيلة باندارلوج كلها فى تكبيله وخدشه، والشهيق والصراخ، عبر طرقهم بين الأشجار ومعهم سجينهم موجلى.

ظل بعض الوقت خائفًا أن يسقطاه، ثم شعر بالغضب، لكنه وجد من الأفضل عدم إثارة أى شجار، ثم بدأ يفكر. كان أول شىء خطر بباله إرسال رسالة إلى بالو وباجيرا، لأنه أدرك أنه بالسرعة التى يجرى بها القردان سيكون من الصعب على أصدقائه اللحاق به. كان من غير المجدى أن ينظر إلى أسفل، لأنه لم يكن يرى شيئًا سوى الأغصان العالية فوق قمم الأشجار، لذلك حملق فى السماء. ورأى هناك بعيدًا فى السماء الزرقاء، الحدأة "شيل" توازن نفسها وهى تراقب من أعلى فى انتظار أى كائن يموت. رأت شيل القردين يحملان شيئًا، لذا انخفضت عدة ياردات لترى إذا كان ما يحملانه شيئًا يصلح كطعام. صفرت الحدأة من المفاجأة عندما رأتهما يسحبان موجلى إلى قمة شجرة، وسمعته يعطيها إشارة الحدأة: "نحن من دم واحد، أنت وأنا". حالت كثافة الأغصان بينها وبين الولد، لكن شيل وازنت حركتها واتجهت نحو الشجرة المجاورة فى الوقت المناسب لترى الوجه الأسمر الصغير يرتفع مرة أخرى. وهنا صاح موجلى: "تتبعى مسارى.. أخبرى بالو الذى ينتمى لقطيع سيونى وباجيرا الذى ينتمي لصخرة المجلس بمكانى".

قالت شيل: "باسم من يا شقيقى؟" لم تكن شيل قد رأت موجلى من قبل، على الرغم من أنها سمعت عنه بالطبع.

"الضفدع موجلى. إنهم ينادوننى الطفل البشرى! تتبعى مسارى!"

خرجت الكلمات الأخيرة على هيئة صراخ، لأن موجلى كان يتأرجح فى الهواء، لكن شيل أومأت وحلقت مرتفعة حتى لم تعد تراه أكثر من ذرة غبار صغيرة. وظل موجلى معلقًا، يراقب بعينيه الثاقبتين تمايل قمم الأشجار بينما مرافقاه يدوران حوله.

قالت شيل وهى تضحك ضحكة خافتة: "إنهم لا يبتعدان كثيرًا أبدًا، إنهما لا يفعلان ما ينويان أن يفعلاه مطلقًا. دائمًا يجذب انتباههما أشياء جديدة. هكذا الباندارلوج.. هذه المرة، إذا صدق ظنى، قد اختاروا لأنفسهم المشكلات، لأن بالو ليس غرًا ساذجًا، ويستطيع باجيرا كما أعلم أن يقتل ما هو أكثر من الماعز".

وهكذا هزت جناحيها، وجمعت ساقيها تحتها وانتظرت.

فى الوقت نفسه، كان بالو وباجيرا يفوران بالغضب والحزن. تسلق باجيرا الشجرة كما لم يتسلق من قبل، لكن الغصون الرفيعة تحطمت تحت عبء ثقله، وانزلق، وامتلأت كفوفه بالخدوش.

زمجر باجيرا مُحَدِّثًا بالو المسكين الذى كان يهرول هرولة خرقاء أملاً فى اللحاق بالقرود: "لماذا لم تُحَذِّر الطفل البشرى؟ ما فائدة أن تكاد تقتله بضرباتك إذا لم تحذره؟"

قال بالوا لاهثاً: "هيا أسرع! أسرع! ربما.. ربما نلحق بهم!"

"بهذه السرعة!؟ إنك لن تلحق ببقرة جريحة. يا مدرس القانون - يا ضارب الطفل - إن ميلاً من هذا اللف والدوران سيجهدك بلا طائل. اجلس وفكر! ضع خطة. لا وقت للمطاردة. ربما يسقطانه إذا تبعناهما واقتربنا منهما كثيرًا".

"آه! آه! ربما يكونان قد أسقطاه بالفعل بعد أن تعبا من حمله، من يثق بالباندارلوج؟ ضع خفافيش ميتة على رأسى! أو اعطنى عظامًا سوداء لآكلها! أو لُفَّنى فى خلية نحل برى فقد ينتهى أمرى وأموت، ادفنِّى مع الضباع، لأننى أكثر الدببة بؤسًا! أوف، أوووه! آه يا موجلى، يا موجلى! لماذا لم أحذرك من معشر القردة بدلاً من أن أكسر رأسك؟ والآن ربما أكون قد لقنته درس اليوم بعجلة، ولم يحفظه فى ذهنه جيدًا، وسيكون وحيدًا فى الغابة بغير كلمات التواصل الرئيسية للغابة".

أمسك بالو أذنيه بكفيه وأخذ يدور حول نفسه هنا وهناك وهو يئن.

قال باجيرا بصبر نافد: "على الأقل لقد ذكر لى كل كلمات التواصل الرئيسية بطريقة صحيحة منذ وقت قصير". ثم وجه كلامه لبالو: "بالو، أنت ليس لديك ذاكرة جيدة ولا احترام للذات. ماذا سيعتقد أهل الغابة عندما ألتف أنا النمر الأسود حول نفسى وأولول مثل ساهى القنفذ؟"

"ما الذى يهمنى فيما يفكر فيه أهل الغابة؟ ربما يكون قد مات الآن".

"إذا لم يسقطوه من فوق أغصان الأشجار أثناء لعبهم، أو يقتلوه من باب المزاح، فلن يكون لدىَّ مخاوف على الطفل البشرى. إنه حكيم ومتعلم، وبالإضافة إلى ذلك لديه عينان تبثان الخوف فى كل أهل الغابة. لكنه (وهذا شر كبير) فى قبضة قوى الباندارلوج، ولكونهم يعيشون فوق الأشجار، فهم لا يخشون أى شخص من قومنا". قال باجيرا هذا ولعق أحد كفيه الأماميتين مفكرًا.

قال بالو: "أنا أحمق! أوه، وبدين، وبنى اللون، أحمق يبحث عن المتاعب.. هذا أنا". وفَرَدَ نفسه وهو يقول ساخرًا: "صحيح ما يقوله الفيل البرى حاتى: لكل كائن مخاوفه الخاصة، والباندارلوج يخافون "كا" ثعبان الصخرة. هو يستطيع أن يتسلق ويصعد الأشجار مثلهم. هو يسرق القردة الصغيرة فى الليل. إذا همس أحدهم باسمه تسرى القشعريرة فى ذيولهم. هيا نذهب إلى كا".

قال باجيرا: "ماذا سيفعل لنا؟ إنه لا ينتمى لقبيلتنا، لأنه ليس له أقدام ـ كما أن له عينين تفيضان شرًا".

قال بالو متمنيًا: "إنه عجوز جدًا وبارع جدًا. علاوة على ذلك هو جوعان دائمًا.. لنَعِدْه بكثير من الماعز".

"إنه ينام شهرًا كاملاً بعد كل وجبة يأكلها، ربما يكون نائمًا الآن، وحتى إذا كان مستيقظًا، ماذا لو كان يفضل أن يقتل الماعز بنفسه؟" وكان شك باجيرا أمرًا طبيعيًا، لأنه لم يكن يعرف الكثير عن كا.

"فى هذه الحالة، أنت، وأنا الصياد العجوز، ربما نستطيع معًا أن نجعله يجد سببًا وجيهًا لمساعدتنا". هنا دعك بالو كتفه ذات اللون

البنى الباهت أمام النمرالأسود، وانطلقا للبحث عن ثعبان الصخور كا.

وجداه متمددًا على صخرة دافئة فى شمس بعد الظهيرة، يتعاجب بجلده الجميل الجديد، فقد كان فى عزلة خلال الأيام العشرة الأخيرة لأنه كان يغير جلده، والآن جلده شديد الروعة، يرشق رأسه الكبير ذا الأنف الحاد فى الأرض، ويلولب جسمه الذى يبلغ طوله ثلاثين قدمًا فى عقد ومنحنيات رائعة، ويلعق شفتيه اعتقادًا منه أن وجبة الطعام تقترب.

قال بالو "إنه لم يأكل بعد". وشعر بالراحة بمجرد أن رأى جلده الجديد الجميل باللونين البنى والأصفر. "احترس يا باجيرا! بعد تغيير جلده، يصاب دائمًا بعمى طفيف وسرعة انقضاض".

فى الحقيقة لم يكن كا ثعبانًا سامًا، بل بالأحرى يكره الثعابين السامة لأنه يعتبرها جبانة ـ لكن قوته تكمن فى عناقه، وعندما يلتف بحجمه الهائل حول أى كائن فلا مجال لقول أى شىء. صاح بالو: "صيد طيب!" وجلس على فخذيه. وكا مثل كل الثعابين من فصيلته كان أصم إلى حد ما، فلم يسمع النداء فى البداية. ثم التفت مستعدًا لأى حادث، فانخفض رأسه.

أجاب: "صيد طيب لنا جميعًا، أوهوو، بالو، ماذا تفعل هنا؟ صيد طيب يا باجيرا. على الأقل واحد منا يحتاج للطعام. هل هناك أية أخبار عن الصيد حاليًا؟ أرنبة مثلاً أو حتى ثور صغير؟ أنا فارغ مثل بئر جافة".

قال بالو بلا اكتراث: "نحن ذاهبون للصيد بالطبع". كان يعرف أنه لا بد من عدم استعجال كا، لأنه شديد الضخامة.

قال كا: "اسمح لى أن أذهب معك، إنها هجمة صيد لا أكثر ولا أقل، وهذا ليس خطيرًا بالنسبة لك يا باجيرا ولا أنت يا بالو، لكن بالنسبة لى أنا - أنا أنتظر وأنتظر أيامًا فى طرق الغابة وممراتها وأظل أتسلق نصف ليلة - لمجرد فرصة اصطياد قرد صغير. أووف! الأغصان لم تعد كما كانت عندما كنت صغيرًا. لقد أصبحت كلها غصونًا عطنة وفروعًا جافة".

قال بالو: "ربما لوزنك الثقيل علاقة بالأمر".

أجاب بقليل من التفاخر: "أنا طولى مناسب - طولى مناسب لوزنى، لكنها غلطة هذا الشجر الذى نما حديثًا. كدت أسقط فى اللحظة الأخيرة آخر مرة قمت فيها بالصيد - حقيقة كدت أسقط - ولأن ذيلى كان ملتفًا بشدة حول الشجرة فإن الضجة التى صدرت عن انزلاقى أيقظت الباندارلوج ونعتونى بأسوأ الأسماء".

قال باجيرا من تحت شواربه، كما لو كان يحاول أن يتذكر شيئًا: "عديم الأقدام، دودة الأرض الصفراء".

قال كا: "صه! هل قالوا عنى حقًا هذه الأشياء؟"

"شىء ما من هذا القبيل صاحوا به لنا آخر مرة اكتمل فيها القمر، لكننا لم نهتم بهم مطلقًا. إنهم يقولون أى شىء - قد يقولون حتى إنك فقدت كل أنيابك، وإنك لا تقوى على مواجهة أى شىء

أكبر من عنزة صغيرة، لأنك (إنهم حقًا لا يخجلون أولئك الباندارلوج) تخشى قرون الماعز الكبيرة" .. استمر باجيرا فى هذا الكلام بلهجة ناعمة.

الثعبان، خاصة ثعبانًا يقظًا عجوزًا من فصيلة الأصلة الضخمة مثل كا، نادرًا ما يُظهِر غضبه، لكن بالوا وباجيرا استطاعا أن يبصرا عضلات كا الكبيرة القادرة على الابتلاع على جانبى حلقومه تتموج وتنتفخ.

قال بسرعة: "لقد غير الباندارلوج أماكنهم. حين خرجت فى الشمس اليوم سمعتهم يتصايحون بين قمم الأشجار".

قال بالو: "إنهم - إنهم الباندارلوج من نتبعهم اليوم". لكن الكلمات انحشرت فى حلقه، لأنها المرة الأولى التى يذكر فيها أن واحدًا من أهل الغابة اهتم بما تفعله القردة.

أجابه كا بكياسة، بينما يملؤه الفضول: "بلا شك لا يمكن أن يكون أمرًا تافهًا هذا الذى جعل صيادَيْن كبيرين مثلكما - وأنا واثق كذلك أنكما بمثابة قائدين مهمين فى غابتكما - يقتفيان أثر الباندارلوج".

بدأ بالو الحديث قائلاً: "فى الحقيقة، أنا لست أكثر من دب طاعن فى السن وأحيانًا مدرس شديد الحمق يُدَرِّس قانون الغابة لصغار ذئاب قطيع سيونى، وباجيرا هنا.."

قال النمر الأسود وهو يطبق فكيه، لأنه لم يكن يعتقد أن يأتى يوم يتواضع فيه: "باجيرا - المشكلة يا كا أن لصوص جوز الهند وسعف النخيل أولئك ، قد سرقوا طفلنا الآدمى الذى ربما تكون قد سمعت عنه".

"سمعت بعض الأخبار من ساهى (ريشه يجعله جريئًا) عن إنسان ما أدخلوه فى قطيع الذئاب، لكنى لم أصدق، ساهى ملىء بالقصص التى سمع نصفها ثم يحيكها بشكل سيىء".

قال بالو: "لكن هذا حقيقى. إنه طفل آدمى لم يسبق له نظير. أفضل وأحكم وأجرأ طفل آدمى - إنه تلميذى، الذى سيجعل من اسم بالو اسمًا شهيرًا فى كل الغابة. بالإضافة لذلك، أنا - نحن - نحن نحبه يا كا".

هز كا رأسه يمينًا ويسارًا فى إشفاق وقال: "أنا أيضًا عرفت معنى الحب ذات يوم. هناك حكايات أستطيع أن أحكيها لكما.."

قاطعه باجيرا بسرعة قائلاً: "هذه الحكايات تحتاج ليلة صافية نكون قد أكلنا فيها جميعًا أكلاً جيدًا لنستطيع الإنصات جيدًا، فإن طفلنا الآدمى وقع فى أيدى الباندارلوج، ونحن نعرف أنهم لا يخشون من كل سكان الغابة سوى كا".

قال كا: "إنهم لا يخشون أحدًا سواى. لديهم سبب وجيه، يثرثرون، حمقى، بلا جدوى - أولئك القردة. لكن ذلك الإنسان بين أيديهم أمر لا يبشر بخير. لقد سئموا ثمار جوز الهند التى يلتقطونها ويلقونها على رؤوسنا . إنهم يحملون غصنًا لمدة نصف

يوم، راغبين أن يفعلوا به أشياء كبيرة ، ثم يحطموه إلى اثنين. ذلك الإنسان فى موقف لا يحسد عليه. ويطلقون علىَّ أيضًا ـ السمكة الصفراء، أليس كذلك؟"

قال باجيرا: "الدودة ـ الدودة ـ دودة الأرض، كما يقولون أشياء أخرى يمنعنى حيائى أن أقولها لك".

"علينا أن نُذَكِّرهم أن يتحدثوا بأدب عن سادتهم. آه ـ هووو! لا بد أن ننشط ذاكرتهم العجيبة. الآن، إلى أين ذهبوا بالصبى؟"

قال بالو: "الغابة فقط تعرف. أعتقد تجاه مغيب الشمس، لقد فكرنا أنك ربما تعرف يا كا".

"أنا؟ كيف؟ أنا آخذهم حين يعترضون طريقى، لكنى لا أطارد الباندارلوج، أو الضفادع ـ أو الطحالب الخضراء فى فتحات الماء.. هسسسس!"

"هيا، هيا، هيا!، مرحبًا، مرحى مرحى، انظروا .. إنه بالو معلم قطيع ذئاب سيونى!"

تطلع بالو إلى أعلى ليرى من أين يأتى الصوت، فرأى الحدأة شيل، تندفع بقوة مع الشمس الساطعة وهى تطير باسطة جناحيها. كان الوقت يقترب من موعد نوم شيل، لكنها طافت كل أرجاء الغابة تبحث عن الدب ولم تجده بين الشجيرات الكثيفة.

قال بالو: "ما هذا ؟"

"لقد رأيت موجلى بين الباندارلوج. طلب منى أن أخبرك. لقد راقبته. الباندارلوج أخذوه وراء النهر إلى مدينة القردة.. إلى مخبئهم البارد. ربما يمكثون هناك مدة ليلة، أو حتى عشر ليال، أو ساعة. لقد طلبت من الخفافيش أن تراقبهم أثناء الظلام. هذه هى رسالتى. صيدًا طيبًا لكم جميعًا على الأرض!"

قال باجيرا بصوت مرتفع: "بطنًا ممتلئًا بالطعام ونومًا عميقًا لك يا شيل، سأتذكرك فى صيدى القادم، وأحتفظ برأس الصيد لك وحدك - أوه، أنت أفضل حدأة!"

"لا شىء. لا شىء على الإطلاق. الولد نادانى بكلمة التواصل. لم يكن بوسعى أن أفعل أقل من هذا".. ودارت شيل مرة أخرى متجهة إلى مأواها.

قال بالو وهو يضحك ضحكة فخر خافتة: "لم ينسَ استخدام لسانه، يا له من ولد ذكى! عندما تفكر فى ولد صغير يتذكر كلمات التواصل الرئيسية الخاصة بالطيور فى اللحظة التى يسحبونه فيها فوق الأشجار!"

قال باجيرا: "لقد دخلت الكلمات فى رأسه بقوة، لكنى فخور به.. والآن علينا التوجه إلى مدينة "العرين البارد".

كان جميعهم يعرفون المكان، لكن قليلون من أهل الغابة من ذهبوا إلى هناك، لأن ما يدعونه "العرين البارد" كان مدينة مهجورة قديمة ضاعت ودُفِنَت فى الغابة، ونادرًا ما تستخدم الحيوانات مكانًا استخدمه البشر من قبل. من الممكن أن يرغب فى ذلك الخنزير

البرى، لكن قبائل الصيد، لا. بالإضافة إلى ذلك، فالقردة تعيش هناك منذ وَعَتِ الغابة وجودهم، ولا يمكن لحيوان يحترم نفسه أن يدخل مرمى البصر فى ذلك المكان إلا فى أوقات الجفاف عندما تحتوى الصهاريج والخزانات المحطمة إلى حد كبير، على القليل من المياه.

قال باجيرا: "إنها رحلة تستغرق نصف ليلة لو سرنا بأقصى سرعة". وبدا بالو شديد الجدية وهو يقول بقلق: "سأسير بأقصى ما أستطيع من سرعة".

"نحن لن نستطيع انتظارك يا صديقى بالو .. الحَقْ بنا. أنا وكا مضطران للسير بخطو سريع".

قال كا، باختصار: "أرجل أو لا أرجل، أنا أستطيع مواكبة كل ما يسير على أربع أرجل". بذل بالو مجهودًا للحاق بهما، لكنه اضطر للجلوس وهو يلهث، وهكذا تركاه ليلحق بهما فيما بعد، بينما أسرع باجيرا متقدمًا للأمام بأسرع ما يستطيع نمر أسود أن يهرول. لم يقل كا شيئًا، لكنه كان يناضل مثل باجيرا، فسار ثعبان الأصلة الضخم موازيًا له. عندما وصلا إلى نهر فى التلال، كسب باجيرا الجولة لأنه قفز فوقه، بينما سبح كا، ورأسه وقرابة قدمين من طول عنقه يفسحان له الطريق فى الماء، وعندما وصل إلى اليابسة قام بتعويض التأخير.

عندما بزغ نور الفجر قال باجيرا: "بحق القفل المحطم الذى حررنى، أنت لست عدّاءً بطيئًا!"

قال كا: "أنا جوعان... ومع ذلك يطلقون علىَّ الضفدع المنقط".

"الدودة - دودة الأرض، والأصفر حتى طرف الذيل".

قال كا وكأنه يتمدد بطوله على الأرض، وقد عثر على أقصر طريق بعينيه الثابتتين، وراح يواصل طريقه: "الأمر سيان.. دعنا نواصل طريقنا".

فى مدينة "العرين البارد" لم يفكر مجتمع القردة فى أصدقاء موجلى على الإطلاق. لقد أحضروا الولد إلى المدينة المفقودة، وكانوا سعداء للغاية بأنفسهم هذه المرة. لم يرَ موجلى من قبل مدينة هندية، وعلى الرغم من أنها كانت تقريبًا مجرد كومة من الخرائب، إلا أنها بدت له شديدة الروعة والجمال. لقد بناها أحد الملوك القدامى منذ عهد بعيد فوق تل صغير. بإمكانك تتبُّع الممرات الحجرية المؤدية إلى البوابات الخربة حيث توجد آخر قطع حطام الخشب معلقة فى المفصلات المهترئة الصدئة. الأشجار نمت داخل الحوائط وخارجها، الجدران ذات الفتحات على سور المدينة قد تداعت وتشققت، والنباتات البرية المتسلقة مدلاة من نوافذ الأبراج أو معلقة على الحوائط فى كتل عشبية متساقطة.

يتوج أعلى هذا التل قصر كبير تساقطت أسقفه ، وتصدع وتشقق الرخام المرمرى المبلطة به الأرضيات والنوافير وتلطخ باللونين الأحمر والأخضر، وحصى الرصف فى الفناء الذى كانت أفيال الملك تعيش فيه ضغطته الأعشاب والشجيرات الصغيرة وفصلته عن بعضه. من القصر يمكنك رؤية صفوف وصفوف من

البيوت الخالية من الأسقف مما جعل المدينة تبدو وكأنها أقراص عسل مليئة بالسواد والظلمة، والكتل الحجرية التى كانت من قبل تماثيل وثنية، والميدان الذى تلتقى فيه الشوارع الأربعة، والحفر والنقر فى أركان الشوارع التى كانت ذات يوم آبارًا عامة، وقباب المعابد المحطمة وعلى جوانبها أشجار التين اليابسة. أطلقت مجموعة القردة على المكان مدينتهم، وزعموا أنهم يحتقرون أهل الغابة لأنهم يعيشون فى الأدغال. ومع ذلك لم يعرفوا قط سبب بناء تلك البنايات ولا كيف يستخدمونها. كانوا يجلسون فى دوائر فى ساحة قاعة مجلس الملك، ويهرشون جلودهم بحثًا عن البراغيث مدعين أنهم من بنى البشر، أو يجرون داخل وخارج البيوت الخالية من الأسقف، يجمعون قطع الجص والطوب القديم ويكومونها فى ركن، ثم ينسون أين وضعوها. ويتعاركون ويصرخون فى جلبة وشجار، ثم يتوقفون ليلعبوا فوق وتحت شرفات حديقة الملك، حيث يهزون أشجار الورود والبرتقال فى مزاح ليروا الفاكهة والزهور تتساقط. اكتشفوا كل الممرات والقنوات المظلمة فى القصر ومئات الحجرات المظلمة الصغيرة، لكنهم لم يتذكروا قط ما رأوه وما لم يروه، ثم يتسحبون فرادى وثنائيات ومجموعات ليحكى كل واحد للآخر أنه فعل مثلما يفعل أبناء آدم. يشربون من صهاريج المياه، ويملؤونها بالوحل ثم يتعاركون بسبب ذلك، بعدئذ يندفعون معًا فى مجموعات وهم يتصايحون: "لا يوجد كائن واحد فى الغابة حكيم ومفيد وماهر وقوى ونبيل مثل الباندارلوج". ثم يبدأون مرة أخرى فى تكرار ما فعلوه من قبل، حتى يتعبوا من المدينة ويعودوا إلى قمم الأشجار، أملاً أن يتنبه إليهم أهل الغابة.

موجلى، الذى تدرب فى ظل قانون الغابة، لم يحب هذا النوع من الحياة ولم يفهمه. سحبته القردة إلى "مدينة العرين البارد" فى وقت متأخر بعد الظهيرة، وبدلاً من أن يناموا، مثلما توقع موجلى بعد رحلة طويلة كهذه، أمسكوا بأيدى بعضهم بعضًا وراحوا يرقصون ويغنون أغنياتهم الحمقاء. ألقى واحد من القردة خطبة وقال لرفاقه إن أسر موجلى يعد نقطة فاصلة فى تاريخ الباندارلوج، لأن موجلى سيعلمهم كيف يجدلون أعواد النباتات والخيزران معًا لتحميهم من الأمطار والبرد. التقط موجلى بعض النباتات المتعرشة وبدأ يجدلها. وحاولت القردة تقليده، لكنهم بعد دقائق قليلة فقدوا اهتمامهم، وبدأوا يشدون ذيول أصدقائهم أو يقفزون إلى أعلى وأسفل على أرجلهم الأربعة ويسعلون.

قال موجلى: "أريد طعامًا، أنا غريب فى هذه المنطقة من الغابة. أحضروا لى طعامًا، أو أعطونى تصريحًا بالصيد هنا".

تفرق عشرون أو ثلاثون قردًا ليحضروا له ثمار جوز الهند والببو، لكنها سقطت منهم أثناء شجارهم فى الطريق، وكان من العسير العودة بما تبقّى من الفاكهة. كان موجلى يشعر بالألم والغضب ناهيك عن الجوع، فأخذ يطوف فى المدينة الخالية مرسلاً نداء الصيد الخاص بالغرباء من وقت لآخر، لكنه لم يتلقَّ إجابة، وشعر موجلى أنه وصل فى الواقع إلى مكان سيىء جدًا. فكر بينه وبين نفسه قائلاً: "كل ما قاله بالو عن الباندارلوج حقيقى، فليس لهم قانون، ولا نداء للصيد، ولا زعماء. لا شىء سوى كلمات حمقاء

وأيدٍ صغيرة تسرق ما تجده أمامها. لذلك إذا متُّ جوعًا أو قُتِلت هنا، فهذا بسبب غلطتى أنا. لكن لابد أن أحاول العودة إلى غابتى. مؤكد أن بالو سيضربنى، لكن هذا أفضل من البحث عن أوراق الورد السخيفة مع الباندارلوج".

لم يكد يصل إلى حائط المدينة حتى سحبته القردة وأعادته، وقالوا له إنه لا يدرك مدى السعادة التى يشعر بها، وقرصوه ليشعر بالامتنان. جز على أسنانه ولم يقل شيئًا، بل ذهب مع القردة بجلبتهم وضوضائهم إلى شرفة فوق صهاريج من الحجر الأحمر كانت نصف ممتلئة بمياه الأمطار. كان هناك بيت صيفى خرب من الرخام الأبيض فى منتصف الشرفة، بُنِى من أجل الملكات الراحلات منذ مئة عام. السقف ذو القباب كان نصف منهار إلى الداخل، مما أدى إلى سد الممر الموجود تحت الأرض المؤدى للقصر والذى كانت تستخدمه الملكات فى الدخول، لكن الجدران كانت مصنوعة من الرخام المزخرف. عمل زخرفى جميل فى بياض الحليب، مطعم بالعقيق الأسود والأحمر وحجر اليشب الأخضر واللازوردى. وعندما سطع ضوء القمر من خلف التل انعكس الضوء عليه، مكونًا ظلالاً على الأرض مثل أشغال المخمل السوداء. ولأن موجلى كان موجوعًا وناعسًا وجوعان، لم يستطع أن يغالب الضحك عندما بدأ الباندارلوج، عشرون قردًا مرة واحدة، يحكون له كم هم عظماء وأقوياء ونبلاء، وكم هو أحمق لأنه يريد أن يتركهم : "نحن عظماء. نحن أحرار. نحن رائعون. نحن الشعب الأكثر روعة فى كل الغابة! نحن جميعًا نقول ذلك، لذلك هذا حقيقى". هكذا أخذوا يصيحون:

"والآن بما أنك مستمع جديد ويمكنك حمل الرسالة وتوصيل كلماتنا إلى أهل الغابة حتى يتنبهوا إلينا فى المستقبل، سنخبرك بكل شىء عنا نحن الممتازين". لم يُبْدِ موجلى أى اعتراض، واجتمعت القرود مئات ومئات فى الشرفة ليصغوا إلى متحدثيهم وهم يغنون أغنيات المديح والإطراء للباندارلوج، وحين يتوقف المتحدث ليلتقط أنفاسه لحظة، يصيحون جميعًا فى صوت واحد: "هذا صحيح، جميعنا نقول ذلك"، ويومئ موجلى موافقًا ويطرف بعينيه ويقول "نعم" عندما يوجهون له أى سؤال، ورأسه تموج بالضجيج. قال لنفسه: "لا بد أن طباقى ابن آوى قد عض كل هؤلاء القوم، والآن أصابهم الجنون. مؤكد أن هذا هو الديوانى، أى الجنون المطبق. ألا ينامون أبدًا؟ ها هى سحابة قادمة ستغطى القمر. أتمنى لو كانت كبيرة بما يكفى لتساعدنى على الفرار فى الظلام، لكننى متعب".

تلك السحابة ذاتها كانت محط مراقبة اثنين من الأصدقاء المخلصين فى الخندق المتهدم تحت حائط المدينة، لأن باجيرا وكا يعلمان جيدًا أن خطورة شعب القردة تكمن فى عددهم الضخم، لذلك لم يرغبا فى المجازفة بأية مغامرات خطرة. القرود لا يحاربون إطلاقًا إلا مائة مقابل عدو واحد، وقليلون فى الغابة من يكترثون لهذه الأمور الغريبة.

همس كا: "سأذهب إلى الحائط الغربى، وأتسلل بهدوء ونعومة على الأرض المنحدرة لتساعدنى. لن يلقوا بأنفسهم على ظهرى بالمئات، لكن..."

قال باجيرا: "أعرف ذلك، أتمنى لو كان بالو معنا، لكننا يجب أن نفعل ما نستطيع. عندما تغطى السحابة القمر سأذهب إلى الشرفة. لديهم نوع ما من الاجتماع يعقدونه حول الصبى".

قال كا بتجهُّم: "صيد طيب"، وانزلق نحو الحائط الغربى. تَصادَفَ أنه كان الشىء الأقل تهدمًا فى المدينة، وتأخر الثعبان الضخم وهلة قبل أن يجد طريقه بين الصخور. أخفت السحابة القمر، وبينما كان موجلى يتساءل ما الذى سيحدث فى اللحظة التالية، سمع خطوات باجيرا الخفيفة فى الشرفة. سار النمر الأسود فى الخندق دون صوت تقريبًا، ولأنه يعرف أنه من الأفضل ألا يضيع الوقت فى عض القرود، كان يضرب يمينًا ويسارًا مَن كانوا يجلسون حول موجلى فى دوائر اتساعها خمسون أو ستون قدمًا. كان ثمة صراخ من الخوف والغضب. ثم عندما تعثر باجيرا فى الأجسام المتكورة تحته، صاح قرد: "إنه واحد فقط! اقتلوه! اقتلوه!" تجمعت القرود حول باجيرا، يعضونه، يخمشونه، يمزقونه، ويسحبونه، وقد أغلقوا الدائرة حوله، بينما خمسة أو ستة أمسكوا بموجلى، وسحبوه نحو حائط المنزل الصيفى، ودفعوه من خلال فتحة القبة المحطمة. يمكن لأى صبى دربه إنسان أن يصاب برضوض بالغة لأن السقطة كانت من ارتفاع خمس عشرة قدمًا، لكن موجلى سقط كما علمه بالو أن يسقط، وهبط على قدميه.

صاحت القردة: "ابقَ هنا إلى أن نقتل أصدقاءك، وفيما بعد سنلعب معك. إذا تركك قوم السموم حيًا". (يقصدون الثعابين).

قال موجلى بسرعة وهو ينادى نداء الثعابين: "نحن من دم واحد أنا وأنتم". سمع حفيفًا وهسيسًا فى القمامة حوله، فكرر النداء مرة أخرى حتى يتأكد.

سمع نصف دستة أصوات منخفضة تقول: "أخفِضوا رؤوسكم جميعًا!" (كل الخرائب فى الهند تصبح عاجلاً أو آجلاً مرتعًا للثعابين، والبيت الصيفى القديم كان ممتلئًا بحيات الكوبرا!) "ابقَ ساكنًا، يا شقيقى الصغير، حتى لا تؤذينا بقدميك".

وقف موجلى بهدوء بأقصى ما يستطيع، يختلس النظر من الفتحة ويصغى للجلبة الغاضبة والعراك حول النمر الأسود. للعواء والثرثرة والشجار. وسعل باجيرا سعالاً عميقًا مبحوحًا وهو يقع على ظهره وينطرح على الأرض ويختفى تحت أكوام من أعدائه. للمرة الأولى منذ مولده كان باجيرا يحارب من أجل حياته.

فكر موجلى: "لا بد أن بالو قريب من هنا، لا أعتقد أن باجيرا أتى بمفرده". عندئذٍ صاح بصوت مرتفع: "اذهب إلى صهريج الماء يا باجيرا. اتجه إلى صهاريج الماء. دُرْ واغطس فى الماء! اذهب إلى الماء!".

سمعه باجيرا، وعرف من الصيحة أن موجلى يخبره أنه بخير، مما منحه الشجاعة. شق طريقه مستميتًا، بوصة بوصة، مباشرة نحو الصهاريج، مترنحًا فى صمت. ثم من الحائط المتهدم الأقرب للغابة ارتفع صوت بالو مدمدمًا بصيحة الحرب. بذل الدب العجوز أقصى ما فى وسعه، لكنه لم يستطع أن يصل قبل ذلك. صاح قائلاً:

"باجيرا، أنا هنا. أنا أتسلق! أنا أُسرِع! أهووورا! الأحجار تنزلق تحت قدمىّ! انتظر.. أنا قادم، أوه، أولئك الباندارلوج السفلة!" قطع الشرفة ركضًا فقط ليختفى مع رأسه فى موجة من القردة المتحركة، لكنه ألقى بنفسه مباشرة على فخذيه، وبسط كفيه الأماميتين، وأمسك منهم بقدر ما استطاع أن يمسك، ثم بدأ يضربهم بإيقاع منتظم : بات بات بات، مثل ضربات مجاديف سفينة تدار بالبخار. أدرك موجلى من أصوات التهشم والطرطشة أن باجيرا حارب حتى وجد طريقه إلى خزان الماء، حيث لا تستطيع القردة أن تتبعه. رقد النمر الأسود يلتقط أنفاسه، رأسه فقط خارج الماء، بينما وقفت القردة على مبعدة ثلاثة أقدام على الدرجات الحمراء، يرقصون إلى أعلى وأسفل وهم يفورون غضبًا، على أهبة الاستعداد للانقضاض عليه من كل الجهات إذا خرج لمساعدة بالو. عندئذٍ رفع باجيرا ذقنه المتدلى، وفى يأس أرسل إلى الثعبان نداء الحماية: "نحن من دم واحد، أنت وأنا"، لأنه اعتقد أن كا قد هرب فى اللحظة الأخيرة. حتى بالو، قد لان موقفه بعض الشىء والقردة فوقه على حافة الشرفة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من السعال عندما سمع النمر الأسود يطلب المساعدة.

كل ما استطاع كا أن يفعله حتى الآن، أن يشق طريقه إلى الحائط الغربى، ومس الأرض بالتواءة شديدة أزاحت أحد الأحجار، فسقط ذلك الحجر فى الخندق. لم تكن لديه النية أن يفقد أية فرصة للتشبث بالأرض، وأخذ يلف جسده ويفكه ويلفه ويفكه مرة أو مرتين، ليتأكد تمامًا أن كل قدم من طول جسمه الكبير فى مكانه

الصحيح. كل ذلك بينما العراك مع بالو ما زال مستمراً. وصاحت القردة فى الخزان حول باجيرا، والخفاش مانج يطير محلقًا هنا وهناك، يحمل أخبار المعركة الكبيرة لأهل الغابة، حتى إن حاثى الفيل البرى صاح بصوت مرتفع. وهناك على البعد، استيقظت مجموعات متفرقة من القردة وأتت تتكوم وتقفز فى طرق الأشجار لمساعدة رفاقهم فى مدينة العرين البارد. وارتفعت ضجة الشجار فأيقظت طيور الصباح على بعد أميال حول المكان. ثم أتى كا مباشرة بسرعة وقلق ليقتلهم. وتكمن قوة القتال لدى ثعبان الأصلة الضخم فى انقضاضه برأسه مدعومًا بكل قواه الجسدية ووزنه. لو كان بوسعك أن تتخيل رمحًا، أو مقدمة سفينة حربية مدببة تهاجم بعنف، أو مطرقة تزن نصف طن يتحكم فيها عقل رابط الجأش هادئ يعيش فى مقبضها، فبإمكانك أن تتخيل هيئة كا حين يحارب، إذ يمكن لثعبان الأصلة الذى يصل طوله أربع أو خمس أقدام أن يدكّ رجلاً تحته إذا ضربه فى صدره، وكا طوله ثلاثون قدمًا، كما تعرف. أول ضرباته وجّهها فى قلب الجمهرة المحتشدة حول بالو. جاءت الضربة فى محلها ولم يكن هناك حاجة للكلام، فهربت القردة إلى بيوتها. ولم تكن هناك حاجة لضربة ثانية، إذ إن القردة تبعثرت مصحوبة بصرخات: "كا! إنه كا! اجروا! اجروا!"

أجيال من القرود كانت تعيش فى ذعر تام وتُحسِن سلوكها عند سماعهما القصص التى يحكيها لها كبارها عن كا، لص الليل، الذى يستطيع التسلل عبر أغصان الأشجار بهدوء شديد مثلما تنمو الطحالب، ويسرق أقوى القردة على وجه البسيطة. كا العجوز، الذى

يستطيع أن يتظاهر بأنه غصن ميت أو جذع شجرة قصيرة عطن يخدع أذكى العقول، حتى يمسك بهم وهو مُتخفٌ فى شكل غصن. كان كا هو كل ما تخشاه القرود فى الغابة، لأنه لا أحد منهم يعرف حدود قوته، ولا أحد منهم يستطيع النظر فى وجهه، ولم يخرج أحد من عناقه حيًا. وهكذا جروا يتمتمون من الرعب، إلى حوائط وسقوف البيوت. وتنهد بالو تنهيدة ارتياح. كانت فراؤه أسمك وأكثر كثافة من فراء باجيرا، لكنه عانى بشدة فى المعركة. ثم فتح كا فمه للمرة الأولى وأطلق هسيسًا طويلاً واحدًا، جعل القردة البعيدة تلوذ بالفرار محتمية بمدينة العرين البارد. وقفوا حيث كانوا خائفين، حتى مالت الأغصان من ثقلهم وتحطمت تحتهم مهشمة. القردة فوق الحوائط والبيوت المهجورة توقفت عن الصراخ. وفى ظل هذا الصمت الذى حط على المدينة سمع موجلى باجيرا يهز جسمه المبتل وهو يصعد ليخرج من خزان الماء. ثم انفجرت الضوضاء والجلبة مرة أخرى. تكومت القردة أعلى الحوائط، وتعلقوا بأعناق الزخارف الحجرية الكبيرة، وصرخوا وهم يغادرون الشرفات المطلة على السطح، بينما موجلى يرقص فرحًا فى البيت الصيفى، وقد وجَّه بصره إلى الحواجز المزخرفة وصاح بنعيق البوم، فخرج الصوت من بين أسنانه الأمامية ليظهر سخريته واحتقاره لهم.

قال باجيرا وهو يلهث: "أخرِج الطفل الآدمى من الشرك.. لا يسعنى أن أفعل أكثر من هذا.. دعنا نأخذ الطفل الآدمى ونرحل. ربما يهاجموننا مرة أخرى".

قال كا فى هسيس: "لن يتحركوا من مكانهم حتى آمرهم بذلك". ثم وجَّه حديثه للقردة قائلاً :"ابقوا فى أماكنكم.. سسسسسو". وغرقت المدينة فى صمت عميق مرة أخرى.

قال بالو: "لم أستطع أن آتى مبكرًا يا شقيقى، لكن أعتقد أننى سمعت نداءك".

أجابه باجيرا قائلاً: "أنا.. ربما أكون أنا قد صرخت فى المعركة. بالو.. هل أصبت بأى أذى؟".

قال بالو: "لست واثقًا أنهم لم يجرُّونى ويفتتونى إلى مائة شظية صغيرة." وهز ساقًا بعد أخرى فى توتر وقال: "واو! أنا مجروح ومتألم يا كا، نحن ندين لك، أعتقد أننا ندين لك بحياتنا أنا وباجيرا".

"لا عليك، أين البَشَرِى؟".

هنا صرخ موجلى :"أنا هنا، فى شَرَك. لا أستطيع أن أصعد وأخرج".. كان انحناء القبة المحطمة فوق رأسه يمنعه من الخروج.

قالت ثعابين الكوبرا التى فى الداخل: "أخرِجوه. إنه يتحرك مثل الطاووس مور.. سيسحق صغارنا".

قال كا وهو يسعل: "هاه! له أصدقاء فى كل مكان، هذا البشرى. عد للوراء أيها البشرى، واختبئوا يا أهل السموم.. سأحطم الحائط".

تفحص كا الحائط بدقة حتى وجد شرخًا قديمًا فى الزخارف الرخامية تظهر من خلاله مساحة ضيقة، نقر عليها نقرتين أو ثلاث

نقرات خفيفة برأسه ليتمكن من معرفة المسافة، ثم رفع ست أقدام من طوله بعيدًا عن الأرض، وأخذ يضرب ست مرات بكل قواه ضربات قاضية. فى البداية بأنفه، فتحطم الحاجز وسقط مثيرًا حوله سحابة من التراب والقمامة، وتكور موجلى خارجًا من الفتحة، وقذف بنفسه بين بالو وباجيرا، ووضع كل ذراع من ذراعيه حول عنق واحد منهما.

قال بالو وهو يعانقه برقة: "هل أصبت بأذى؟"

"إننى أشعر بالألم والجوع، وبرضوض ليست بالهينة، لكن، أوه، أصابوكما كثيرًا يا شقيقىَّ! أنتما تنزفان".

قال باجيرا: "والآخرون أيضًا أصيبوا"، ولعق شفتيه ونظر إلى القردة الميتة فى الشرفة وحول خزان الماء.

قال بالو وهو ينشج: "إنه لا شىء، لا شىء طالما أنت بخير، أو، يا مصدر افتخارى العزيز من بين كل الضفادع الصغيرة!"

قال باجيرا فى صوت جاف لم يعجب موجلى على الإطلاق: "سنحكم على هذا الأمر فيما بعد، لكن الآن، نحن ندين لكا بخروجنا سالمين من المعركة، وأنت تدين له بحياتك. اشكره حسب عاداتنا يا موجلى".

التفت موجلى ورأى رأس ثعبان الأصلة الضخم يتمايل فوق رأسه بمسافة قدم.

قال كا: "إذن هذا هو الآدمى، بشرته ناعمة للغاية، به بعض الشبه من الباندارلوج. اعتنِ بنفسك أيها الآدمى، حتى لا تلتبس علىّ وأظنك قردًا ذات فجر عندما أغيّر جلدى بجلد جديد".

أجابه موجلى: "نحن من دم واحد أنت وأنا، أنت منحتنى حياتى هذه الليلة، صيدى سيكون صيدك إذا حدث وكنت جائعًا فى أى وقت يا كا".

قال كا، على الرغم من أن عينيه أشعتا بالبريق: "لك كل الشكر يا شقيقى الصغير.. وماذا يكون صيدك العظيم؟ أنا أطلب أن تسمح لى بأن أتبعك المرة القادمة التى تذهب فيها للصيد".

"أنا لا أقتل شيئًا . أنا صغير جدًا . لكنى أسوق أمامى الماعز إلى حيث يمكن الاستفادة بها كصيد. عندما يكون بطنك فارغًا تعال إلىّ وانظر بنفسك إذ كنت أقول الحقيقة أم لا. لدىّ بعض المهارة فى هاتين". ومد يديه "وإذا حدث أن وقعت مرة فى شرك، ربما أرد لك الدين الذى أدين لك به، ولباجيرا ولبالو. والآن صيدًا طيبًا لكم جميعًا يا سادتى".

قال بالو مدمدمًا: "قول حسن"، لأن موجلى قدم شكره بأسلوب غاية فى اللطف والرقة. خفض ثعبان الأصلة رأسه قليلاً للحظة ووضعه على كتف موجلى وقال: "قلب شجاع ولسان دمث. سيجعلونك تخوض الكثير من المواقف فى الغابة أيها الآدمى. لكن الآن لتنصرف بسرعة مع أصدقائك. انصرِف ونَمْ، لأن القمر يوشك أن يغيب، وما سيحدث بعد ذلك ليس شيئًا مستحبًا أن تراه".

كان القمر يختفى تدريجيًا وراء التلال، وصفوف القردة المرتعدة تحتشد على الحوائط والشرفات المطلة على السطح حتى بدوا كأنهم قطع من القماش البالى الرث. هبط بالو نحو الخزان ليشرب، وبدأ باجيرا يرتب فراءه، وانزلق كا لمنتصف الشرفة وضم فكيه معًا بصوت قوى جعل عيون القردة كلها تتجه نحوه.

قال: "القمر يغيب، هل هناك ضوء يكفى للرؤية؟"

جاء صوت نائح يئن من ناحية الحوائط مثل عواء الريح على قمم الأشجار، وقالت القردة : "نحن نرى يا كا".

"حسنًا، لتبدأ الآن الرقصة .. رقصة كا الجائع. اجلسوا وشاهدوا". دار مرتين أو ثلاث مرات فى دائرة كبيرة، يتمايل برأسه من اليمين إلى اليسار. ثم بدأ يقوم بحلقات ودوائر متقاطعة بجسده، ومثلثات ناعمة تدريجية تذوب فى مربعات وأشكال خماسية، وهضاب صغيرة مستديرة. لم يسكن قط ولم يسرع قط، ولم يتوقف إطلاقًا عن الهمس بأغنيته البطيئة. بدأ الظلام يزداد ويزداد، حتى اختفت فى النهاية الدوائر البطيئة المتغيرة، لكن كان بوسعهم أن يسمعوا حفيف حراشف جلده.

وقف بالو وباجيرا ساكنين كالأحجار، يدمدمان فى سرهما، وشَعْرُ عنقيهما منتصب، وموجلى يرقب ما يجرى متعجبًا.

قال صوت كا فى النهاية: "يا باندارلوج، هل يمكنكم أن تحركوا قدمًا أو يدًا دون أمر منى؟ تكلموا!"

"دون أمر منك لا يمكننا أن نحرك قدمًا أو يدًا يا كا!"

"جميل! هيا تقدموا خطوة منى".

تقدمت صفوف القردة تتمايل للأمام لا حول لها ولا قوة، واتخذ بالو وباجيرا خطوة صغيرة للأمام معهم.

قال كا فى هسيس: "اقتربوا أكثر!" وتحرك الجميع مرة أخرى.

وضع موجلى يديه على بالو وباجيرا ليبعدهما. انتبه الحيوانان الكبيران كأنهما يستيقظان من حلم.

همس باجيرا قائلاً: "أبقِ يدك على كتفى، أبقها وإلا فإنى مرغم على الذهاب، مرغم على الذهاب إلى كا.. آه!"

قال موجلى: "إنه كا العجوز يصنع دوائر فى التراب فحسب، هيا بنا نمضى من هنا". وانسل الثلاثة عبر فجوة فى الحوائط تؤدى إلى الغابة.

قال بالو عندما وقف مرة أخرى تحت الأشجار الساكنة: "أووف! لن ألجأ إلى كا وأتحالف معه مرة أخرى أبدًا". وهز جسده كله.

قال باجيرا وهو يرتعش: "إنه يعرف أكثر منا، لو ظللت فى مكانى لحظة واحدة أخرى لكنت الآن منزلقًا فى حلقومه".

قال بالو: "كثيرون سيسيرون فى ذلك الطريق قبل أن يطلع نور القمر مرة أخرى. سيحظى بصيد طيب.. على ذوقه الخاص".

لم يكن موجلى يعرف أى شىء عن قوى ثعبان الأصلة الضخم السحرية، فقال: "لكن ما معنى هذا كله؟ لم أرَ شيئًا أكثر من ثعبان ضخم يصنع دوائر حمقاء حتى حل الظلام، وأنفه كله كدمات. هوو! هوو!".

قال باجيرا غاضبًا: "موجلى، أنفه أصيب بكدمات بسببك، مثلما أصيبت أذنى وجانبى وكفوفى، ورقبة بالو وكتفاه تعرضت كذلك للعض بسببك. لن يكون بالو ولا باجيرا قادرين على الصيد وهما مستمتعان لأيام كثيرة قادمة".

قال بالو: "لم يحدث أى شىء. لقد استعدنا طفلنا الآدمى مرة أخرى".

"هذا حقيقى، لكنه كلفنا الكثير من الوقت الذى كان من الممكن أن نقضيه فى صيد طيب، كما كلفنا الجراح والشَّعر. لقد سقطتُ على ظهرى وأصبت إصابات بالغة أزالت شَعرى. علاوة على ذلك، كلفنا الكثير على حساب كبريائنا. لذلك، تذكر يا موجلى، أنا النمر الأسود اضطررت للتوسل لكا طلبًا للحماية، وأنا وبالو أصبح مظهرنا كالحمقى مثل الطيور الصغيرة عندما رقص كا رقصة الجوع. كل هذا أيها الطفل الآدمى نتيجة لعبك مع الباندارلوج".

قال موجلى بأسف: "صحيح، هذا صحيح، أنا طفل آدمى شرير ومعدتى حزينة داخلى".

"أوف! ماذا يقول قانون الغابة يا بالو؟".

لم يكن بالو يريد أن يجرَّ على موجلى المزيد من المتاعب، لكنه لا يستطيع التلاعب بالقانون، لذلك غمغم قائلاً: "الأسف لا يحل محل العقاب. لكن تذكر يا باجيرا، أنه صغير جدًا".

"سأتذكر ذلك، لكنه أساء التصرف، وقام بتصرفات كثيرة يجب التعامل معها. موجلى، هل لديك ما تقوله؟".

"لا شيء، لقد ارتكبت أخطاء. أنت وبالو أصبتما بجراح، إنه العدل".

ضربه باجيرا ست ضربات من "ضربات الحب" من وجهة نظر النمر الأسود (كل هذه الضربات الست لا تساوى ضربة واحدة مما قد يضرب بها أطفاله)، لكنها بالنسبة لولد فى السابعة من عمره تعد ضربات شديدة القسوة لدرجة تجعلك تتمنى ألا تتعرض لها. عندما انتهى من ضربه عطس موجلى ونهض دون أن ينطق بكلمة واحدة.

قال باجيرا: "والآن، اقفز على ظهرى يا شقيقى الصغير، وسنذهب للمنزل".

واحدة من سمات الجمال التى يتحلى بها قانون الغابة، أن العقاب يُسوِّى الموقف ولا تبقى له ذيول ممتدة فيما بعد.

وضع موجلى رأسه على ظهر باجيرا ونام بعمق شديد، حتى إنه لم يستيقظ عندما وضعوه فى فراشه داخل كهفه.

أغنية الطريق

للباندار لوج

ها نحن ننطلق باندفاع مترابطين كباقة زهور
لنصل إلى منتصف الطريق للقمر الغيور!
هل تحسدنا على سرعة فريقنا؟
هل تتمنى لو كان لك يدان إضافيتان؟
ألا تحب أن يكون ذيلك منحنيًا مثل قوس كيوبيد؟
أنت غاضب، لكن. لا تشغل بالك،
يا شقيقى، فذيلك ثابت خلفك!

ها نحن نجلس فى صف غير منتظم،
نفكر فى أشياء جميلة نعرفها
ونحلم بإنجازات سنتممها،
سيكتمل كل شىء، فى دقيقة أو دقيقتين.

شىء نبيل وحكيم ونافع،
تم فقط لأننا تمنيناه،
قد نسينا، لكن - لا تشغل بالك،
يا شقيقى، فذيلك ثابت خلفك!
كل الكلام الذى سمعناه
نطق به خفاش أو حيوان أو طائر،
جلد أو زعانف أو حراشف أو ريش
كلهم يثرثرون معًا بسرعة!
ممتاز! رائع! هيا مرة أخرى!
ها نحن نتحدث مثل البشر!
دعنا نتظاهر بذلك - لا تشغل بالك
يا شقيقى، فذيلك ثابت خلفك !
هذه طريقة حياة معشر القرود
هيا انضم لصفوفنا الوثابة التى تجرى بين أشجار الصنوبر
تنطلق هناك خفيفة وعالية، حيث أراجيح الكروم البرية
نَمرُّ فى سيرنا بالنفايات، ونصنع الضجة النبيلة،
تأكد، تأكد، أننا سنفعل أشياء رائعة.

النمر .. النمر

ماذا عن الصيد، أيها الصياد الجسور؟

يا شقيقى، المراقبة طويلة ومملة.

ماذا عن الصيد الذى ذهبت لقتله؟

يا شقيقى، إنه لا يزال يجرى فى الغابة.

أين القوة التى جعلتك تتفاخر؟

يا شقيقى، إنها تتبع من كل جانب.

أين السرعة التى كنت تجرى بها؟

يا شقيقى، أنا ذاهب إلى عرينى لأموت.

حين غادر موجلى كهف الذئاب بعد المعركة مع القطيع عند صخرة المجلس، ذهب إلى الأراضى الزراعية حيث يعيش الفلاحون، لكنه لم يتوقف هناك لأنها كانت شديدة القرب من الغابة، وكان يعلم أنه صنع عدوًا واحدًا على الأقل فى المجلس. لذلك واصل جريه فى

الطريق الوعر المؤدى إلى الوادى، وظل يسير فيه بخطو ثابت بطىء لمسافة عشرين ميلاً تقريبًا، حتى وصل إلى بلدة لا يعرفها. كان الوادى يفضى إلى سهل فسيح به كثير من الصخور ويتقاطع مع وديان صغيرة شديدة الانحدار. فى إحدى هذه النهايات كانت هناك قرية صغيرة، وفى وادٍ آخر تنحدر الغابة الكثيفة بميل إلى مراعى ماشية، وتتوقف هناك كما لو كانت قد قابلت أرضًا مجروفة. يمتلئ السهل بالماشية والجاموس التى ترعى، وكان الصبية الصغار يحرسون الماشية. عندما رأوا موجلى صاحوا وهربوا، ونبحت الكلاب الضالة الصفراء التى توجد فى كل قرى الهند. استمر موجلى فى سيره، لأنه كان جوعان، وعندما وصل إلى بوابة القرية رأى الشجيرات الشائكة الكبيرة التى توضع أمام البوابة قد دُفعت عند الغروب إلى أحد جانبى البوابة.

قال: "أوف"، لأنه واجه أكثر من عائق مثل هذا فى لياليه التى كان يهيم فيها على وجهه بحثًا عن شىء يأكله. قال: "إذن .. البشر يخافون أهل الغابة هنا أيضًا". وجلس عند البوابة، وعندما خرج رجل منها، وقف، وفتح فمه وأشار إلى داخله ليخبر الرجل أنه يريد طعامًا. حدق الرجل فيه، وعاد جريًا إلى شارع القرية الوحيد يصيح طالبًا الكاهن، الذى كان رجلاً ضخمًا بدينًا يرتدى ملابس بيضاء، وعلى جبهته علامتان حمراء وصفراء. حضر الكاهن إلى البوابة، ومعه على الأقل مئة شخص، أخذوا يحدقون ويتحدثون ويصيحون وهم يشيرون إلى موجلى.

قال موجلى لنفسه: "هؤلاء الآدميون ليس لديهم أخلاق طيبة، القرد الرمادى فقط هو الذى يتصرف مثلهم". وهكذا أزاح شعره الطويل للخلف وقطب جبينه فى وجه هذا الحشد.

قال الكاهن: "ماذا يخيفكم منه؟ انظروا إلى تلك العلامات فى ذراعيه وساقيه.. إنها عضات الذئاب. إنه ليس أكثر من طفل ربَّته الذئاب هارب من الغابة".

بالطبع، عندما كان موجلى يلعب مع أطفال الذئاب، كانوا يعضونه غالبًا بشدة أكثر مما يقصدون، لذلك امتلأت ذراعاه وساقاه بالندوب البيضاء. لكنه كان آخر شخص فى العالم يسمى هذه عضات، لأنه يعرف ما هو العض الحقيقى.

قالت امرأتان أو ثلاث فى صوت واحد: "هاتوه، هاتوه! يا للمسكين، لقد عضته الذئاب! إنه ولد وسيم. له عينان تقدحان شررًا مثل النار المتوهجة. بشرفى يا "ميسوا"، إنه يشبه ولدك الذى اختطفه النمر".

تطلعت امرأة ترتدى أساور ثقيلة من النحاس فى معصميها وكاحليها وقد وضعت كفها أعلى جبهتها وراحت تنظر إليه وقالت: "دعونى أنظر إليه، فى الواقع ليس هو. إنه أكثر نحافة، لكن نظرته تشبه نظرة ولدى كثيرًا".

كان الكاهن رجلاً ماهرًا، يعرف أن "ميسوا" زوجة أغنى فلاح فى القرية. لذلك تطلع إلى السماء لحظة، ثم قال بوقار: "ما أخذته الغابة أعادته الغابة. خذى الولد إلى منزلك، يا أختى، ولا تنسى أن تقدمى احترامك للكاهن الذى يدرك الكثير فى حياة الناس".

قال موجلى لنفسه: "بحق الثور الذى افتدانى، كل هذا الكلام يشبه كلام القطيع، وهو صورة أخرى منه! حسنًا، إذا كنت إنسانًا، يجب أن أكون إنسانًا".

انفض الجمع عندما أخذت المرأة موجلى إلى كوخها، حيث كان هناك سرير أحمر مطلى "بالورنيش"، وصندوق خزفى كبير فوقه نماذج مصغرة مضحكة، ونصف دستة أوانى طهى نحاسية، وتمثال لإله هندى فى فجوة صغيرة فى أحد الجدران، وعلى الحائط مرآة حقيقية مثل تلك التى تباع فى الأسواق بثمانية بنسات.

قدمت له وعاءً كبيرًا مليئًا باللبن وبعض الخبز، ثم وضعت يدها على رأسه ونظرت فى عينيه؛ لأنها فكرت أنه ربما يكون ولدها الحقيقى وقد عاد من الغابة حيث أخذه النمر من قبل، لذلك قالت: "ناثو، أوه ناثو!" لم يَظْهر لها أن موجلى يعرف الاسم، فلمست قدمه وقالت: "ألا تتذكر يوم اشتريت لك حذاءً جديدًا؟"، كانت يدها صلبة مثل قرن الحيوان، وقالت بأسف: "لا، هاتان القدمان لم توضعا فى أحذية مطلقًا، لكنك شديد الشبه بناثو ابنى، وستكون ابنى من الآن فصاعدًا".

شعر موجلى بالقلق لأنه لم يسبق له أن عاش تحت سقف من قبل، لكنه عندما نظر إلى السقف القش أدرك أنه يستطيع تمزيقه فى أى وقت إذا أراد الخروج، وأن النافذة ليس بها أقفال. فى النهاية قال لنفسه: "ما الشىء الرائع فى أن يكون الكائن إنسانًا، إذا لم يكن يفهم حديث الناس؟ والآن ها أنا أحمق وغبى مثلما سيكون أى شخص عندما يوجد معنا فى الغابة. لا بد أن أتقن كلامهم".

عندما كان مع الذئاب فى الغابة تعلم كيف يقلد تحدى الظباء لبعضهم وصوت الخنزير البرى الصغير وذلك من باب التسلية. لذلك، بمجرد أن نطقت ميسوا كلمة، كان موجلى يقلدها تقريبًا بإتقان شديد، وقبل أن يحل الظلام كان قد تعلم أسماء أشياء كثيرة فى الكوخ.

واجه موجلى صعوبة وقت النوم، لأنه لم ينم من قبل تحت أى شىء، فظهر ذلك الكوخ كأنه شرك نمر. وعندما أغلقوا الباب خرج من النافذة. قال زوج ميسوا: "دعوه وشأنه، وتذكروا أنه لم ينم من قبل فى فراش. إذا كان الله قد أرسله بدلاً من ولدنا لن يتركنا".

وهكذا تمدد موجلى على عشب نظيف طويل على حافة الحقل، لكنه قبل أن يغمض عينيه خبطت أنف رمادية ناعمة تحت ذقنه.

قال الشقيق الرمادى: "بوووا" (كان أكبر أبناء الذئبة الأم)، "إنها مكافأة صغيرة مقابل اقتفاء أثرك ومتابعتك عشرين ميلاً. إن رائحتك تشبه رائحة الماشية ودخان احتراق الخشب.. أنت بالفعل تشبه البشر. استيقظ يا شقيقى الصغير، لقد أحضرت لك بعض الأخبار".

قال موجلى وهو يحتضنه: "هل الجميع فى الغابة بخير؟".

"كلهم بخير عدا أولئك الذئاب الذين احترقوا بالزهرة الحمراء. والآن أصغ إلىَّ جيدًا. لقد رحل شرخان بعيدًا ليصطاد إلى أن ينمو شعره مرة أخرى، لأن الحروق أصابت شعره إصابات بالغة، وهو يقسم أنه عندما يعود سيلقى بعظامك فى نهر وينجانجا".

"هناك وعدان إذن، فأنا أيضًا التزمت بوعد صغير. لكن أخبارك دائمًا طيبة. أنا متعب الليلة - متعب للغاية من الأمور الجديدة، يا شقيقى الرمادى - لكن أحضِر لى الأخبار دائمًا".

سأل الشقيق الرمادى بقلق: "أنت لن تنسى أنك ذئب؟ البشر لن يجعلوك تنسى؟".

"إطلاقًا. سأتذكر دائمًا أننى أحبك وأحب كل مَنْ فى كهفنا، لكنى أيضًا سأتذكر أننى طُردت من القطيع الكبير".

"وربما تُطرد كذلك من قطيع آخر. البشر هم دائمًا بشر يا شقيقى الصغير، وكلامهم مثل كلام الضفادع فى بركة ماء. حين آتى إليك مرة أخرى، سأنتظرك بين أشجار البامبو على حافة أراضى الرعى".

وعلى مدى الثلاثة أشهر التالية لتلك الليلة، نادرًا ما فارق موجلى بوابة القرية.. كان مشغولاً جدًا بتعلم أساليب وعادات البشر. بداية اضطر أن يلف قطعة قماش حول خصره، وكانت تزعجه جدًا. ثم اضطر أن يتعلم أمور النقود، التى لم يفهم من شأنها إلا أقل القليل، ثم اضطر أن يتعلم حراثة الأرض الزراعية، التى لم يفهم فائدتها. ثم حدث أن أغضَبَه أطفال القرية جدًا. لحسن الحظ، علمه قانون الغابة المحافظة على هدوء أعصابه، لأن الحياة والطعام فى الغابة يعتمدان على حفاظك على هدوء أعصابك، لكن حين سخروا منه لأنه لا يلعب معهم ألعابهم أو يصنع الطائرات الورقية ويلعب بها، أو لأنه أخطأ نطق كلمة ما، كانت

معرفته أنه ليس من الروح الرياضية لدى البشر أن يقتل أطفالاً صغارًا عزلاً من السلاح، هى فقط التى منعته من التقاطهم وكسرهم إلى قطعتين. لم يكن يعرف أقل القليل عن مدى قوته.. ففى الغابة كان يعرف أنه ضعيف مقارنة بالحيوانات، لكن فى القرية، كان الناس يقولون إنه قوى كالثور. من المؤكد قطعًا أنه لم يكن لديه تصوُّر عما هو الخوف، فحين أخبره كاهن القرية أن الإله فى المعبد سيغضب منه إذا أكل المانجو الخاصة بالكاهن، التقط الوثن وذهب به إلى بيت الكاهن، وطلب منه أن يجعل الإله يغضب وأخبره أنه سيكون سعيدًا بمحاربته. كانت فضيحة شنيعة، لكن الكاهن منعها من الانتشار، وقدَّم زوج ميسوا كمية طيبة من الفضة لإرضاء الإله. ولم يكن لدى موجلى أدنى فكرة عن الفروق التى يصنعها اختلاف الطبقة بين رجل وآخر. فحين سقط حمار الخزَّاف فى إناء الطين، سحبه موجلى من ذيله وأخرجه، وساعد فى ترتيب الآنية لرحلة عائلة الخزَّاف إلى السوق فى خانهيوارا. كان ذلك أيضًا صادمًا للغاية، لأن الخَزَّاف من الطبقة الدنيا، وحماره أسوأ منه. حين وبخه الكاهن، هدده موجلى بأن يضعه هو أيضًا فوق الحمار. وقال الكاهن لزوج ميسوا إنه من الأفضل لموجلى أن يعمل بأسرع ما يمكن. وأخبر زعيم القرية موجلى أنه سيخرج فى اليوم التالى مع الجواميس ليحرسها وهى ترعى. كان موجلى أسعد شخص فى تلك الليلة، لأنه عُيِّن "خادمًا للقرية"، كما كانوا يطلقون على من يقوم بمثل هذا العمل. وشارك فى حلقة تُعقد كل مساء فوق مساحة منبسطة تحت شجرة تين كبيرة كانت بمثابة

نادى القرية. الزعيم والحارس والحلاق الذى يعرف كل الشائعات التى تدور فى القرية، وبيلدو العجوز صياد القرية الذى يمتلك بندقية قديمة من النوع الذى كان يُستخدم فى أبراج الحراسة، يجلسون هناك ويدخنون. كانت القردة تجلس وتتحدث فوق الغصون العالية، وتحت المساحة كانت هناك فتحة يعيش فيها ثعبان كوبرا، يقدمون له طبق لبن كبيرًا كل ليلة لأنه كان مقدسًا، وكان الرجال المسنون يجلسون حول الشجرة ويتكلمون ويدخنون النرجيلة لوقت متأخر من الليل. كانوا يحكون حكايات رائعة عن الآلهة والبشر والأشباح، وكان بيلدو يحكى أروع ما فى تلك الحكايات عن حياة الحيوانات فى الغابة، حتى تكاد عيون الأطفال الجالسين خارج الحلقة تخرج من محاجرها فى رؤوسهم. معظم الحكايات عن الحيوانات، لأن الغابة كانت دائمًا قريبة منهم. كانت الغزلان والخنازير البرية تدمر محاصيلهم، وبين حين وآخر يأتى نمر ويقتل رجلاً منهم ساعة الفجر بالقرب من بوابات القرية.

موجلى، الذى كان بطبيعة الأمر يعرف بعض الأشياء عن الموضوعات التى يتحدثون بشأنها، اضطر أن يغطى وجهه حتى لا يروه وهو يضحك، بينما بيلدو، واضعًا البندقية على ركبتيه، يقفز من حكاية رائعة إلى حكاية أخرى، وكتفا موجلى تهتزان.

شرح بيلدو أن النمر الذى حمل ابن ميسوا، إنما هو شبح نمر، وجسده مسكون بروح رجل شرير مُرابٍ مات منذ عدة سنوات ماضية. قال: "أنا أعرف أن هذا حقيقى، لأن "بيرين داس" كان

دائمًا يعرج بسبب الضربة التى تلقاها أثناء الشغب الذى حدث عندما احترقت دفاتر حساباته، والنمر الذى أتحدث عنه يعرج أيضًا، وخطواته ليست متساوية".

قال الرجال الطاعنون فى السن ذوو اللحى البيضاء وهم يومئون معًا: "حقيقى، حقيقى، مؤكد أن هذا حقيقى".

قال موجلى: "هل كل هذه حواديت مثل بيت العنكبوت وأحاديث السمر؟ ذلك النمر يعرج لأنه وُلد أعرج، والجميع يعرفون ذلك، والحديث عن روح المرابى التى تسكن حيوانًا ليس لديه شجاعة ابن آوى، هو حديث أطفال".

صمت بيلدو ولم يستطع النطق للحظات من هول المفاجأة، وحملق الزعيم.

قال بيلدو :"أوهو! إنه طفل الغابة، أليس كذلك؟ لو كان لديك كل هذه الحكمة والذكاء، ربما تستطيع أن تحضر جلده إلى خانهيوارا، لأن الحكومة رصدت مائة روبية لمن يأتيها به. وإلا فالأفضل لك أن تجلس فى صمت، ولا تتحدث حين يتحدث من هم أكبر منك سنًا".

نهض موجلى استعدادًا للانصراف، وقال من وراء كتفه: "أنا جالس هنا طوال المساء أستمع، وباستثناء حدوتة أو اثنتين لم يقل بيلدو كلمة واحدة حقيقية عن الغابة، وهى قريبة منه جدًا. كيف إذن أصدق حكايات الأرواح والآلهة والعفاريت التى يقول إنه رآها؟".

قال زعيم القرية: "إن الوقت مناسب جداً لذلك الصبى ليعمل فى حراسة الماشية"، بينما راح بيلدو ينفخ وينفث دخانه بسبب وقاحة موجلى.

من عادة معظم القرى الهندية أن عدداً قليلاً من الأولاد هم الذين يأخذون الماشية والجواميس لترعى فى الصباح الباكر، ويعودون بها فى الليل. تلك الماشية التى يمكن أن تسحق الرجل الأبيض فيلقى حتفه، تسمح لأولئك الصبية الذين لا يصل طولهم إلى أنوفها أن يضربوها ويركلوها ويصيحوا فيها. وطوال الوقت الذى يستطيع الأولاد قضاءه مع هذه الحيوانات يظل هؤلاء الأولاد فى أمان، لأنه حتى النمر لن يفكر فى الهجوم على قطيع كبير من هذه الحيوانات. لكن عندما يتشتتون أحياناً لالتقاط الزهور أو مطاردة السحالى، قد يتعرضون للقتل. ذهب موجلى فى الفجر عبر شارع القرية وهو جالس على ظهر راما ثور القطيع الكبير، فنهضت الجواميس ذات اللون الرمادى المشوب بالزرقة، بقرونها الطويلة المتجهة للخلف وعيونها الوحشية، وخرجت من الحظيرة، واحدة وراء الأخرى، وتبعته. وأظهر موجلى للأطفال المصاحبين له بوضوح شديد أنه السيد. كان يضرب الجاموس بعصا بامبو طويلة مصقولة، وقال لـ "كاميا" أحد الأولاد، أن يترك الماشية ترعى كما تشاء بينما سيواصل هو سيره مع الجاموس، وأن يحرص بشدة ألا يبتعد عن القطيع.

فى الهند أرض الرعى كلها صخور، وأشجار صغيرة، وكتل من العشب، وقليل من الأخاديد، تتبعثر بينها حيوانات القطيع وتختفى.

أما الجاموس عمومًا فيحب أن يظل قريبًا من برك الماء والأماكن الموحلة، حيث يتمرغ أو يتشمس ساعات فى الوحل الدافئ. ساقها موجلى إلى حافة السهل حيث يندفع نهر وينجانجا قادمًا من الغابة، ثم هبط من على رقبة راما، وأسرع إلى أجمة من أشجار البامبو، حيث كان فى انتظاره الشقيق الرمادى. قال الشقيق الرمادى: "آه.. لقد انتظرت هنا أيامًا كثيرة. ما معنى حراسة قطيع الماشية هذا؟".

قال موجلى: "إننى أنفذ أمرًا.. أنا أعمل الآن راعيًا للقطيع لفترة. ما أخبار شرخان؟".

"لقد عاد لهذه البلدة وانتظرك هنا وقتًا طويلاً. والآن رحل مرة أخرى لأن الصيد صعب، لكنه حريص على قتلك".

قال موجلى: "رائع جدًا، طالما بقى بعيدًا عن هنا أرجو منك أو من أحد الأشقاء الأربعة أن ينتظرنى عند تلك الصخرة، حتى أراك عندما أخرج من القرية. وعندما يعود انتظرنى قرب الأخدود تحت شجرة "داك ترى" فى منتصف السهل. لسنا بحاجة للوقوع فى فم شرخان بأرجلنا".

ثم ذهب موجلى إلى مكان ظليل، واستلقى ونام بينما الجواميس ترعى حوله. حراسة قطعان الماشية فى الهند واحدة من أكسل المهام فى العالم. فالقطيع يتحرك ويأكل، ويرقد، ويتحرك مرة أخرى، لكن لا يصدر عنه أى صوت أبدًا. إنه يُصْدِر فقط أصوات النخير، ومن النادر أن يقول الجاموس أى شىء، فهو فقط يتمدد

فى بـرك المـيـاه الموحـلـة جـامـوسـة وراء أخـرى، ثم يشق طـريقه فى الوحل حتى لا تظهر منه فوق السطح إلا أنوفه وعيونه الزرقاء التى تـشـبه الخـزف، ثم يـتـمـدد مـثـل جـذوع الأشـجـار. الـشـمـس تجـعـل الـصـخـور تـبـدو كـأنمـا تـتـمـاوج مـن الحـرارة، ويـسـمـع الأطـفـال الـذين يـحـرسـون الـقـطـيـع حـدأة تـصـفـر (ليس أكثر من حدأة واحـدة) هـنـاك أبـعـد مـن مـرمـى الـبـصـر، ويـعـلمـون أنهـم إذا مـاتـوا، أو مـاتـت بـقـرة، فـإن هـذه الحـدأة تهـبـط لأسـفـل، وحـدأة أخـرى عـلـى بـعـد أمـيـال سـتـراهـا وهـى تهـبـط فـتـتـبـعـهـا، والـتـالـيـة، والـتـالـيـة، وتـقـريـبـًا قـبـل أن يمـوتـوا سـتـكـون هـنـاك عـشـرون حـدأة جـوعـانـة تـمـلأ المـكـان فـى أسـرع وقـت. ثم يـنـام الأطـفـال ويـسـتـيـقـظـون ويـنـامـون مـرة أخـرى، ويـجـدلـون قـلـيـلاً مـن الـسـلال مـن الـعـشـب الجـاف ويـضـعـون فـيـهـا الجـراد الـنـطـاط، أو يـصـطـادون اثـنـتـين مـن حـشـرات فـرس الـنـبـى الـتـى تـغـنـى ويُـطـيّـرونـهـمـا، أو يـنـظـمـون قـلادة مـن بـنـدق الـغـابـة الأحـمـر والأسـود، أو يـراقـبـون سـحـلـيـة تـتـشـمـس عـلـى صـخـرة، أو ثـعـبـانـًا يـطـارد ضـفـدعـة قـرب بـرك المـاء، ثـم يـغـنـون أغـنـيـة مـحـلـيـة قـديمـة طـويـلـة طـويـلـة تـنـتـهـى بـنـغـمـة ثـابـتـة، ويـبـدو الـيـوم أطـول مـن حـيـاة مـعـظـم الـنـاس، وربمـا يـصـنـعـون قـلـعـة مـن الـطـين وأشـكـالاً لأشـخـاص وخـيـول وجـوامـيـس مـن الـطـين أيـضـًا، ويـضـعـون قـصـبـة فـى أيـدى تمـاثـيـل الـرجـال ويـزعـمـون أنـهـم مـلـوك والـبـقـيـة رجـال جـيـوشـهـم، أو أنـهـم آلـهـة والـبـقـيـة يـعـبـدونـهـم. ثـم يـأتـى المـسـاء ويـنـادى الأطـفـال، فـتـتـحـرك الجـوامـيـس بـتـثـاقـل خـارجـة مـن الـوحـل المـلـتـصـق بـأجـسـامـهـا مـصـدرة بـحـوافـرهـا ضـجـة مـثـل طـلـقـات الـرصـاص المـنـطـلـقـة واحـدة إثـر أخـرى، وتـنـدفـع جـمـيـعـهـا عـبـر الـسـهـل الـرمـادى عـائـدة إلـى أضـواء الـقـريـة المـتـألـقـة.

أصبح موجلى مسئولاً عن حراسة الجواميس يومًا بعد يوم وإخراجها من الوحل الذى تتمرغ فيه، ويومًا بعد يوم أصبح يرى ظهر الشقيق الرمادى على بعد ميل ونصف عبر السهل (وهكذا يعرف أن شرخان لم يعد بعد)، ويومًا بعد يوم يرقد على العشب يصغى للضجة من حوله، ويحلم بالأيام الخوالى فى الغابة. وإذا قام شرخان بأية خطوة مفاجئة بساقه العرجاء فى الغابة قرب نهر وينجانجا، فإن موجلى سيسمعه فى هذه الصباحات الطويلة الساكنة.

فى النهاية جاء يوم لم يَر فيه الشقيق الرمادى فى المكان المتفق عليه، فضحك ودفع الجواميس نحو الأخدود الضيق عند شجرة "داك ترى"، التى كانت مغطاة كلها بالزهور الحمراء الذهبية. هناك كان الشقيق الرمادي جالسًا وشعر ظهره منتصب.

قال الذئب وهو يلهث: "لقد اختفى لمدة شهر ليلتقى بك بعيدًا عمن يحرسونك. وعَبَرَ سلسلة التلال ليلة أمس ومعه طباقى، على استعجال للوصول إليك والنيل منك".

قطب موجلى جبينه وقال: "لست خائفًا من شرخان، لكن طباقى شديد المراوغة والتضليل".

قال الشقيق الرمادى وهو يلعق شفتيه قليلاً: " لا تخشَ شيئًا، لقد قابلت طباقى عند الفجر، وهو الآن يحكى للحدآن عن حكمته، لكنه قال لى كل شىء قبل أن أكسر ظهره. إن خطة شرخان تكمن فى انتظارك عند بوابة القرية هذا المساء ـ انتظارك أنت بالذات

وليس أى شخص غيرك. إنه يرقد الآن فى الأخدود الكبير الجاف قرب نهر وينجانجا".

قال موجلى: "هل أكل اليوم، أم أنه فارغ البطن ولم يصطد شيئًا؟" كانت الإجابة تعنى له الحياة أو الموت.

"في الفجر قتل خنزيرًا.. وقد شرب أيضًا. تذكر، شرخان لا يمكنه الإسراع فى خطواته حتى إذا كان يسعى للانتقام".

"أوه ! أحمق، أحمق! يالها من تصرفات أطفال! أكل وشرب أيضًا، ويعتقد أننى سأظل منتظرًا حتى ينام! أين يرقد الآن؟ حتى إذا لم يحضر سوى عشرة منا يمكننا أن نسحقه وهو ممدد. هذه الجواميس لن يهدأ لها بال إلا إذا أصابته، لكنى لا أعرف لغتها. هل يمكننا اقتفاء آثارة حتى تتمكن تلك الجواميس من شم رائحته؟".

قال الشقيق الرمادى: "لقد أوغل فى السباحة فى نهر وينجانجا لمحو رائحته ومسار آثاره".

"أعرف أن طباقى هو من أرشده لذلك. لا يمكنه التفكير فى أمر كهذا بمفرده". ووقف موجلى وأصبعه فى فمه، يفكر :"الأخدود الكبير القريب من نهر وينجانجا يفضى إلى السهل على بعد أقل من نصف ميل من هنا. يمكننى اصطحاب القطيع والدوران به من الغابة حتى مدخل الأخدود ثم ننحدر.. لكنه قد ينسل خلسة ويخرج من نهاية الأخدود. لا بد أن نغلق نهايته يا شقيقى الرمادى. هل يمكنك أن تقسم القطيع إلى قسمين من أجلى؟"

"ربما لا أستطيع ـ لكن لدىّ مساعد حكيم".

هرول الشقيق الرمادى وهبط فى حفرة. ومن هناك ارتفع رأس رمادى ضخم يعرفه موجلى حق المعرفة. وامتلأ الهواء الساخن بأكبر صرخة فى الغابة لذئب تخلى عنه أصدقاؤه.. صرخة صيد نابعة من ذئب فى منتصف النهار.

قال موجلى: "أكيلا! أكيلا!" وصفق بيديه: "كان يجب أن أعرف أنك لم تنسَنى. أمامنا الآن عمل كبير. قَسِّم القطيع إلى قسمين يا أكيلا. ضع البقر والعجول معًا، وافصلهم عن الثيران وجاموس الحراثة".

جرى الذئبان فى خطوات دائرية متقاطعة مثل حلقات السلسلة، داخل وخارج مجموعات حيوانات القطيع، التى ضجت بأصواتها ورفعت رؤوسها لأعلى، ثم انفصلت إلى مجموعتين. فى إحدى المجموعتين، وقفت الجواميس الكبيرة وعجولها فى الوسط، وحملقت فى غضب وضربت الأرض بحوافرها على أهبة الاستعداد. لو أنها رأت فقط ذئبًا واقفًا فى سكون، لهجمت عليه وسحقته بحوافرها حتى يفارق الحياة. فى المجموعة الأخرى، الثيران والثيران الصغيرة كانت تصيح أيضًا بأصواتها وتضرب الأرض بحوافرها. لكن على الرغم من أنها تبدو أكثر مهابة إلا أنها أقل خطرًا، لأنه ليس لديها صغار تحميها. لا يستطيع ستة رجال أن يوزعوا القطيع بهذا النظام.

قال أكيلا لاهثًا: "يا له من نظام! إنهم يحاولون الانضمام إلى بعضهم بعضًا مرة أخرى".

انزلق موجلى على ظهر راما، وقال :"قُد الثيران إلى اليسار يا أكيلا. وأنت أيها الشقيق الرمادى، عندما نغادر المكان، أمسِك بالأبقار معًا، وسقها إلى قاع الأخدود".

قال الشقيق الرمادى وهو يلهث ويتحدث بسرعة: " إلى أى مدى؟".

صاح موجلى: "إلى الجانبين، على ارتفاع لا يستطيع شرخان أن يقفز إليه. اعمل على أن يظلوا هناك حتى نصل".

سارت الثيران فى الاتجاه الذى وَجَّهها إليه أكيلا، بينما توقَّف الشقيق الرمادى فى مقدمة الأبقار، فهجمت عليه، فجرى أمامها حتى وصل إلى قاع الأخدود، بينما كان أكيلا يدفع الثيران بعيدًا إلى اليسار.

صاح موجلى: "هذا جيد ! هجمة أخرى وسيبدأون، الآن انتبِه، أكيلا. تحرَّكْ بسرعة، وستهجم الثيران! هذا العمل أصعب من قيادة ظبى أسود. ألم تفكر أن هذه الكائنات يمكنها التحرك بسرعة شديدة؟".

لهث أكيلا من شدة التراب المثار: "أنا ـ أنا اصطدت هذه الحيوانات مرارًا فى شبابى، هل أوجهها للغابة؟".

"نعم! وجِّهها للغابة.. وجِّهها بسرعة! راما غضبان إلى حد الجنون. أوه، لو أستطيع فقط أن أخبره بما أحتاجه اليوم".

وُجِّهَت الثيران إلى اليمين هذه المرة، واصطدمت بالشجيرات الصغيرة الكثيفة. أما الأطفال الآخرون الذين يعملون فى رعاية القطيع، والذين كانوا يراقبون القطيع على بعد نصف ميل، فقد جروا إلى القرية بأسرع ما تستطيع سيقانهم أن تحملهم، وأخبروا القرية أن الجواميس جُنت وفرّت. لكن خطة موجلى كانت أبسط من ذلك. كل ما يريده أن يصنع دائرة كبيرة أعلى التل، ويقف على رأس الأخدود، ثم يأخذ الثيران إلى أسفل الأخدود ويحاصر شرخان بين الثيران والأبقار. هو يعرف أنه على بعد ميل يوجد شرخان الذى شرب حتى ارتوى وليس فى حال تسمح له بالقتال أو تسلُّق أحد جانبى الأخدود شديد الانحدار. كان يهدئ الجواميس فى تلك اللحظة بصوته، وقد هبط أكيلا فى مكان بعيد خلفه، وصاح مرة أو مرتين ليحث القطيع على الإسراع نحو المؤخرة. كانت حلقة كبيرة جداً، لأن موجلى وأكيلا لم يرغبا أن يبقى القطيع فى مكان شديد القرب من الأخدود المنحدر، لكى لا يتنبه شرخان ويأخذ حذره. فى النهاية استدار موجلى حول القطيع المرتبك على قمة المنحدر فوق بقعة صغيرة معشوشبة منحدرة بشدة نحو الأخدود نفسه. من فوق هذا الارتفاع يمكنك أن تتطلع من أعلى، عبر قمم الأشجار، لترى السهل من أسفل، لكن ما تَطلَّعَ إليه موجلى كان جانبى الأخدود، ورأى، برضًا كبير، أنهم قد أسرعوا بشكل مستقيم إلى أعلى وأسفل، بينما النباتات المتعرشة والمتسلقة المحيطة بهم لن تسمح لنمر بتحريك ساقه إذا أراد الخروج.

قال وهو يمد يده: "دعهم يلتقطوا أنفاسهم يا أكيلا، فهم لم يتشمموا رائحته بعد. دعهم يلتقطوا أنفاسهم. لابد أن أخبر شرخان من الذى أتى. لقد حظينا به داخل الشرك".

وضع يديه على فمه وصاح موجهًا صوته إلى أسفل الأخدود - كان الأمر شبيهًا تقريبًا بالصياح داخل نفق - وراحت أصداء الصوت تقفز من صخرة إلى أخرى.

بعد وقت طويل جاءهم الرد فى هيئة زمجرة ممدودة ناعسة من نمر شبع وقد استيقظ لتوه.

قال شرخان: "من ينادى؟" وحلق طاووس رائع خارجًا من الأخدود يصرخ فى ذعر.

"أنا، موجلى، يا لص الماشية. آن الأوان لتعود إلى صخرة المجلس! إلى أسفل.. أسرعْ بهم إلى أسفل يا أكيلا! هيا يا راما أسرعْ إلى أسفل!".

توقف القطيع لحظة على حافة المنحدر، لكن أكيلا صاح بأقوى صرخة صيد يمكنه أن يطلقها، فانحدروا واحدة وراء الأخرى، تمامًا مثل رايات تندفع مسرعة فى منحدر نهر، والرمل والأحجار تتدفق حولهم. بمجرد أن بدأ الأمر، لم تعد هناك فرصة للتوقف، وقبل أن يصل القطيع تمامًا إلى قاعدة الأخدود، اشتم راما رائحة شرخان وبدأ يخور.

قال موجلى من على ظهر راما: "ها! ها! الآن أنت تعرف"، بينما السيل الجارف من القرون السوداء، بأنوفهم التى ترغى وتزبد، وعيونهم المحملقة، يندفع منطلقًا إلى أسفل الأخدود كالصخور الكبيرة المتساقطة فى فيضان، والجواميس تتدافع إلى جانبى الأخدود تشق طريقها بين الشجيرات المتسلقة. أدرك القطيع ما هو العمل الذى يتصدى له: الهجمة المريرة لقطيع جاموس لا يتمنى نمر أن يواجهها. سمع شرخان صوت حوافرهم المدوى، فلملم شتات نفسه وتحرك بتثاقل أسفل الأخدود، ينظر من جانب إلى آخر بحثًا عن طريق يهرب منه، لكن جدران الأخدود كانت مستقيمة وعليه أن يتسلقها. كان متخمًا وثقيلاً من الطعام والشراب، يتمنى أن يفعل أى شىء إلا القتال. شق القطيع طريقه عبر بركة الماء التى تركها توًا وهو يخور، حتى تحلَّق حول القناة الضيقة. سمع موجلى خوارًا مجيبًا من سفح الأخدود، ورأى شرخان يتلفت (أدرك النمر أنه إذا ساء الأمر إلى أسوأ حد، فمن الأفضل مواجهة الثيران عن مواجهة الأبقار التى تحيط بصغارها)، وعندئذٍ تعثر راما وزلَّت ساقه، ثم واصل طريقه مرة أخرى فوق شىء ما ناعم!.. ولأن الثيران كانت مطبقة عليه، اصطدم صدمة شديدة بالقطيع الآخر، بينما الجواميس الأضعف ارتفعت سيقانها عن الأرض من هول صدمة المواجهة. هذه الهجمة أخرجت كلا القطيعين إلى السهل، تجرح بقرونها وتدوس بأرجلها وتصدر أصوات شخيرها مستنكرة. راقب موجلى التوقيت المناسب، ثم انزلق من على رقبة راما وهو يضرب بعصاه يمينًا ويسارًا.

"أسرِعْ يا أكيلا! افصلهم عن بعضهم البعض. فرِّقْهم وإلا سيقاتلون بعضهم بعضًا. ادفعْهم بعيدًا يا أكيلا. هيا يا راما! هيا! هيا! هيا! هيا يا أطفالى، بنعومة، بنعومة، هيا! لقد انتهى الأمر!".

أسرع أكيلا والشقيق الرمادى جيئة وذهابًا يعضان سيقان الجاموس. وعلى الرغم من أن القطيع انعطف ليهجم على الأخدود مرة أخرى، فإن موجلى تَمكَّنَ من تغيير اتجاه راما، وتبعه الآخرون إلى برك الوحل.

لم يعد شرخان فى حاجة للمزيد ممن يطؤونه ويدوسونه. كان ميتًا، وقد أتت الحِدْآن من أجله بالفعل.

قال موجلى وهو يتحسس السكين التى يحملها دائمًا معلقة فى غمدها حول رقبته منذ أصبح يعيش مع البشر: "أشقائى، كانت هذه ميتة كلب، لكنه لم يبادر للقتال. هذا الوضيع! سيبدو جلده جيدًا على صخرة المجلس. علينا أن نباشر عملنا بسرعة".

أى صبى تَدرَّبَ على الحياة بين البشر لم يكن ليحلم قط أن يسلخ جلد نمر طوله عشر أقدام بمفرده، لكن موجلى كان يعلم أفضل من أى شخص آخر كيف يسلخ جلد الحيوان بشكل متقن، وكيف ينزعه. لكنه كان عملاً شاقًا، وراح موجلى يشرط ويمزق وينخر لمدة ساعة، بينما الذئاب يخرجون ألسنتهم، أو يأتون مباشرة ويعملون معه مثلما يأمرهم. شعر بيد تسقط على كتفه، فتَطلَّعَ لأعلى ورأى بيلدو ومعه بندقيته. لقد أخبر الأطفال أهل القرية عن فرار الجواميس وذعرها، وقد جاء بيلدو غاضبًا، فقط كان قلقًا

ويرغب فى توبيخ موجلى لأنه لم يهتم بحراسة ورعاية القطيع جيدًا. خرجت الذئاب من مرمى البصر عندما رأت رجلاً قادمًا.

قال بيلدو بغضب: "ما هذه الحماقة؟ هل تعتقد أنه بإمكانك أن تسلخ جلد نمر! أين قتلته الجواميس؟ إنه أيضًا النمر الأعرج، وهناك مائة روبية مرصودة لمن يحضر رأسه. حسنًا، حسنًا، سننظر فى أمر تركك القطيع يتشتت هكذا، وربما أعطيك روبية واحدة من قيمة المكافأة التى تقدر بمائة روبية عندما آخذ جلده، وأذهب به إلى خانهيوارا!" تحسس الدثار الملفوف حول خصره بحثًا عن الصوان وقطعة الفولاذ التى يستخرج منها الشرر، وانحنى ليحرق شعر جلد شرخان. معظم المواطنين المحليين يحرقون شعر النمر لمنع شبحه من الظهور ومطاردتهم بعد ذلك.

تمتم موجلى، وهو يوجه نصف الكلام لنفسه متراجعًا بعنف نحو جلد الساق الأمامية، والنصف موجه إلى بيلدو: "إذن أنت تريد أن تأخذ جلده إلى خانهيوارا لتحصل على المكافأة، وربما تعطينى منها روبية واحدة؟! أما أنا فسأقول لك ما يدور فى ذهنى، ألا وهو أننى أحتاج لاستخدام الجلد لنفسى، هه؟ أيها العجوز، خذ نارك هذه وابتعِدْ عن هنا!".

"ما هذا الكلام الذى توجهه لزعيم صيادين القرية؟ إن الحظ وغباء الجاموس هما اللذان ساعداك فى هذا القنص. لقد كان النمر ممتلئًا بالطعام، وإلا لكان قد ابتعد عشرين ميلاً خلال هذا الوقت. أنت لا يمكنك حتى أن تسلخ جلده بشكل جيد، أيها المتسول

الصغير. وفى الواقع أنا، بيلدو، لا ينبغى لأحد أن يقول لى ألا أحرق جلده، يا موجلى. أنا لن أعطيك "آنة" واحدة من المكافأة، بل فقط سأضربك ضربًا موجعًا جدًا. اترك الجثة!".

قال موجلى وهو يحاول أن يخلص كتفه من قبضة بيلدو: "بحق الثور الذى افتدانى، هل علىّ أن أظل أثرثر مع قرد عجوز طوال الظهيرة؟ هيا يا أكيلا، هذا الرجل يزعجنى".

بيلدو، الذى كان لا يزال منحنيًا فوق رأس شرخان، وجد نفسه منبطحًا فوق العشب، وذئب رمادى يقف فوقه، بينما واصل موجلى سلخ جلد النمر كما لو كان وحده فى الهند كلها.

قال من بين أسنانه: "نـ .. نعم، أنت على حق تمامًا يا بيلدو، أنت لن تعطينى ولا آنة واحدة من المكافأة. هناك حرب قديمة بين هذا النمر الأعرج وبينى.. حرب قديمة جدًا، و.. لقد ربحتها".

ولكى نعطى بيلدو حقه، فإنه إذا كان أصغر من الآن بعشر سنوات، لكان قد حظى بفرصته مع أكيلا كذئب التقاه فى الغابة. لكن مع ذئب يطيع أوامر هذا الصبى الذى لديه حروبه الخاصة مع النمور آكلة لحوم البشر، لم يكن حيوانًا عاديًا، بل كان سحرًا وشعوذةً من أسوأ نوع، هذا ما اعتقده بيلدو. وتَساءلَ عما إذا كانت التميمة التى يعلقها حول عنقه قد تحميه أم لا. بقى راقدًا ممددًا فى مكانه فى سكون، يتوقع كل لحظة أن يرى موجلى يتحول إلى نمر أيضًا.

فى النهاية قال فى همس مبحوح: "أيها المهراجا! أيها الملك العظيم".

قال موجلى: "نعم"، دون أن يحرك رأسه وهو يسعل قليلاً.

"أنا رجل طاعن فى السن. لم أكن أعرف أنك أى شىء أكثر من ولد يرعى القطيع. هل لى أن أنهض وأنصرف، أم أن خدمك سيمزقوننى إربًا إربًا؟".

"اذهب، اذهب بسلام. فقط لا تتطفل مرة أخرى على صيدى. دَعْه يذهب يا أكيلا".

اتخذ بيلدو طريقه إلى القرية بأسرع ما يستطيع، وهو يعرج ويتطلع من وراء كتفه خوفًا أن يتحول موجلى إلى أى شىء مرعب. عندما وصل إلى القرية حكى حدوتة عن السحر والشعوذة والعرافة، جعلت الكاهن يفكر بعمق شديد.

واصل موجلى عمله، لكنه لم يتمكن هو والذئاب من الانتهاء من سلخ جلد النمر سلخًا نهائيًا إلا قرب الفجر.

"والآن علينا أن نخفى هذا ونعيد الجاموس للقرية! ساعِدْنى يا أكيلا فى قيادتها".

كان القطيع فى كل مكان حولهما فى هذا الفجر الضبابى. وعندما اقتربوا من القرية رأى موجلى أضواءً، وسمع الأبواق تُنفخ والأجراس تُدق فى المعبد. بدا أن نصف القرية فى انتظاره عند البوابة. قال لنفسه: "هذا لأننى قتلت شرخان". لكن وابلاً من الحجارة صَفَّر عند أذنيه، وصاح الفلاحون: "الساحر! طفل الذئاب! شيطان الغابة! هيا اذهب من هنا! انصرِفْ بسرعة، وإلا سيحولك

الكاهن إلى ذئب مرة أخرى. أطلِقْ عليه الرصاص يا بيلدو، أطلِقْ!".

أطلق العجوز رصاصة من بندقيته وصاحَبَ ذلك ضجة مدوية، لكنها أصابت جاموسة صغيرة فخارت وهى تصرخ من الألم.

صاح الفلاحون:"المزيد من السحر! إنه يستطيع تحويل مسار الرصاص. بيلدو، إنها جاموستك".

قال موجلى فى حيرة والأحجار المتساقطة حوله فى تزايد: "والآن، ما هذا؟!".

قال أكيلا: "إنهم لا يختلفون كثيرًا عن أفراد القطيع، إنهم أشقاؤك من البشر." وجلس فى هدوء وأكمل: "من وجهة نظرى، إذا كان هناك أى معنى لهذه الرصاصات، فمعناها أنهم سيطردونك".

صاح الكاهن وهو يلوح بغصن من نبات "التولس" المقدس: "أيها الذئب! يا ابن الذئاب! ابتعد عن هنا!".

"مرة أخرى؟! المرة الماضية كانت لأننى إنسان.. هذه المرة لأننى ذئب. هيا نمضى من هنا يا أكيلا".

جاءت امرأة - كانت ميسوا - تجرى عبر القطيع وتصرخ :"أوه، ولدى، ولدى! يقولون إنك ساحر تستطيع تحويل نفسك إلى حيوان إذا رغبت. أنا لا أصدق ذلك، لكن اهرب من هنا وإلا قتلوك. بيلدو يقول إنك ساحر، لكنى أعرف أنك أخذت بثأر مقتل ناثو".

صاحت الجماهير: "عودى يا ميسوا! عودى! وإلا رجمناك بالحجارة".

ضحك موجلى ضحكة قصيرة قطعها فى ألم لأن حجرًا أصابه فى فمه، وقال :"عودى يا ميسوا. إنها واحدة من الحواديت الحمقاء التى يحكونها تحت الشجرة الكبيرة فى الغسق. لقد أخذت على الأقل بثأر حياة ابنك. الوداع، وأسرعى بالعودة، لأنى سأطلق القطيع عليهم بسرعة أكبر من الحجارة التى يلقونها علىّ. أنا لست ساحرًا يا ميسوا. الوداع!".

صاح :"والآن هيا يا أكيلا مرة أخرى، أدخِل القطيع إلى القرية".

كانت الجواميس قلقة جدًا وتريد الدخول إلى القرية، فلم تحتج كثيرًا لصرخة أكيلا، واندفعت عبر البوابة مثل العاصفة، فتشتَّت الحشد يمينًا ويسارًا.

صاح موجلى بازدراء: "هيا أحصوها! ربما أكون قد سرقت واحدة منها. هيا أحصوها، لأننى لن أرعى قطعانكم مرة أخرى. الوداع يا أطفال البشر، واشكروا ميسوا لأننى لأجل خاطرها لن آتى هنا ومعى ذئابى وأطاردكم فى الشوارع".

واستدار على عقبيه وسار مبتعدًا مع الذئب المتوحد، وتَطلَّع إلى النجوم وشعر بالسعادة :"لن أعود للنوم فى الشَّرَك يا أكيلا. هيا نأخذ جلد شرخان ونمضى من هنا. لا، نحن لن نصيب القرية بأى ضرر، لأن ميسوا كانت طيبة معى".

عندما ارتفع القمر فوق السهل، وجعله يبدو كله أبيض بلون الحليب، رأى الفلاحون المرعوبون موجلى، وبصحبته ذئبان تحت قدميه ومجموعة ذئاب أخرى على رأسه، يسير بينهم مثلما يسير

الذئب فى خطوة سريعة يقطع الأميال الطويلة فى سرعة البرق، فدقوا أجراس المعبد ونفخوا الأبواق بصوت مرتفع أكثر من ذى قبل. وبكت ميسوا، ونسج بيلدو قصة مغامراته فى الغابة بحبكة مبالغ فيها، حتى وصل لقوله إن أكيلا نهض على قائمتيه الخلفيتين وتحدث مثل البشر.

كان القمر قد بدأ يختفى حين وصل موجلى والذئبان إلى التل حيث صخرة المجلس، وتوقفوا عند كهف الذئبة الأم.

صاح موجلى: "لقد طردونى من قطيع البشر يا أمى، لكنى أتيت بجلد شرخان لأفى بكلمتى". وقفت الذئبة الأم بوقار وسارت خارجة من الكهف ووراءها صغارها، ولمعت عيناها وهى ترى الجلد.

"لقد قلت له فى ذلك اليوم، عندما حشر رأسه وكتفيه فى فتحة الكهف، إنك تصطاد وتطارد من أجل حياتك يا ضفدعى الصغير - قلت له إن المطارَد سيكون هو المطارِد. إنه عمل جيد".

قال صوت عميق من داخل الأشجار الكثيفة: "شقيقى الصغير، إنه عمل جيد، كنا نشعر بالوحدة بدونك فى الغابة". وأتى باجيرا جريًا إلى قدمى موجلى الحافيتين. تسلقوا بجهد صخرة المجلس معًا، وبسط موجلى الجلد على الصخرة الملساء التى اعتاد أكيلا الجلوس عليها، وثبتها بأربع قطع صغيرة من سيقان البامبو، وتمدد أكيلا فوقها ونادى نداءه القديم إلى المجلس: "انظروا، انظروا جيدًا يا معشر الذئاب"، تمامًا مثلما نادى حين أحضروا موجلى للمرة الأولى إلى المجلس.

منذ تم عزل أكيلا، والقطيع بلا قائد، يصطادون ويقاتلون كما يشاءون. لكنهم أجابوا النداء كنوع من الاعتياد، وبعضهم كانوا يعرجون بسبب الشراك التى وقعوا فيها، وبعضهم كانوا يعرجون من الجراح التى أصابتهم من الصيادين، وبعضهم أصابهم الجرب بسبب أكل الطعام الفاسد، وكثيرون فُقِدُوا، لكنهم أتوا إلى صخرة المجلس. كان الحاضرون هم مَنْ تبقى منهم. ورأوا جلد شرخان مثبتًا على الصخرة، والمخالب الضخمة تتدلى من أطراف الكفوف الفارغة المدلاة.

قال موجلى: "انظروا جيدًا يا معشر الذئاب.. هل وفيت بكلمتى؟" وأومأت الذئاب موافقة، ونبح أحد الذئاب المصابة: "هيا يا أكيلا، تولى قيادتنا مرة أخرى، عد لقيادتنا. يا أيها الطفل الآدمى، نحن تعبنا من حياتنا دون قانون، وسنعود لنكون الشعب الحر مرة أخرى".

جأر باجيرا: "لا، هذا لن يحدث. عندما تمتلئ بطونكم بالطعام قد يصيبكم الجنون مرة أخرى. لم تأتِ من فراغ تسميتكم بالشعب الحر. لقد حاربتم من أجل الحرية، وهى لكم. كلوها يا معشر الذئاب".

قال موجلى: "لقد طردنى قطيع البشر وقطيع الذئاب، والآن سأصطاد بمفردى فى الغابة".

قال أربعة ذئاب صغار: "ونحن سنصطاد معك".

وهكذا مضى موجلى مبتعداً، وراح يصطاد مع الذئاب الصغار الأربعة فى الغابة منذ ذلك اليوم. لكنه لم يظل وحيداً على الدوام، لأنه فى السنوات التالية، أصبح رجلاً وتزوج.

لكن تلك قصة للكبار.

أغنية موجلى

تلك الأغنية غناها موجلى على صخرة المجلس حين رقص فوق جلد شرخان.

أغنية موجلى ـ أنا، موجلى، أغنى. دعوا الغابة تصغى لما فعلته.

قال شرخان إنه سيقتل ـ سيقتل! عند البوابات ساعة الشفق سيقتل الضفدع موجلى!

أكل وشرب. اشرب كثيرًا يا شرخان، فمتى تشرب مرة أخرى؟ نم واحلم بالقتل.

أنا وحدى فى أرض المراعى. تعالَ إلىَّ يا شقيقى الرمادى! تعالَ إلىّ، أيها الذئب المتوحد، لأن هناك صيدًا كبيرًا قادمًا!

أحضِرْ معك العجّول والثيران ذات الجلود الزرقاء والعيون الغاضبة. ادفعهم للأمام والخلف حسب أوامرى. لا تزال نائمًا يا شرخان؟ استيقِظْ! استيقِظْ! ها أنا أتيت إليك، وخلفى الثيران.

راما ملك الثيران يدك الأرض بقوائمه. بحق مياه نهر وينجانجا، أين ذهبت يا شرخان؟

إنه ليس ساهى الذى يحفر الحفر، ولا مور الطاووس الذى يطير.. إنه ليس مانج الخفاش الذى يتعلق بالأغصان. يا أغصان البامبو المطقطقة، أخبرينى إلى أين هرب!

واو! إنه هناك. آهووو! إنه هناك. تحت حوافر راما يرقد ذلك الأعرج! هيا قم يا شرخان! قم واقتل! هنا لحم، اكسر أعناق الثيران!

صمتًا! إنه نائم، لن نوقظه، لأن قوته عظيمة. جاءت الحِدْآن هنا لتتطلع إليه. النمل الأسود جاء ليشاهده. حشد كبير اجتمع على شرفه.

آلالا! ليس لدىّ ثياب ألتف بها. سترانى الحِدْآن وأنا عارٍ. أشعر بالخجل من لقاء كل هؤلاء القوم.

أعِرْنى جلدك يا شرخان، أعِرْنى جلدك الجميل المخطط لأتمكن من الذهاب إلى صخرة المجلس. بحق الثور الذى افتدانى أخذت على نفسى وعدًا ـ وعدًا صغيرًا. فقط ينقصنى جلدك لأفى بوعدى.

بالسكين، بالسكين التى يستخدمها البشر، بسكين الصياد، سأهبط لأحصل على هديتى.

بحق مياه نهر وينجانجا، يعطينى شرخان جلده من أجل حبه لى. أيها الشقيق الرمادى اسحب! اسحب يا أكيلا! جلد شرخان ثقيل.

قطيع البشر غاضب. يلقون بالحجارة ويتحدثون كالأطفال. فمى ينزف دمًا. دعونى أهرب.

عبر الليل، عبر الليل القائظ الحرارة، اجروا بسرعة معى يا أشقائى. سنترك أضواء القرية ونذهب للقمر قبل أن يختفى.

بحق مياه نهر وينجانجا، طردنى قطيع البشر. لم أسئ إليهم، لكنهم خائفون منى. لماذا؟

قطيع الذئاب.. كذلك طردونى. أغلقت الغابة أبوابها فى وجهى وأغلقت القرية أبوابها فى وجهى.. لماذا؟

كما يطير مانج بين الحيوانات والطير، هكذا سأطير أنا بين القرية والغابة، لماذا؟

أرقص فوق جلد شرخان، لكن قلبى مثقل جدًا. جرح فمى نزف من الحجارة التى ألقاها أهل القرية علىّ، لكن قلبى فرح جدًا، لأننى عدت إلى الغابة.. لماذا؟

هذان الشيئان يتقاتلان داخلى كما تتقاتل الأفاعى فى النبع. الدموع تنهال من عينى، مع ذلك أضحك عندما تنسال على وجنتى، لماذا؟

أنا شخصان، لكن جلد شرخان تحت قدمى.

كل الغابة تعرف أننى قتلت شرخان.

انظروا.. انظروا جيدًا يا معشر الذئاب!

آهاى! قلبى مثقل من الأشياء التى لا أفهمها.

"عجل البحر" الأبيض

أوه! هيا اصمت، يا طفلى، الليل وراءنا،

وسوداء هى المياه التى تشع بالخَضَار.

القمر، فوق الأمواج الطويلة المتكسرة، ينظر إلى أسفل ليجدنا

فى سكون، فى التجاويف ذات الحفيف

حيث تلتقى الموجة بالموجة، ثم تذوب.

أوه، استرح يا ذا الزعانف الصغيرة من قلقك!

العاصفة لن توقظك ، وسمك القرش لن يهاجمك ،

استمتع بنومك وتمايل بين ذراعى البحار الهادئة!

أغنية قبل النوم

لصغار عجول البحر

كل هذه الأشياء حدثت منذ سنين عديدة، فى مكان يُسمَّى "نوفاستوشنا" أو نقطة الشرق الشمالى على جزيرة سانت بول،

بعيدًا بعيدًا فى بحر بيرنج. حكى لى "ليمرشين" طائر النمنم البحرى الصغير حكاية عندما قذفته الريح ليصطدم بشراع سفينة بخارية ذاهبة إلى اليابان، وأخذته إلى قمرتى ودفأته وأطعمته لمدة يومين حتى استطاع أن يطير عائدًا إلى سانت بول مرة أخرى. ليمرشين طائر صغير شديد الجاذبية، لكنه يعرف كيف يقول الحقيقة.

لا يأتى أحد إلى نوفاستوشنا من أجل العمل، والأشخاص الوحيدون الذين لديهم عمل منتظم هناك هم عجول البحر. يأتون فى شهور الصيف بمئات ومئات الألوف هربًا من برد البحر الرمادى، لأن شاطئ نوفاستوشنا به أروع وسائل الراحة والترفيه التى لا يجدها عجول البحر فى أى مكان آخر فى العالم. "سيكاتش" يعرف ذلك، وكل ربيع يسبح قادمًا من المكان الذى يتصادف وجوده فيه. يسبح مثل زورق طوربيد مباشرة نحو نوفاستوشنا، ويقضى شهرًا يتشاجر مع رفاقه للحصول على مكان جيد فوق الصخور أقرب ما يكون إلى البحر. كان سيكاتش يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وهو عجل بحر ضخم رمادى اللون ذو فراء وله دائمًا شعر على أكتافه، وأنياب كبيرة حادة. عندما رفع نفسه على زعنفتيه الأماميتين بدا مرتفعًا عن الأرض بمسافة تزيد عن أربعة أقدام. أما وزنه، إذا رأى أى شخص فى نفسه الجرأة على القيام بوزنه، فإنه يزن سبعمائة رطل تقريبًا. كانت الندوب تغطى جسده من آثار المعارك الوحشية، لكنه كان مستعدًا دائمًا لمعركة أخرى. كان يميل برأسه على جنب كما لو كان يخشى أن ينظر فى

وجه عدوه، ثم يدفعه بسرعة البرق. وعندما تحكم الأسنان الكبيرة قبضتها على رقبة عجل البحر الآخر، فمن الأفضل لعجل البحر الآخر أن يبتعد إن كان هذا فى استطاعته، لكن سيكاتش لن يمكّنه من ذلك. إلا أنه لا يطارد عجل بحر جريحًا، لأن ذلك يتعارض مع قوانين الشاطئ. كل ما كان يطمح إليه هو مكان قريب من البحر يقيم فيه، لكن لأن هناك أربعين أو خمسين ألف عجل بحر آخر يتقاتلون من أجل الشىء نفسه كل ربيع، فإن الصفير والخوار والزئير والضرب واللطم على الشاطئ كان شيئًا مرعبًا. من تل صغير يُطلق عليه تل "هوتشينسون"، يمكنك أن ترى ما يزيد على ثلاثة أميال ونصف من الأرض مغطاة بعجول البحر تتقاتل، والأمواج المتكسرة على الشاطئ كنقط ممتلئة برؤوس عجول البحر التى تسرع إلى اليابسة لتبدأ حصتها من القتال. تقاتلوا فوق الأمواج المتكسرة، وتقاتلوا على الرمال، وتقاتلوا على صخور البازلت الناعمة الملساء التى يقيمون عليها، لأنهم كانوا أغبياء وغير متحضرين مثل البشر. لا تأتى زوجاتهم إلى الجزيرة حتى أواخر شهر مايو أو أوائل شهر يونيو، لأنها لم تكن تريد التمزق إلى أشلاء. أما الصغار الذين يبلغون من العمر سنتين وثلاث وأربع سنوات، الذين لم يتمكنوا بعد من إدارة شئون حياتهم، فقد كانوا يبتعدون إلى الداخل حوالى نصف ميل بعيدًا عن صفوف المتقاتلين، ويلعبون حولهم على تلال الرمال فى أسراب وجماعات، ويَحُكُّون جلودهم فى كل نبتة خضراء. كانوا يسمون "الهولوسشيكى" (العُزَّاب من الفرسان الأحداث صغار السن)، وربما يبلغ عددهم مائتى أو ثلاثمائة ألف فى نوفاستوشنا وحدها.

كان سيكاتش قد انتهى لتوه من معركته الخامسة والأربعين ذات ربيع، حين خرجت من البحر زوجته ماتكا العذبة الملساء ذات العينين الرقيقتين، وأمسك بها من مؤخرة عنقها وأسقطها على الأرض التى استطاع الحصول عليها باعتبارها مكانًا خاصًا به، وقال لها بصوت أجش: "تأخرتِ كالمعتاد. أين كنت؟".

لم يكن من عادة سيكاتش أن يأكل أى شىء أثناء الأشهر الأربعة التى يقيم فيها على الشواطئ، لذلك كان مزاجه عامة سيئًا، وكانت ماتكا أعقل من أن ترد عليه، فتطلعت حولها وتحدثت بصوت لطيف وقالت: "يالك من حكيم. لقد استطعت الحصول على المكان القديم ذاته مرة أخرى".

قال سيكاتش: "كان يجب أن أفعل ذلك. انظرى إلىّ!".

كانت الخدوش تغطى جسده وينزف من عشرين مكانًا، إحدى عينيه تكاد تخرج من محجرها، وجانباه ممزقان.

قالت ماتكا وهى تُرَوِّح بزعنفتها الخلفية: "أوه، أنتم معشر الذكور، معشر الذكور! لماذا لا تتعاملون بهدوء وتستقرون فى أماكنكم بسلام؟ تبدو كما لو كنت تتقاتل مع الحوت القاتل".

"منذ منتصف مايو لم أفعل أى شىء غير القتال. الشاطئ مزدحم هذا الموسم بطريقة لا تُعقل. لقد التقيت بما لا يقل عن مئة عجل بحر قادمين من شاطئ لوكانون، مركز الصيد. لماذا لا يبقى القوم فى المكان الذى ينتمون إليه؟".

قالت ماتكا :"كنت أعتقد، غالبًا، أننا سنكون أكثر سعادة لو خرجنا إلى الجزيرة الخارجية بدلاً من هذا المكان المزدحم".

"باه! الهولوسشيكى فقط هم الذين يذهبون إلى الجزيرة الخارجية. إذا ذهبنا هناك سيقولون عنا إننا خائفون. يجب أن نحافظ على المظاهر يا عزيزتى".

أغرق سيكاتش رأسه بين كتفيه العريضتين بفخر وتظاهر بالنوم لدقائق قليلة، لكنه فى حقيقة الأمر كان طوال الوقت ينظر بعين ثاقبة توقعًا لنشوب معركة. فى ذلك الوقت كانت كل عجول البحر وزوجاتهم قد حطوا على اليابسة، وبإمكانك أن تسمع صخبهم على بعد أميال داخل البحر أعلى من أعتى العواصف. على أقل تقدير عددهم يتجاوز مليون عجل بحر على الشاطئ - عجول البحر الكبيرة، والأمهات، والأطفال الصغار، والهولوسشيكى (الأحداث)، يتعاركون، يتشاجرون، يتحامقون، يسبحون بسرعة، ويلعبون معًا - يهبطون إلى البحر ويخرجون منه فى جماعات وأسراب متمددين على كل شبر من اليابسة على مدى البصر، ويتناوشون فى مجموعات فى الضباب. فالمكان يكاد يكون دائمًا مضببًا فى نوفاستوشنا، إلا حين تخرج الشمس من مخبئها وتجعل كل الأشياء تبدو متلألئة وملونة بألوان قوس قزح لفترة صغيرة.

وُلِد كوتيك طفل ماتكا فى وسط هذا التشوش، وكان كله عبارة عن رأس وكتفين، وعينين شاحبتين بلون زرقة الماء كعادة عجول البحر الصغيرة، لكن فى فرائه كان ثمة شىء جعل والدته تمعن النظر فيه.

فى النهاية قالت: "سيكاتش، طفلنا سيكون أبيض اللون!".

قال سيكاتش بصوت غاضب: "اللعنة على المحار الفارغ وأعشاب البحر الجافة! لا يوجد فى العالم شىء اسمه عجل بحر أبيض".

قالت ماتكا: "ليس بوسعى شىء، هناك واحد الآن".. وراحت تغنى لصغيرها وتدندن بصوت رقيق خفيض تلك الأغنية التى تغنيها كل الأمهات من عجول البحر لصغارها:

لا تسبح فى البحر حتى تتم أسابيعك الستة،

حتى لا تغرق ورأسك بين زعانفك

وعواصف الصيف والحيتان القاتلة

أعداء عجول البحر الصغيرة

أعداء عجول البحر الصغيرة يا عزيزي الصغير،

أعداء لأقصى درجة،

لكن اغطس غطسة صغيرة حتى تكبر وتصبح قويًا

فلا تخطئ

يا طفل البحر المفتوح!

بالطبع كان الرضيع الصغير فى بداية الأمر لا يفهم حرفًا مما تقول. راح يحرك زعانفه ويزاحم بجوار أمه ويتعلم كيف يبتعد عن الطريق حين يتقاتل والده مع عجل بحر آخر، ويأخذ الاثنان فى الدوران حول بعضهما ويزمجران صعودًا وهبوطًا حول الصخور

الزلقة. اعتادت ماتكا الذهاب للبحر لإحضار الطعام، وكان الصغير يتناول الطعام مرة واحدة كل يومين، لكنه حين يأكل فى تلك المرة يأكل كل ما تقع عليه عيناه، وينمو ويكبر بسرعة. كان أول شىء فعله هو الزحف نحو اليابسة، وهناك قابل عشرة آلاف رضيع فى مثل سنه، لعبوا جميعًا معًا مثل الجراء، ثم ذهب لينام على الرمال النظيفة، ثم عاد للعب مرة أخرى. لم يلتفت الكبار إليهم، أما الهولوسشيكى فقد حافظوا على البقاء فى أرضهم، وحظى الصغار الرضع بوقت ممتع من اللعب. حين عادت ماتكا من أعماق البحر ومعها ما حصلت عليه من صيد، ذهبت مباشرة إلى حيث يلعب الصغار ونادت على صغيرها مثلما تنادى الخراف على صغارها، وانتظرت حتى سمعت ثغاء كوتيك. عندئذٍ اتخذت أقصر طريق مستقيم نحوه، وهى تصطدم فى طريقها بزعانفها الأمامية بالرؤوس الصغيرة على يمينها ويسارها. كان هناك دائمًا عدة مئات من الأمهات يحضرن الطعام لصغارهن حيث يلعبون، وينعم الصغار بالطعام وينمون ويكبرون، لكن مثلما قالت ماتكا لكوتيك :"لن تتعرض لأى أذى إذا بقيت خارج المياه الموحلة ولم تصب بالجرب أو تحكّ نفسك فى الرمال الخشنة التى قد تدخل فى جرح أو خدوش، ولا تذهب مطلقًا للسباحة حين يشتد المد. إذا أخذت بنصيحتى لن تتعرض لأى أذى".

إن عجول البحر الصغيرة لا تجيد السباحة مثلها مثل الأطفال الصغار، لكنهم لا يشعرون بالسعادة إلا حين يتقنونها. فى المرة الأولى التى اندفع فيها كوتيك إلى الماء سحبته موجة إلى عمق بعيد

وطمرت رأسه الكبير وزعنفتيه الخلفيتين كما قالت له أمه فى أغنيتها، ولو لم تأتِ الموجة التالية لتعيده مرة أخرى إلى مكانه لغرق. بعد ذلك تعلم كيف يتمدد فى بركة قريبة من الشاطئ ويترك اندفاع الأمواج يغطيه ويرفعه وهو يجدف، لكنه يُبقى عينيه مفتوحتين دائمًا حتى لا يتأذى من الأمواج الكبيرة. قضى أسبوعين يتعلم السباحة وكيفية استخدام زعانفه، وكان يفعل كل ذلك وهو يتخبط متعثرًا داخل الماء وخارجه ويسعل وينخر ويبطئ ويسرع زاحفًا نحو الشاطئ ليغفو غفوة قصيرة على الرمال، ثم يعاود ما كان يفعله مرة أخرى، حتى وجد نفسه فى النهاية ينتمى إلى الماء. عندئذٍ يمكنك أن تتصور الأوقات السعيدة التى كان يقضيها مع أترابه فى الغطس تحت الأمواج الطويلة، أو الصعود فوق موجة طويلة متكسرة والمكوث فوق الماء المندفع نحو الشاطئ، والبقبقة حين تغطى الموجة الكبيرة مساحة كبيرة من الشاطئ، أو الوقوف على ذيله وحك رأسه كما يفعل الكبار، أو لعبة " أنا ملك القلعة" فوق الصخور الزلقة المليئة بالطحالب والأعشاب التى تبرز قليلاً من اليابسة وتطل فوق الماء. بين حين وآخر قد يرى زعنفة نحيلة مثل زعانف سمك القرش الكبير تندفع مقتربة من الشاطئ، وهو يدرك أن هذا هو الحوت القاتل أو دولفين ضخم ممن يأكلون عجول البحر الصغيرة حين يعثرون عليها، عندئذٍ ينطلق كوتيك مباشرة نحو الشاطئ مثل السهم، أما الزعنفة النحيلة فتتحرك مهتزة ببطء، كما لو لم تكن تبحث عن أى شىء على الإطلاق .

فى أواخر أكتوبر تبدأ عجول البحر فى مغادرة جزيرة سانت بول موغلة فى البحر، فى شكل عائلات وقبائل، ولا يعود هناك قتال حول أماكن الإقامة، ويلعب الأحداث فى أى مكان يشاءون. قالت ماتكا لكوتيك: "العام القادم ستكون حدثًا، لكن هذا العام يجب أن تتعلم صيد السمك".

واصلا رحلتهما معًا نحو المحيط الهادئ. وعَلَّمَت ماتكا كوتيك كيف ينام على ظهره وزعانفه مطوية إلى جانبيه وأنفه الصغير فقط فوق الماء. لا يوجد مهد مريح لهذه الدرجة من الراحة التى تبعثها أمواج المحيط الهادئ الطويلة الهزازة. حين يشعر كوتيك بوخز فى جلده، كانت ماتكا تقول له: "إنك تتعلم كيف تشعر بالماء".. إن هذا الشعور بالوخز الشائك المزعج يعني أن الطقس سيسوء، لذلك عليه أن يسرع فى السباحة والابتعاد عن المكان. قالت: "فى خلال وقت قصير، ستعرف أين تسبح وإلى أين تتجه، أما الآن فكل ما علينا أن نفعله هو أن نتبع خنزير البحر لأنه عاقل وحكيم". كان هناك قطيع من خنازير البحر تسبح وتشق طريقها بسرعة شديدة فى الماء، وراح كوتيك الصغير يتبعها بأقصى سرعة يستطيعها. قال لاهثًا: "كيف تعرفون إلى أين تمضون؟". أدار قائد القطيع عينيه البيضاوين وغطس إلى أسفل وقال: "أشعر بالخدر فى ذيلى أيها الصغير، وهذا معناه أن هناك عاصفة خلفى. هيا أسرِعْ! حين تصل إلى جنوب المياه الرطبة (وهو يقصد خط الاستواء) وتشعر بوخز وخدر فى ذيلك، فهذا معناه أن هناك عاصفة أمامك وعليك أن تتجه شمالاً، هيا أسرِعْ. الماء سيئ هنا".

كان هذا أحد أمور كثيرة تعلمها كوتيك، وهو دائم التعلم. علمته ماتكا أن يتبع سمك القد والهلبوت أثناء مروره بالمنحدرات الموجودة تحت سطح الماء، وأن يغير اتجاهه بعيدًا عن مواطن الخطر بين الأعشاب، وأن يتجنب حطام السفن الغارقة فى أعماق البحر، وأن يندفع كطلقة الرصاصة من ثقب صغير ويخرج إلى مكان آخر مثلما تهرب الأسماك، وأن يتحرك فوق الأمواج عندما ينتشر ضوء الشمس ويغطى السماء كلها، وأن يلوح بزعانفه فى أدب لطائر الباتروس والصقر عندما يحلقان فوق السفن الحربية وهما يخترقان الرياح ليعودا إلى الماء، وأن يقفز بارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام قفزة جيدة مثل الدولفين وهو يضم زعانفه إلى جانبيه ويلوى ذيله، وألا يصطاد السمك الطيار لأنه ملىء بالعظام وليس به لحم كثير، وأن يأكل كتف سمك القد ويبتعد بسرعة، وألا يتوقف البتة ليتطلع إلى قارب أو سفينة، خاصة القوارب ذات المجاديف. فى نهاية ستة أشهر كان الشىء الذى لم يتعلمه كوتيك بخصوص الصيد فى أعماق البحر لا يستحق المعرفة، وطوال كل تلك الفترة لم يضع زعنفة على اليابسة.

ذات يوم، بينما كان راقدًا نصف نائم فوق الماء الدافئ فى مكان ما قرب جزيرة "جون فرناند"، شعر بكل جسده ضعيفًا وكسولاً، عندئذ تذكر شواطئ نوفاستوشنا الرائعة التى تبعد سبعة آلاف ميل، والألعاب التى كان يلعبها مع أترابه، ورائحة أعشاب البحر، وزمجرة عجول البحر والشجار. فى اللحظة ذاتها تَحوَّل إلى الشمال وهو يسبح بقوة وثبات. وبينما كان يمضى فى طريقه، قابل جماعات

من رفاقه كلهم يتجهون إلى المكان عينه، قالوا: "تحياتنا لك ياكوتيك! هذا العام كبرنا جميعًا وأصبحنا أحداثًا، ويمكننا أن نرقص رقصة النار على أمواج لوكانون المتكسرة ونلعب على الأعشاب النضرة. لكن من أين حصلت على هذه الفراء؟".

الآن أصبح فراء كوتيك ناصع البياض تقريبًا، وعلى الرغم من أنه كان شديد الفخر به، فإنه لم يقل أكثر من: "اسبحوا بسرعة! عظامى تتوق لليابسة". وهكذا عادوا جميعًا إلى الشواطئ التى وُلدوا عليها والتى سمعوا عجول البحر الكبيرة آباءهم، يتعاركون فوقها فى الضباب الملتف حولهم.

تلك الليلة رقص كوتيك رقصة النار بصحبة أترابه من عجول البحر الذين أتموا عامهم الأول. فى ليالى الصيف يمتلئ البحر بالنار بطول الطريق من نوفاستوشنا حتى لوكانون. وجميع عجول البحر لدى قفزها تخلف وراءها أثرًا مثل الزيت المحترق، وتتكسر الأمواج فى خطوط ودوامات فوسفورية. ثم يدلفون إلى داخل اليابسة حيث الأماكن التى يقيم فيها الأحداث. ويدورون إلى أعلى وأسفل وسط نباتات القمح البرى، ويحكون قصصًا عما فعلوه عندما كانوا فى البحر. تكلموا عن المحيط الهادئ كما يتحدث الصبية عن الغابة التى مارسوا فيها أمورًا غريبة، وإذا استطاع أى شخص أن يفهم ما يقولونه لذهب ورسم خريطة لذلك المحيط لم يسبقه إليها أحد. أخذ الأحداث الذين يبلغون من العمر ثلاث وأربع سنوات يمرحون ويصخبون وهم يهبطون تل هوتشينسون صائحين:

"ابتعدوا عن طريقنا أيها الصغار ! البحر عميق وأنتم لا تدركون بعد ماذا يخبئ. انتظروا حتى تكبروا قليلاً. وأنت يا من بلغت عامك الأول.. من أين حصلت على هذه الفراء الأبيض؟".

قال كوتيك: "لم أحصل عليه من أحد، لقد نما حول جسدى". وفى اللحظة التى قرر فيها أن يستطرد فى الكلام مع محدثه، ظهر فجأة رجلان أسودا الشعر بوجهين حمراوين جامدين قادمين من خلف التلال الرملية. وكوتيك الذى لم يرَ بشرًا من قبل سعل وخفض رأسه. أما الأحداث الأكبر منه فقد أسرعوا بالابتعاد بضع ياردات ووقفوا يحملقون فى بلاهة. لم يكن الرجلان سوى "كيريك بوترين" زعيم صيادى عجول البحر على الجزيرة، و"باتالامون" ولده. لقد أتيا من القرية الصغيرة التى لا تبعد نصف ميل عن المقر الذى يقيم به الأحداث، وكانا قد قررا أيًا من عجول البحر سيصطادانه ويأخذانه إلى حظيرة قتل عجول البحر - لأن عجول البحر كانت تساق كالغنم - لتتحول فيما بعد إلى معاطف من الفراء.

قال باتالامون: "هووو! انظر! هناك عجل بحر أبيض!".

شحب لون كيريك بوترين بالرغم من الزيت والدخان اللذين كانا يغطيانه، لأنه ينتمى إلى عشيرة آلوت، والآلوت لا يتصفون بالنظافة. ثم أخذ يتمتم ويتلو بعض الصلوات، بعدها قال: "لا تلمسه يا باتالامون، فلم يحدث أن عثرنا على عجل بحر أبيض منذ وُلدت. ربما يكون شبح زاهاروف العجوز، فقد فُقِدَ العام الماضى فى عاصفة هوجاء كبيرة".

قال باتالامون: "لن أقترب منه، إنه منحوس. هل تعتقد حقًا أنه زاهاروف وقد عاد مرة أخرى؟ أنا أدين له ببضع بيضات من بيض النورس".

قال كيريك: "لا تنظر إليه، اتجه مباشرة نحو عجول البحر التى عمرها أربع سنوات. من المفترض أن يحصل الرجال على جلد مائتى عجل اليوم، لكنه عمومًا بداية الموسم، وهم جدد على العمل. مائة ستكفى. هيا أسرع!".

وهز باتالامون زوجًا من عظام أكتاف عجول البحر أمام قطيع من الأحداث، فوقفوا فى أماكنهم كأنهم ميتون وهم يلهثون وينفخون. عندئذٍ خطا باتالامون مقتربًا من العجول فبدأت تتحرك، وقادها كيريك نحو قلب الجزيرة. لم تحاول عجول البحر العودة لرفاقها ثانية. مئات ومئات الألوف من عجول البحر كانت ترقبهم وهم يساقون، لكنهم عادوا للعب كالمعتاد. كان كوتيك عجل البحر الوحيد الذى طرح الأسئلة، ولم يستطع أى واحد من رفاقه أن يمنحه إجابة شافية، إلا بقولهم إن البشر دائمًا يسوقون عجول البحر بهذه الطريقة على مدار ستة أسابيع أو حتى شهرين كل عام.

قال، وعيناه تكادان أن تخرجا تقريبًا من محجريهما، ويكاد يجر رجليه فى أثر القطيع: "سأتبعهم".

صرخ باتالامون قائلاً: "عجل البحر الأبيض قادم وراءنا.. إنها أول مرة يأتى عجل بحر إلى أرض قتل عجول البحر بمفرده".

قال كيريك: "اصمت! لا تنظر خلفك، إنه شبح زاهاروف! ينبغى أن أحدث الكاهن بشأنه".

كانت المسافة إلى أرض قتل عجول البحر لا تبعد أكثر من نصف ميل، لكنها استغرقت منهما ساعة للوصول إليها، لأنه عندما تساق عجول البحر بسرعة شديدة يعرف كيريك أنها ستسخن، وعندئذٍ يتمزق فراؤها عندما يسلخونها. لذلك سار بتمهل وبطء شديد، مرورًا ببحر رقبة الأسد، وبيت وبستر، حتى وصلا إلى بيت الملح الذى يبعد عن مرمى بصر عجول البحر الموجودين عند الشاطئ. تبعهما كوتيك وهو يلهث ويتساءل. لقد ظن أنه وصل إلى نهاية العالم، لكن الجلبة والضوضاء الصادرتين عن عجول البحر خلفه كانت مرتفعة كهدير قطار فى نفق. عندئذٍ جلس كيريك على الطحالب وسحب ساعة ثقيلة من المعدن وترك الصيد يبرد لمدة ثلاثين دقيقة، وكان بمقدور كوتيك أن يسمع تساقط الندى من الضباب على حافة قبعته. ثم أتى عشرة أو اثنا عشر رجلاً، كل منهم يحمل هراوة حديدية طولها لا يقل عن ثلاثة أو أربعة أقدام، وأشار كيريك إلى واحد أو اثنين من الصيد مصابين برضوض من آثار عض رفاقهما لهما أو مصابين بالسخونة الشديدة. وركل الرجال العجول التى أشار إليها كيريك وطرحوها جانبًا بأحذيتهم الثقيلة المصنوعة من جلد الفقمة، ثم قال كيريك: "هيا بنا!". عندئذٍ ضرب الرجال عجول البحر على رؤوسها بأقصى سرعة. فى الدقائق التالية لم يعد كوتيك الصغير يميز أصدقاءه، لأن جلودهم سُلخت من أجسامهم من الأنف إلى الزعانف الخلفية، وضُربت بالسياط وألقيت على الأرض فى كومة. كان هذا كافيًا لكوتيك. استدار وعدا بسرعة (يمكن لعجل البحر أن يعدو بسرعة وخفة

لفترة قصيرة) وعاد للبحر، وقد انتصب شعر شاربه الصغير الحديث من الرعب. عند بحر رقبة الأسد ، حيث يجلس أسود البحر الكبار على حافة الأمواج المتكسرة، قذف بنفسه فى الماء البارد حتى غطى رأسه وزعانفه، وأخذ يهتز ويرتعش وهو يلهث فى يأس. قال أحد أسود البحر بصوت أجش: "من هنا؟"؛ لأنها كانت قاعدة معروفة أن مكان أسود البحر لا يقترب منه أحد، وهم يحافظون على بعضهم بعضًا.

قال كوتيك: "أنا وحيد، وحيد للغاية!، إنهم يقتلون كل الأحداث بطول الشواطئ كلها!".

أدار أسد البحر رأسه نحو الشاطئ وقال: "كلام فارغ، إن أصدقاءك يحدثون ضجة وصخبًا شديداً كالمعتاد. لعلك رأيت كيريك يسلخ بعض العجول. إنه يفعل ذلك منذ ثلاثين عامًا".

قال كوتيك: "هذا مرعب". وتصدى لموجة مرت فوقه، ثم انتصب فى وقفته مستندًا على زعانفه، على مسافة ثلاث بوصات من حافة صخرة خشنة.

قال أسد البحر: "عمل جيد بالنسبة لعجل بحر عمره عام واحد!" وكان أسد البحر يُقدِّر السباحة الجيدة. "أظن أن الأمر شنيع إذا نظرت له بهذه الطريقة، لكن إذا ظللتم يا معشر عجول البحر تأتون هنا عامًا وراء عام، بالطبع سيعلم الآدميون بذلك. وإذا لم تعثروا على جزيرة لا يوجد بها بشر، فسيحدث ذلك لكم طوال الوقت ويسوقونكم ويسلخون جلودكم".

بدأ كوتيك فى طرح الأسئلة: "هل توجد جزيرة بهذه المواصفات؟".

"ظللت على مدار عشرين عامًا أتبع سمك الهلبوت، ورغم ذلك لا أستطيع أن أقول إننى عثرت عليها بعد. لكن انظر هنا - يبدو عليك أنك مغرم بالكلام مع من هم أكبر منك. أقترح عليك أن تذهب إلى جزيرة فيل البحر وتتحدث مع "سيفيتش". ربما يعرف شيئًا. لكن لا تندفع هكذا.. إن الذهاب إليه يستغرق ستة أميال سباحة، ولو كنت مكانك أيها الصغير لغيرت اتجاهى وحصلت على قسط من النوم أولاً".

فكر كوتيك أنها نصيحة نافعة، فسبح عائدًا نحو شاطئه، وغيَّر اتجاهه، ونام نصف ساعة، وجلده كله ينتفض مثلما يفعل عجول البحر. ثم استيقظ وذهب مباشرة متجهًا نحو جزيرة فيل البحر. هذه الجزيرة الصخرية عبارة عن مسطح صغير منخفض، نشأت تقريبًا عن الجزء الشرقى الشمالى من جزيرة نوفاستوشنا، كلها نتوءات صخرية وأعشاش طيور النورس، وتقيم أفيال البحر هناك مكونة قطيعًا من أفرادها.

اقترب من سيفيتش العجوز - وهو فيل بحر كبير، قبيح، منتفخ غرورًا، ملىء بالبثور، ذو رقبة ضخمة، له أنياب طويلة، من شمال المحيط الهادئ، ليس لديه أخلاق إلا حين يكون نائمًا - كما كان فى تلك اللحظة - وزعانفه الخلفية نصفها تحت الموجة ونصفها فوق الموجة المتكسرة.

صاح كوتيك: "استيقظ!"، لأن طيور النورس كانت تصدر جلبة وضجيجًا.

قال سيفيتش: "هاه! هوو! همف! من؟" ونفخ بأنيابه فأيقظ فيل البحر المجاور له، والنفخة التالية الفيل التالى، وهكذا حتى استيقظ الجميع وهم يحملقون فى كل اتجاه إلا الاتجاه الصحيح.

قال كوتيك: "مرحبًا! إنه أنا". وهز رأسه فى الموجة المتكسرة فبدا مثل يرقة بيضاء صغيرة.

قال سيفيتش: "حسنًا! هل أنا - سيسلخوننى!" ونظر الجميع نحو كوتيك كما يمكنك أن تتصور ناديًا مليئًا بالنبلاء العجائز الناعسين وهم ينظرون إلى ولد صغير. لم يكترث كوتيك بسماع المزيد عن السلخ فى تلك اللحظة، لقد رأى ما يكفيه من هذا الأمر، لذلك قال بصوت واضح: "ألا يوجد أى مكان تذهب إليه عجول البحر لا يصل إليه الآدميون؟".

قال سيفيتش: "اذهب وفتِّشْ عنه"، وأغمضَ عينيه وأكمل: "هيا ابتعد من هنا، نحن مشغولون".

قام كوتيك باستعراض قفزة الدولفين فى الهواء وصاح بأعلى صوت: "آكل المحار! آكل المحار!"، كان يعلم أن سيفيتش لم يصطد فى حياته سمكة، فهو دائم البحث عن المحار وأعشاب البحر، رغم زعمه أنه كائن مرعب جدًا. عندئذ كان من الطبيعى أن عمدة طيور النورس وأفراد قومهم، وطيور "البَفِنّ" الذين يبحثون دائمًا عن فرصة ليصبحوا وقحين، كانوا أول من صرخوا - وهذا ما أخبرنى به

ليمرشين - "لا يمكنك أن تبقى خمس دقائق دون أن تسمع طلقات البنادق فى جزيرة فيل البحر الصغيرة". وظل كل سكان المكان يصرخون ويصيحون: "آكل المحار! العجوز!"، بينما سيفيتش يدور من جانب لآخر وهو ينخر ويسعل.

قال كوتيك وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه: "والآن.. هل ستقول؟".

قال سيفيتش: "اذهب واسأل بقرة البحر، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ستقول لك".

قال كوتيك وهو يستعد للانطلاق :"كيف أعرف بقرة البحر عندما أقابلها؟".

صاح عمدة طيور النورس وهو يدور تحت أنف سيفيتش: "إنها الشيء الوحيد الأكثر قبحًا من سيفيتش، أكثر قبحًا وأسوأ خُلقًا من هذا العجوز!".

سبح كوتيك عائدًا إلى نوفاستوشنا، تاركًا النوارس تصيح، حيث اكتشف أن لا أحد يتعاطف معه فى محاولته الصغيرة لاكتشاف مكان آمن من أجل عجول البحر. لقد أخبروه أن الآدميين يسوقون أمامهم الأحداث دائمًا - إنه جزء من عملهم اليومى - وأنه إذا كان لا يحب رؤية الأشياء الكريهة ينبغى ألا يذهب إلى مكان قتل عجول البحر، ولكنَّ أيًا من العجول الأخرى لم يرَ القتل، وهذا ما أحدث الفرق بينه وبين أصدقائه. بالإضافة إلى ذلك، كان كوتيك عجل بحر أبيض.

قال سيكاتش العجوز بعدما استمع إلى مغامرة ولده: "الذى يجب أن تفعله، هو أن تكبر حتى تصبح عجل بحر كبيرًا مثل والدك، ويكون لك مكان إقامة على الشاطئ، وعندئذ سيتركونك لشأنك. فى غضون خمس سنوات يجب أن تكون قادرًا على القتال لحماية نفسك". حتى والدته ماتكا الرقيقة قالت: "لن تقدر أبدًا على منع قتل عجول البحر. اذهب يا كوتيك والعب فى الماء". وهكذا مضى كوتيك إلى الماء ورقص رقصة النار وقلبه الصغير مثقل جدًا بالهم.

فى ذلك الخريف غادر كوتياك الشاطئ بأسرع ما يستطيع، وانطلق بمفرده بسبب فكرة حامت فى رأسه المستدير الصغير. كان عازمًا على العثور على بقرة البحر، إذا كان يوجد فى البحر مخلوق بهذا الاسم. وكان عازمًا أن يعثر على جزيرة هادئة بها شواطئ مناسبة، أرضيتها صلبة يمكن لعجول البحر أن يعيشوا عليها دون أن يصل إليهم الآدميون. وهكذا راح يستكشف ويستكشف بنفسه من شمال المحيط الهادئ إلى جنوبه، ويسبح ليغطى مسافة ثلاثمائة ميل فى اليوم بليله. قابل فى طريقه المزيد من المغامرات أصعب من أن يحكيها، وهرب بصعوبة شديدة حين كادت تمسك به سمكة قرش كانت تنعم بدفء الشمس، كما هرب كذلك من سمكة القرش المرقطة والسمكة ذات الرأس الذى يشبه المطرقة. وقد التقى كذلك بكل الأسماك المتوحشة التى لا يمكن الوثوق بها تتسكع صاعدة هابطة فى البحار، والسمكة الكبيرة المهذبة، ومحار الإسقلوب المروحى الشكل القرمزى المنقط الرابض فى مكانه لا ينتقل منه منذ مئات السنين وهو فخور بذلك كل الفخر، لكنه لم يلتقِ مطلقًا ببقرة

البحر، ولا عثر على الجزيرة التى يحلم بها. إذا وجد شاطئًا جيدًا وأرضيته صلبة وخلفه منحدر صالح لعجول البحر لتلعب فيه، فهناك دائمًا الدخان الصادر عن سفن صيد الحيتان يملأ الأفق، ويتصاعد منها بخار غليان الدهون، وكان كوتيك يدرك معنى هذا.. أو يجد جزيرة زارتها عجول البحر ذات مرة ولقيت حتفها هناك (بسبب البشر)، بينما كوتيك يدرك أيضًا أن الآدميين إذا ذهبوا إلى مكان مرة فإنهم يعودون إليه مرات أخرى.

تعرف على طائر الباتروس ذى الذيل القصير الممتلئ بالريش، قال له إن جزيرة "كيرجولين" هى المكان الذى يسوده السلام والهدوء. وعندما ذهب كوتيك إلى تلك الجزيرة كاد يتمزق قطعًا عندما اصطدم ببعض المنحدرات السوداء الحادة أثناء عاصفة جليدية شديدة مصحوبة بالبرق والرعد. ومع ذلك عندما سحب نفسه على موجة متكسرة رأى مكانًا أقامت فيه عجول البحر ذات مرة. وهذا ما حدث له فى كل الجزر التى زارها.

قدم ليمرشين قائمة طويلة بأسماء تلك الجزر؛ لأنه قال إن كوتيك أمضى خمسة مواسم يستكشف، ولم يرتح أكثر من أربعة أشهر كل عام يقضيها فى نوفاستوشنا، حيث اعتاد أحداث عجول البحر أن يسخروا منه ومن الجزر التى يتصورها فى خياله. ذهب إلى "جالاباجوس"، وهو مكان جاف بشع عند خط الاستواء، وهناك كاد يلقى حتفه من شدة الحرارة. ذهب كذلك إلى جزر جورجيا، والأوركنيز، وجزيرة الزمرد، وجزيرة العندليب الصغير وجزيرة

المظفار، وجزر الكروزيت، وحتى البقعة الصغيرة فى جزيرة جنوب الأراضى الداخلة فى البحر عند رأس الرجاء الصالح. لكن فى كل مكان كان أهل البحر يقولون له نفس الشىء: إن عجول البحر قد أتت ذات يوم إلى تلك الجزر، لكن البشر قضوا عليها تمامًا. حتى حين سبح آلاف الأميال خارج المحيط الهادئ ووصل إلى مكان يسمى كاب كورريانتس (حدث ذلك أثناء عودته من جزيرة المظفار)، وجد فى طريقه عدة مئات من عجول البحر المصابة بالجرب يقيمون فوق صخرة، وأخبروه أن البشر وصلوا إلى ذلك المكان أيضًا، مما كاد يحطم قلبه. ودار حول قمة الجبل عائدًا إلى شواطئه، وفى طريقه نحو الشمال سبح بجهد كبير لشدة تعبه ليصل إلى جزيرة مليئة بالأشجار الخضراء، وجد فيها عجل بحر عجوزًا جدًا يحتضر، فاصطاد له كوتيك سمكة ليأكلها وحكى عن كل محاولاته وفشله. قال كوتيك: "والآن أنا عائد إلى جزيرة نوفاستوشنا، ويومًا ما سأساق إلى أرض قتل عجول البحر مع الأحداث بلا مبالاة".

قال عجل البحر العجوز: "حاول مرة واحدة أخرى. أنا آخر واحد من قومى المفقودين فى "ماس أفويرا"، وفى تلك الأيام حين قتل الآدميون مئات الآلاف من عجول البحر، سرت قصة على الشواطئ أنه يومًا ما سيأتى عجل بحر أبيض قادمًا من الشمال، ويقود عجول البحر إلى مكان آمن. أنا عجوز، ولن أعيش حتى أرى ذلك اليوم، لكن غيرى سيراه. حاول مرة أخرى".

فتل كوتيك شاربه (كان شاربًا جميلاً) وقال: "أنا عجل البحر الوحيد الأبيض، ولم يولد من قبل عجل بحر أبيض غيرى على كل الشواطئ، وأنا عجل البحر الوحيد، سواء أسود أو أبيض، الذى فكر فى البحث عن جزر جديدة".

أسعده ذلك سعادة بالغة، وحين عاد إلى نوفاستوشنا ذلك الصيف، توسلت إليه أمه ماتكا أن يتزوج ويستقر، لأنه لم يعد حدثًا بل نضج وأصبح عجل بحر كبيرًا، على كتفيه شعر أبيض مجعد، كثيف، وطويل مثل والده. قال لها: "امنحينى موسمًا آخر.. وتذكرى يا أمى، الموجة السابعة هى دائمًا التى تبتعد أكثر عن الشاطئ".

ومما يثير الفضول أنه كانت هناك أنثى من عجول البحر، فكرت بأن عليها أن تنتظر عامًا آخر حتى يتم زواجها، ورقص معها كوتيك رقصة النار على شواطئ لوكانون طوال الليل قبل أن يغادر المكان ماضيًا لينجز آخر استكشاف قرر أن يقوم به. هذه المرة رحل متجهًا إلى الشرق، لأنه سبق وفشل فى محاولاته فى المياه الضحلة فى المكان المتسع الذى يسكنه سمك الهلبوت، وكان بحاجة على الأقل لمائة رطل من السمك يأكلها كل يوم ليبقى فى حالة صحية جيدة. ظل يصطاد حتى نال منه التعب والإنهاك، عندئذ التف حول نفسه ونام فى أحد التجاويف التى صنعتها الأمواج فى الأرض على جزيرة النحاس. كان يعرف ذلك الشاطئ حق المعرفة، لذلك قرب منتصف الليل، حين شعر بنفسه يصطدم صدمة طفيفة بالأعشاب، قال: "هممم، المد سيكون شديدًا هذه الليلة". والتفت إلى أسفل نحو الماء

وهو يفتح عينيه ببطء ويتمطى. ثم قفز كالقطة لأنه رأى أشكالاً ضخمة تمد أنوفها حوله فى الماء الضحل وتستطلع المكان من بين الأعشاب.

قال من تحت شواربه: "بحق أمواج ماجلان الطويلة المتكسرة! من هنا فى المياه العميقة؟".

لم تكن تلك الكائنات تشبه حيوان فيل البحر، ولا أسود البحر، ولا عجول البحر، ولا الدببة، ولا الحيتان، ولا سمك القرش، ولا الأسماك العادية، ولا الحبار، ولا محار الأسقلوب الذى رآه كوتيك من قبل. كان طولها بين عشرين وثلاثين قدمًا، وليس لها زعانف خلفية، لكن لها ذيل شبيه بـ"الجاروف" يبدو كما لو كان قد تم نحته من جلد مبتل. أما رؤوسها فكان منظرها أغبى شىء رأيته فى حياتك، وهى تقيم توازنها بطرف ذيلها فى المياه العميقة عندما لا تأكل، وتنحنى بوقار لبعضها بعضًا ملوحة بزعانفها الأمامية كما يلوح رجل بدين بذراعه.

قال كوتيك: "إحم ! صيد جيد، أيها السادة النبلاء؟"، أجابت تلك الكائنات الضخمة على تحيته بالانحناء والتلويح بزعانفها مثل الغطاسين. حين بدأوا يأكلون مرة أخرى رأى كوتيك شفاههم العليا مشقوقة إلى جزأين، ويمكنهم أن يبعدوا الجزأين عن بعضهما مسافة قدم، ثم يعود الجزآن ليجتمعا معًا وقد جذبا من أعشاب البحر كمية هائلة بين الشقين. ثم تلقى بالطعام داخل أفواهها وتمضغ ببطء.

قال كوتيك: "أسلوب أكل غير منظم وقذر". انحنت له مرة أخرى، فبدأ كوتيك يفقد أعصابه. قال: "عظيم جداً، إذا كان لديكم مفصل زائد فى زعانفكم الأمامية لا داعى لاستعراضه. لقد رأيتكم تنحنون برشاقة، لكننى أرغب فى أن أعرف أسماءكم." تحركت الشفاه المشقوقة وامتدت للأمام، وحملقت العيون الخضراء الزجاجية، لكنهم لم ينطقوا بحرف.

قال كوتيك: "رائع! أنتم القوم الوحيدون الذين رأيتهم أقبح من سيفيتش - وأيضًا الأسوأ أخلاقًا".

عندئذٍ تذكر كومضة برقت فى ذهنه الصرخة التى صرخها فى وجهه عمدة طيور النورس، عندما كان صغيرًا عمره سنة واحدة فى جزيرة فيل البحر الصغيرة، فهرول باضطراب متراجعًا فى الماء، لأنه أدرك أنه أخيراً عثر على بقرة البحر! استمرت أبقار البحر تأكل وتمضغ فى العشب، وراح كوتيك يلقى عليها الأسئلة بكل اللغات التى تعلمها فى رحلاته، وبالطبع أهل البحر يتحدثون لغات عديدة مثل البشر. لكن أبقار البحر لم ترد عليه، لأنها لا تستطيع الكلام. كان لها ست فقرات فى الرقبة فى حين المفترض أن يكون لها سبع، ويقولون تحت البحر إن هذا سبب عدم مقدرتها على الكلام حتى مع رفاقها، لكن كما تعلم، لبقر البحر شق زائد فى الزعنفة الأمامية، وعن طريق تلويحهم بها لأعلى وأسفل يعبرون عما يريدون قوله كنوع من الشفرة التلغرافية البدائية.

عندما بزغ ضوء النهار كان شعر عنق كوتيك قد انتصب حتى أطرافه، وقد بلغ به الغضب مبلغًا عظيمًا. ثم بدأت أبقار البحر

تسافر متجهة شمالاً ببطء شديد، وتتوقف بين وقت وآخر لتتبادل انحناءات عبثية لا معنى لها، وتبعها كوتيك قائلاً لنفسه: "إن قوماً بهذا الحمق كان لا بد أن يلقوا حتفهم ويُقضَى عليهم تماماً لو لم يكونوا قد وجدوا جزيرة ما آمنة، والمكان الذى يناسب أبقار البحر مكان يناسب السيكاتش، كلهم متشابهون. أتمنى أن يسرعوا أكثر من ذلك".

كان عملاً مضجراً لكوتيك، فقطيع أبقار البحر لا يسبح أكثر من أربعين أو خمسين ميلاً فى اليوم، ويتوقفون ليأكلوا فى الليل، ويظلون على مقربة من الشواطئ طوال الوقت، بينما كوتيك يسبح حولهم، وفوقهم، وتحتهم، لكنه لم يستطع أن يجعلهم يسرعون ميلاً واحداً. عندما أوغلوا فى الشمال كانوا يتبادلون الإشارات الانحنائية كل بضع ساعات، وكاد كوتيك أن يعض شواربه من نفاد صبره حتى رآهم يتبعون تيار ماء دافئاً، عندئذٍ شعر بالاحترام والتقدير نحوهم أكثر من ذى قبل. ذات ليلة غطسوا فى الماء الصافى - غطسوا مثل الحصى - وللمرة الأولى منذ تعرف عليهم بدأوا يسبحون بسرعة. تبعهم كوتيك، وقد أذهلته سرعتهم لأنه لم يحلم مطلقاً بأن يرى قوم أبقار البحر سباحين بهذه المهارة. اتجهوا نحو جرف بارز على الشاطئ، جرف يمتد فى أعماق الماء، وقذفوا بأنفسهم فى فتحة مظلمة فى سفح هذا الجرف تقع تحت سطح البحر بحوالى مائة وعشرين قدماً. كانت سباحة طويلة جداً، وشعر كوتيك بحاجة شديدة للهواء الطلق قبل أن يخرج من ذلك النفق المظلم الذى قادوه من خلاله.

عندما صعد إلى سطح الماء فى الجانب الأبعد وهو يلهث وينفخ قال: "يا إلهى! لقد كان غطسًا طويلاً، لكن الأمر يستحق".

تفرقت أبقار البحر واستلقت لتنام فى كسل بطول حواف أجمل شواطئ رآها كوتيك فى حياته. كانت هناك امتدادات شاسعة من الأرض الصخرية الملساء تمتد أميالاً وأميالاً، مناسبة تمامًا لإقامة عجول البحر، وكانت هناك كذلك مساحات من الرمال الخشنة المنحدرة متجهة إلى داخل الجزيرة صالحة للعب القطيع، وراء تلك الأرض الصخرية الملساء، وكانت هناك أمواج طويلة صالحة لرقص عجول البحر عليها، وأعشاب طويلة يلتفون فيها، وتلال رملية يتسلقونها صعودًا وهبوطًا، وأفضل ما فى ذلك كله ما أدركه كوتيك من لمسته للماء وشعوره به، التى لم تخدعه قط، أن هذا المكان لم تطأه قدم بشرى إطلاقًا. أول شىء فعله أن تأكد أن المكان به صيد جيد، ثم سبح على امتداد الشواطئ وراح يحصى الجزر الرملية المنخفضة المبهجة، التى يختفى جزء منها فى الضباب الجميل الملتف حول المكان. بعيدًا إلى الشمال، على الشاطئ خارج المياه، كان هناك صف من الحواجز والصخور والمياه الضحلة التى لا يمكن أن تسمح، بأى حال، باقتراب سفينة لمسافة ستة أميال من الشاطئ. وبين الجزر والأرض الرئيسية هناك امتداد من الماء العميق الذى يرتفع حتى الجروف شديدة الانحدار والرأسية. وفى مكان ما أسفل تلك الجروف توجد فتحة النفق.

قال كوتيك محدثًا نفسه: "إنها نوفاستوشنا مرة أخرى، لكن بشكل أفضل عشر مرات. إن أبقار البحر أكثر حكمة مما كنت

أظن. البشر لا يستطيعون الدخول أسفل الجروف، أيًّا كانوا، فالمياه الضحلة المتصلة بالبحر ستحطم أية سفينة إلى شظايا. لو كان هناك مكان آمن فى البحر فهو هذا المكان". بدأ يفكر فى عِجْلة البحر التى تنتظر عودته، لكن على الرغم من أنه كان يستعجل العودة إلى نوفاستوشنا، فقد بذل جهدًا غير عادى فى استطلاع الوطن الجديد واستكشافه، حتى يكون قادرًا على إجابة كل ما سيُطرح عليه من أسئلة.

ثم غطس وتأكد من فتحة النفق، وأسرع بالعدو من خلاله متجهًا جنوبًا. لم يحلم أى كائن بمثل هذا المكان إلا بقرة بحر أو عجل بحر، وحين نظر خلفه متطلعًا إلى الجروف.. لم يكن حتى كوتيك نفسه يصدق أنه قد ذهب إلى ذلك المكان بنفسه.

أمضى عشرة أيام سباحة فى الطريق إلى موطنه الأصلى، مع أنه لم يبطئ فى سباحته. وعندما وصل إلى جزيرة "رقبة أسد البحر" كان أول شخص قابله هو عجلة البحر التى تنتظره. أدركت من نظرة عينيه أنه عثر أخيرًا على جزيرته التى يحلم بها.

لكن الأحداث ووالده سيكاتش وكل عجول البحر الآخرين، سخروا منه حين أخبرهم باكتشافه، وقال عجل بحر شاب فى مثل عمره: "هذا شىء رائع يا كوتيك، لكن لا يمكنك أن تأتى من مكان لا يعرف عنه أحد شيئًا وتصدر إلينا الأوامر هكذا. تذكر أننا قاتلنا من أجل مكان إقّامتنا هنا، وهذا شىء لم تفعله أنت. كنت تفضل أن تتسكع فى البحر". ضحكت عجول البحر الأخرى على هذا، وبدأ

عجل البحر الشاب يلوى رأسه من جانب لآخر. كان قد تزوج لتوه ذلك العام، وكان يتباهى ويتفاخر بزواجه.

قال كوتيك: "ليس لدىّ مكان إقامة لأحارب من أجله، فقط أريدكم أن تروا جميعًا مكانًا ستكونون آمنين فيه. ما جدوى القتال؟".

قال عجل البحر الشاب وهو يضحك ضحكة خافتة قبيحة: "أوووه، إذا كنت تحاول التراجع، بالطبع ليس لدىّ المزيد لأقوله".

قال كوتيك وضوء أخضر يشع من عينيه، لأنه كان شديد الغضب أن يضطر أصلاً إلى القتال: "هل ستأتى معى إذا فزت؟".

قال عجل البحر بلا مبالاة: "رائع، إذا فزت، سآتى". لم يكن لديه وقت ليغير رأيه، لأن رأس كوتيك كان خارج الماء وأسنانه غارقة فى رقبة عجل البحر المنتفخة. ثم ألقى بنفسه للوراء على وركيه وألقى بخصمه على الشاطئ، ثم هزه وركله. بعدئذٍ زمجر كوتيك موجهًا حديثه إلى عجول البحر: "لقد بذلت أقصى ما فى وسعى من أجلكم خلال المواسم الخمسة الماضية، وعثرت لكم على الجزيرة التى ستكونون فيها آمنين. لكن إن لم تُسحَب رؤوسكم من فوق رقابكم الحمقاء لن تصدقوا. سأعلمكم الآن.. انتبهوا لأنفسكم!".

حكى لى ليمرشين أنه لم يرَ فى حياته - وليمرشين كان يرى كل عام عشرة آلاف عجل بحر كبير يتقاتلون - أنه لم يحدث مطلقًا فى حياته كلها أن رأى شيئًا مثل هجوم كوتيك على عجول البحر تلك المرة. لقد قذف بنفسه على أكبر سيكاتش وجده أمامه، وأمسك به

من حلقومه، وخنقه وصرعه وضربه بعنف حتى صرخ يطلب الرحمة، عندئذ ألقاه جانبًا وهاجم عجل البحر التالى. كما ترى، كوتيك لم يَصُم إطلاقًا الأربعة أشهر التى تصومها عجول البحر الكبيرة كل عام، وقد حافظت رحلات السباحة التى قضاها فى المياه العميقة على أن يكون فى حالة جيدة تمامًا، وأفضل من كل هذا أنه لم يقاتل من قبل. انتصب شعر عنقه الأبيض المجعد من فورة الغضب، وبرقت عيناه، وتلألأت أسنانه الكبيرة، وبدا للناظر متألقًا. رأى سيكاتش العجوز، والده، أن غضبه تجاوز الحد، فدفع عجول البحر بلونهم الرمادى بعيدًا عن ولده كما لو كانوا أسماك هلبوت، وأوقع العزاب الشباب فى كل اتجاه، وزمجر سيكاتش وصرخ قائلاً: "ربما يكون أحمق، لكنه أفضل محارب على الشواطئ! لا تمسك بأبيك يا ولدى! إنه فى صفك!".

زمجر كوتيك ردًا على ذلك، وتهادى سيكاتش فى مشيته وشواربه منتصبة حتى أطرافها وهو يزهو فى سيره مثل القاطرة، بينما ماتكا وعجلة البحر التى تنتظر زواجها من كوتيك انكمشتا وهما يشعران بالإعجاب برجليهما. كانت معركة عظيمة، لأنهما حاربا طالما بقى هناك عجل بحر لديه الجرأة على رفع رأسه. وعندما تأكدا أنه لم يعد هناك مِن عجول البحر مَن يستطيع قتالهما، راحا يقفزان إلى أعلى وأسفل فى عجب وغرور فوق كل مكان على الشاطئ، وهما يصيحان بصوت عالٍ.

فى الليل، تماماً عندما بدأت الأضواء القطبية تومض وتبرق من خلال الضباب، تسلق كوتيك صخرة بارزة للعيان ونظر إلى أسفل حيث عجول البحر المتناثرة تنزف الدماء من جراء المعركة السابقة وقال: "والآن، لقد علمتكم الدرس الذى تستحقونه".

قال سيكاتش العجوز: "يا شيبتى!" ورفع نفسه بقوة لأنه كان مصابًا بشكل مخيف: "إن الحوت القاتل نفسه لا يمكنه أن يصيبهم بأسوأ من ذلك يا ولدى.. أنا فخور بك، لكن الأكثر من ذلك، سآتى معك إلى جزيرتك - إذا كان يوجد مثل ذلك المكان".

قال كوتيك بصوت هادر: "أنتم يا معشر خنازير البحر البدينة، مَن منكم سيأتى معى إلى نفق أبقار البحر؟ أجيبونى وإلا سألقنكم الدرس مرة أخرى".

سرت دمدمة على الشواطئ فى كل مكان مثل صوت خرير المياه فى المد، وخرجت آلاف الأصوات المنهكة: "سنأتى.. سنتبع كوتيك عجل البحر الأبيض".

عندئذٍ أسقط كوتيك رأسه بين كتفيه وأغمض عينيه بفخر. لم يعد فى تلك اللحظة عجل البحر الأبيض، بل كان اللون الأحمر يغطيه من رأسه إلى ذيله. وشعر بأنه أكبر من أن يتطلع إلى جراحه ولا حتى أن يلمسها.

بعد أسبوع كان هو وجيشه (تقريبًا عشرة آلاف من الأحداث وعجول البحر العجوزة) يتجهون شمالاً نحو نفق أبقار البحر، يقودهم كوتيك. أما عجول البحر الذين ظلوا فى نوفاستوشنا،

فقالوا عنهم إنهم حمقى. لكن فى الربيع التالى، عندما التقى الجميع لدى ضفاف الصيد فى المحيط الهادئ، حكي عجول البحر الذين تبعوا كوتيك حكايات مذهلة عن الشواطئ الجديدة خلف نفق أبقار البحر، حتى إن المزيد والمزيد من عجول البحر تركوا نوفاستوشنا. بالطبع لم يفعل الجميع ذلك فى وقت واحد، لأن عجول البحر ليسوا أذكياء، ويحتاجون لوقت طويل ليقلِّبوا الأمور فى أذهانهم. لَكِنْ عامًا وراء عام، غادر المزيد من عجول البحر نوفاستوشنا، ولوكانون، وغيرهما من أماكن الإقامة القديمة، إلى الشواطئ الهادئة الآمنة التى يقضى كوتيك فيها الصيف كله، وهو ينمو ويكبر ويزداد بدانة وقوة كل عام، بينما الأحداث يلعبون حوله، فى ذلك البحر الذى لم تخْطُ عليه قدم بشر.

لوكانون

هذه أغنية البحر العميق الكبيرة التى يغنيها كل عجول البحر فى جزيرة سانت بول، حين يتجهون للعودة إلى شواطئهم فى الصيف. إنها نوع من الأغانى الوطنية الحزينة التى يغنيها عجول البحر:

التقيت برفاقي فى الصباح (ويا له من لقاء، لكنى عجوز!)

حيث الزئير قرب الشواطئ، تدور أمواج الصيف

سمعتهم يرفعون صوت "الكورس" الذى يحجب أغنية الأمواج المتكسرة

شواطئ لوكانون، مليونا صوت قوى

أغنية الأماكن السعيدة بجوار البحيرات المالحة،

أغنية الأسراب الطائرة التى تحط على تلال الرمال -

أغنية رقصات منتصف الليل التى تدفع الأمواج للتوهج -

شواطئ لوكانون ـ قبل مجىء صيادى عجول البحر!

التقيت برفاقى فى الصباح (لن ألقاهم بعد ذلك أبدًا!)

أتوا وذهبوا فى حشود أظلمت الشاطئ

لأبعد مسافة يمكن للصوت أن يصلها.

رحبنا بالأسراب القادمة وغنينا لهم على الشاطئ.

شواطئ لوكانون.. وقمح الشتاء طويل العيدان

القطرات المتساقطة من الأوراق المجعدة، وضباب البحر يبللان كل الأشياء!

مدرجات أرض الملاعب، مشعة وناعمة!

شواطئ لوكانون ـ وطننا حيث ولدنا!

التقيت برفاقى فى الصباح، محطمى القلوب ومشتتين،

الرجال يطلقون علينا الرصاص فى الماء، وعلى اليابسة يضربوننا.

يسوقنا الرجال نحو بيت الملح مثل خراف ساذجة وديعة،

ومع ذلك نغنى لشواطئ لوكانون ـ قبل أن يأتى صيادو عجول البحر.

استديروا، استديروا إلى الجنوب ـ أوه ، اذهبوا إلى جوفروسكا، اذهبوا!

وأخبروا نواب الملوك فى أعماق البحار عن قصة عذاباتنا،
قبل أن تندفع العاصفة نحو الشاطئ مثل بيضة سمك القرش،
شواطئ لوكانون لن تعرف أولادها بعد الآن!

ريكى - تيكى - تافى

فى الحفرة التى دخل فيها
نادى ذو العين الحمراء على ذى البشرة المجعدة
اسمع ما يقوله الصغير ذو العين الحمراء:
"ناج، هيا تعالَ وارقص مع الموت!"
العين فى العين والرأس يواجه الرأس
(حافظ على خطواتك يا ناج)
ستنتهى الرقصة بموت أحدنا
(بكل ترحيب يا ناج)
لفتة مقابل لفتة ولفة مقابل لفة
(اجرِ واختبئ يا ناج)
هاه! أخطأك الموت المتخفى!
(الويل لك يا ناج!)

هذه قصة الحرب الكبرى التى خاضها ريكى تيكى تافى بمفرده، عبر حمامات بيت البنجالو الكبير فى معسكر سيجولى. ساعده دارزى الطائر الخياط (طائر صغير يبنى عشه بخياطة أوراق الشجر بواسطة الألياف)، وشوكوندرا فأر المسك، الذى لا يخرج مطلقًا إلى وسط أرض الحجرة، لكنه يزحف دائمًا بجوار الحوائط، قدم له النصيحة، لكن ريكى تيكى قام بالقتال الحقيقى.

كان نمسًا يشبه القط الصغير فى شكل فرائه وذيله، ويشبه تمامًا ابن عرس فى شكل رأسه وعاداته. عيناه وطرف أنفه المتململ لونها وردى. يستطيع أن يهرش فى أى جزء يشاء بأية ساق، سواء ساقه الأمامية أو الخلفية، الأمر يعتمد على اختياره. يستطيع أن "ينفش" ذيله حتى يبدو كأنه فرشاة تنظيف الزجاجات، أما صيحة الحرب التى يطلقها حين يعدو بين الأعشاب الطويلة فكانت: "ريك - تيك - تيكى - تيكى - تك!".

ذات يوم، دفعه فيضان الصيف العالى خارج الجحر الذى يعيش فيه مع أبيه وأمه، وحمله، وهو يركل ويقرقر، عبر خندق على جانب الطريق. وجد حفنة صغيرة من العشب طافية، فتعلق بها حتى فَقَدَ وعيه. حين أفاق، وجد نفسه راقدًا فى الشمس الحارقة فى منتصف ممر حديقة، يغطيه الوحل، وولد صغير يقول: "لدينا نمس ميت.. هيا نقيم له جنازة".

قالت أمه: "لا، هاتِه هنا بالداخل وتعالَ نجففه. ربما لا يكون ميتًا بالفعل".

أخذوه داخل المنزل، والتقطه رجل ضخم بين أصابعه وقال إنه ليس ميتًا بل كاد يختنق من الماء. لذا لَفُّوه فى قطعة من القطن الطبى، وأدفؤوه قرب مدفأة صغيرة، بعدئذٍ فتح عينيه وعطس.

قال الرجل الضخم (كان رجلاً إنجليزيًا انتقل حديثًا للسكنى فى البنجالو): "الآن لا تخيفوه، وسنرى ماذا سيفعل".

أصعب شىء فى العالم أن تخيف نمسًا، لأن الفضول يأكله من أنفه حتى ذيله. شعار عائلات النمس كلها هو "اجرِ واكتشف"، وريكى ـ تيكى كان نمسًا حقيقيًا. نظر إلى قطعة القطن الطبى، وقرر أنها ليست صالحة للأكل. جرى حول المائدة، ثم جلس ورَتَّب فراءه، بعدها هرش، وقفز على كتف الصبى الصغير.

قال والده: "لا تخف ياتيدى.. إنها طريقته لإقامة صداقات جديدة".

قال تيدى: "أوووش! إنه يداعبنى أسفل ذقنى".

نظر ريكى تيكى إلى أسفل بين ياقة قميص الصبى ورقبته، وتَشممَّه من أذنه، ثم قفز على الأرض، حيث جلس يحك أنفه.

قالت والدة تيدى: "يا الله، هذا المخلوق المتوحش! أظن أنه وديع معنا لأننا نعامله بلطف".

قال زوجها: "كل النموس هكذا، إذا لم يمسك به تيدى من ذيله، أو يحاول وضعه فى قفص، سيجرى هنا وهناك فى أرجاء البيت طول النهار. قدموا له شيئًا ليأكله".

قدموا له قطعة صغيرة من اللحم النيء. ريكى تيكى أحبها بجنون، وعندما أتى عليها خرج إلى الشرفة وجلس تحت أشعة الشمس ونَفَشَ فراءه ليجففه من جذوره. وهكذا شعر بتحسن.

قال لنفسه: "هناك المزيد من الأشياء علىّ أن أكتشفها فى هذا المنزل، أكثر مما اكتشف أفراد عائلتى فى كل حياتهم. مؤكد أننى سأظل هنا وأكتشف".

قضى طوال اليوم يطوف بالبيت حتى كاد يُغرق نفسه فى المغطس (البانيو). وضع أنفه فى الحبر على منضدة الكتابة، وأحرق طرف أنفه بسيجار الرجل الضخم، لأنه تسلق ساقى الرجل الضخم ليرى كيف تتم عملية الكتابة. عند المساء جرى إلى حجرة تيدى ليراقب إشعال مصابيح الكيروسين، وحين ذهب تيدى إلى فراشه تسلق ريكى- تيكى الفراش. لكنه كان رفيقًا متململاً، لأنه كان يضطر للنهوض والتنصت لكل صوت يسمعه فى الليل، ويحاول اكتشاف مصدره. دخل والد تيدى ووالدته الحجرة. كان آخر شىء يفعلانه هو الاطمئنان على ابنهما، وكان ريكى - تيكى مستيقظًا فوق الوسادة. قالت والدة تيدى: "لا يعجبنى ذلك، ربما يعض الولد". قال الوالد: "لن يفعل مثل هذه الأمور، تيدى فى أمان مع هذا الحيوان الصغير أكثر مما لو كان لديه كلب ضخم يحرسه. لو أن ثعبانًا دخل إلى حجرة تيدى الآن.. ..".

لكن والدة تيدى لم تحب التفكير فى أشياء مرعبة بهذا الشكل.

فى الصباح الباكر خرج ريكي - تيكي إلى طعام الإفطار فى الشرفة وهو على كتف تيدى، وأعطوه بعض الموز والبيض المسلوق، وجلس على حِجْر كل واحد منهم واحدًا بعد الآخر، لأن كل نمس تربى تربية صالحة يأمل دائمًا فى أن ينتمى لمنزل يومًا ما ويكون لديه حجرات يجرى فيها، ووالدة ريكى - تيكى (اعتادت أن تقيم فى منزل الجنرال فى سيجولى) اهتمت بأن تُعَلِّم ريكى ما يجب أن يفعله إذا التقى فى أى وقت بأصحاب البشرة البيضاء.

ثم خرج ريكى - تيكى إلى الحديقة ليرى ما الذى يمكن رؤيته هناك. كانت حديقة كبيرة، نصفها فقط مزروع بالأشجار الصغيرة، مثل البيوت الصيفية، بها جزء كبير من زهور "المارشال نايل"، والليمون، وأشجار البرتقال، وسيقان البامبو، والعشب الطويل الذى يغطى الأرض. لعق ريكى - تيكى شفتيه وقال: "إنها أرض رائعة للصيد"، ونفش ذيله مثل فرشاة تنظيف الزجاجة عندما فكر فى ذلك، وأخذ يعدو فى الحديقة ذهابًا وعودة، يتشمم كل شىء يصادفه هنا وهناك، حتى سمع أصواتًا حزينة قادمة من بين أيكة أشجار شائكة. كان صوت دارزى الطائر الخياط وزوجته. كانا قد صنعا عشًا جميلاً بسحب ورقتين كبيرتين من أوراق الأشجار معًا وحياكتهما من حوافهما بنسيج ليفى، وقاما بملء الفراغ بالقطن والزغب الناعم. تأرجح العش للأمام والخلف، فجلسا على حافته وأخذا يبكيان.

سأل ريكى - تيكى: "ماذا حدث؟".

قال دارزى: "نحن بائسون. أحد صغارنا سقط من العش أمس وأكله ناج".

قال ريكى - تيكى: "إحم! ذاك شىء مؤسف جداً - لكنى غريب هنا، من هو ناج ؟".

لم يكن من دارزى وزوجته أن فعلا شيئًا سوى الانكماش داخل العش دون إجابة، لأنه من العشب الكثيف أسفل الشجرة صدر هسيس منخفض - صوت بارد مروع جعل ريكى - تيكى يقفز مسافة قدمين للخلف. ثم بوصة بوصة راح رأس ناج ثعبان الكوبرا الأسود الكبير يخرج من بين الأعشاب، وبسط ما يشبه غطاء رأسه. كان طوله خمس أقدام بداية من لسانه وحتى نهاية ذيله. وعندما رفع ثلث طول جسمه عن الأرض راح يوازن نفسه للأمام والخلف تمامًا مثل زهرة الهندباء البرية عندما توازن نفسها فى الريح، ونظر إلى ريكى - تيكى بعينيه الثعبانيتين الشريرتين اللتين لا يتغير تعبيرهما أبدًا، مهما يكن ما يفكر فيه الثعبان.

قال: "من ناج؟! أنا ناج. الإله الكبير براهما وضع علامته على كل شعبنا، عندما بسط أول ثعبان كوبرا غطاء رأسه ليحجب الشمس عن براهما وهو نائم. هيا انظر واشعر بالخوف!".

بسط غطاء رأسه أكثر من ذى قبل. ورأى ريكى - تيكى العلامة المستديرة على ظهره والتى تشبه عينى مشبك الملابس. شعر بالخوف لوهلة، لكن من المستحيل على النمس أن يظل خائفًا لمدة طويلة. وعلى الرغم من أن ريكى - تيكى لم يرَ فى حياته ثعبان كوبرا

حيًا من قبل، فإن أمه أطعمته من ثعابين الكوبرا الميتة، وهو يعرف جيدًا أن الشغل الشاغل لكل حيوانات النمس عندما تكبر هو أن تقاتل الثعابين وتأكلها. وناج يعرف ذلك أيضًا، وفى أعماق قلبه البارد كان يشعر بالخوف.

قال ريكى ـ تيكى: "حسنًا"، وبدأ ذيله ينتفش مرة أخرى: "علامات أو لا علامات، هل تعتقد أنه من الصواب أن تأكل طائرًا صغيرًا سقط من عشه؟"

كان ناج يفكر فى نفسه، ويراقب أقل حركة فى العشب وراء ريكى ـ تيكى. فهو يعرف أن وجود نمس فى الحديقة معناه الموت عاجلاً أم آجلاً له ولعائلته، لكنه أراد أن يأخذ ريكى ـ تيكى على حين غرة، لذلك مال برأسه قليلاً ووضعها على أحد جانبيه.

قال: "دعنا نتفاهم، أنت تأكل البيض، لماذا لا آكل أنا الطيور؟".

قال دارزى مغردًا: "وراءك ! انظر وراءك!".

أدرك ريكى ـ تيكى أن هناك ما هو أفضل من إضاعة الوقت فى الحملقة. قفز فى الهواء بأقصى ارتفاع استطاعه، وتحته تمامًا هسيس رأس ناجينا زوجة ناج الشريرة. لقد زحفت خلفه أثناء كلامه، لتقتله، وقد سمع هسيسها المتوحش وهو يفلت من ضربتها. اندفع وهو يقفز عبر ظهرها، ولو كان نمسًا كبيرًا لعرف أنه الوقت المناسب لكسر ظهرها بعضة واحدة، لكنه كان خائفًا أن تفاجئه الكوبرا وتحاول ضربه مرة أخرى ضربتها المرعبة. لقد عضها بالفعل، لكنه لم يعضّ بالسرعة التى يستلزمها الأثر الحاسم للعض،

وقفز بعيدًا عن الذيل الذى يضرب بخفة ورشاقة، تاركًا ناجينا مخدوشة وغاضبة.

قال ناج: "شرير، دارزى شريرا"، وراح يضرب بذيله لأعلى ارتفاع يستطيع الوصول إليه فى اتجاه العش فوق الشجرة الشائكة، لكن عش دارزى الذى كان فى مكان أعلى من أن تصل إليه الثعابين، تأرجح فقط للأمام والخلف.

شعر ريكى ـ تيكى بالحرارة والاحمرار فى عينيه (عندما تحمر عينا النمس فهذه علامة على أنه غاضب)، وجلس على ذيله وساقيه الخلفيتين مثل كانجارو صغير، وتطلع حوله، وثرثر غاضبًا. لكن ناج وناجينا اختفيا فى الأعشاب. عندما تفشل حية فى ضربتها لا تتكلم مطلقًا ولا تبدى أية علامة على ما تنوى أن تفعل بعد ذلك. لم يهتم ريكى ـ تيكى بأن يتبعهما، لأنه لم يكن واثقًا من قدرته على القضاء على ثعبانين مرة واحدة، لذلك هرول إلى ممر الحصى قرب المنزل وجلس يفكر. كانت تجربة مهمة بالنسبة له. لو قرأت الكتب القديمة فى التاريخ الطبيعى، ستجدهم يقولون إن النمس عندما يقاتل ثعبانًا ويصاب بِعَضَّة يجرى ويأكل بعض الأعشاب الطبية التى تشفيه. لكن هذا ليس صحيحًا. فالنصر ينحصر فقط فى سرعة العين وسرعة القدم.. ضربة الثعبان مقابل انقضاض النمس، ولأنه لا تستطيع عين أن تتتبع حركة رأس الثعبان حين يضرب، فإن ذلك يجعل الأمور أروع من أى أعشاب سحرية. كان ريكى ـ تيكى يعرف أنه نمس صغير، وهذا جعله شديد السعادة

عندما فكر أنه قد استطاع الإفلات من ضربة من وراء ظهره، كما منحه ذلك الثقة فى نفسه. وعندما أتى تيدى يجرى فى الممر، كان ريكى - تيكى على أتم استعداد ليتلقى منه التدليل. لكن فى اللحظة التى انحنى فيها تيدى ليلتقطه، تلوى قليلاً شىء ما متسللاً فى التراب، وقال صوت ضعيف: "احترس.. أنا الموت". كان هذا صوت كاريت، الثعبان البنى المعفر الذى يحب البقاء فى الأرض المتربة، وعضته فى خطورة عضة الكوبرا، لكنه شديد الصغر فى حجمه - لدرجة لا تجعل أحدًا يفكر فيه أو يلتفت إليه، لذا فهو يشكل خطورة شديدة على البشر.

احمرت عينا ريكى - تيكى مرة أخرى، ووثب فوق كاريت وهو يتأرجح ويهتز بشكل غريب، فى حركة متمايلة ورثها عن عائلته. تبدو حركة مضحكة، لكنها تعطيه التوازن المثالى فى وثبته وتمكنه من الطيران إلى أى اتجاه يشاء، وفى التعامل مع الثعابين تعد ميزة. فقط لو علم ريكى - تيكى أنه يقوم الآن بعمل أكثر خطورة من قتال ناج، لأن كاريت شديد الضآلة، ويمكنه التحرك بسرعة بالغة، فإن لم يعضه ريكى قرب مؤخرة رأسه، فإنه سيتلقى منه ضربة فى عينه أو شفته. لكن ريكى لم يكن يعلم ذلك. كانت عيناه شديدتى الاحمرار، وهو يتحرك حركة سريعة للوراء والأمام، بحثًا عن مكان مناسب للإمساك بخصمه. اندفع كاريت نحوه، فقفز ريكى جانبًا وحاول الابتعاد، لكن الرأس الرمادى المعفر الشرير الصغير اندفع بعنف فاصطدم بجزء من كتفه، فاضطر ريكى أن يقفز فوق خصمه، بينما الرأس يتبع أطرافه.

صاح تيدى موجهًا كلامه إلى أهل المنزل: "أوه، انظروا هنا! نمسنا يقتل ثعبانًا". وسمع ريكى ـ تيكى صرخة من والدة تيدى. خرج والده جريًا ومعه عصا، لكن فى الوقت الذى وصل فيه، كان كاريت قد اندفع مرة واحدة لمسافة طويلة، واضطر ريكى ـ تيكى أن يتراجع قافزًا على ظهر الثعبان، وأسقط رأسه بين ساقيه الأماميتين، وعضه فى ظهره بأقصى ما يستطيع من قوة، وانتقل مبتعدًا. تلك العضة شلت كاريت، وأوشك ريكى ـ تيكى أن يبدأ فى أكله من الذيل، تبعًا لعادة عائلته فى تناول العشاء، حين تذكر أن الوجبة الدسمة تجعل النمس كسولاً وبطيئًا، وإذا كان يرغب فى الحفاظ على طاقته وسرعته عليه أن يحافظ على نفسه نحيلاً، فذهب مبتعدًا ليحظى بحمام من التراب تحت أشجار الخروع، بينما كان والد تيدى يضرب جثة كاريت. فكر ريكى ـ تيكى بينه وبين نفسه قائلا: "ما فائدة ذلك؟ لقد قضيت عليه تمامًا". عندئذ تقدمت والدة تيدى وحملته من التراب وعانقته وهى تبكى قائلة إنه أنقذ تيدى من الموت، وقال والد تيدى إنها العناية الإلهية، أما تيدى فنظر بعينين متسعتين يملؤهما الخوف. كان ريكى ـ تيكى مبتهجًا بكل هذه الضجة، التى لم يفهمها بالطبع. وراحت والدة تيدى تربت على تيدى وتمنعه من اللعب فى التراب. أما ريكى فكان مستمتعًا لأقصى درجة.

تلك الليلة أثناء العشاء، أخذ ريكى يتنقل بين كؤوس النبيذ على المائدة، وكان فى استطاعته حشر معدته بالطعام اللذيذ ثلاثة أضعاف الوجبة المعتادة. لكنه تذكر ناج وناجينا، وعلى الرغم من أنه

كان سعيدًا جدًا بالتدليل الذى حظى به، خاصة تدليل والدة تيدى له، والجلوس على كتف تيدى، فإن عينيه كانتا تحمران بين وقت وآخر، ويطلق صيحة الحرب الطويلة: "ريك - تيك - تيكى - تيكى - تك".

حمل تيدى ريكى - تيكى وذهب به إلى الفراش، وأصر أن ينام تحت ذقنه. كان ريكى - تيكى قد أُحسِنَت تربيته لدرجة تمنعه من العض أو الخربشة، لكن بمجرد أن استغرق تيدى فى النوم قام وخرج فى جولته الليلية حول المنزل. وفى الظلام ذهب إلى "شوكوندرا" فأر المسك الذى يزحف بجوار الحوائط. شوكوندرا حيوان صغير حزين القلب، يظل طوال الليل ينشج ويسقسق، محاولاً أن يقنع نفسه بالجرى إلى وسط الحجرة، لكنه لا يفعل ذلك أبدًا.

قال شوكوندرا وهو تقريبًا يبكى: "لا تقتلنى، ريكى- تيكى، أرجوك لا تقتلنى!".

قال ريكى تيكى باستعلاء: "هل تعتقد أن قاتل الثعابين يقتل فأرًا؟"

قال شوكوندرا، وهو حزين أكثر مما سبق: "الذين يَقتلون الثعابين يُقتلون بالثعابين، وكيف لى أن أتأكد أن ناج لن يخطئنى ويظننى أنت فى ليلة مظلمة؟".

قال ريكى - تيكى: "ليس هناك خطر يُذكر، لأن ناج فى الحديقة، وأنا أعرف أنك لا تذهب هناك".

قال شوكوندرا: " أخبرنى ابن عمى الفأر شوا ..." ثم توقف عن الكلام.

"بماذا أخبرك ؟".

"صه! ناج فى كل مكان، يا ريكى - تيكى. كان عليك أن تتحدث مع شوا فى الحديقة".

"ولكنى لم أتحدث معه، لذلك يجب أن تخبرنى بسرعة يا شوكوندرا، وإلا سأعضك!".

جلس شوكوندرا وأخذ يبكى حتى بللت الدموع شواربه وقال وهو ينشج: "أنا شخص مسكين جدًا، لم يكن عندى مطلقًا شجاعة كافية لأن أجرى إلى وسط الحجرة. صه! لا يمكننى أن أقول لك أى شىء. ألا تسمع ياريكى - تيكى؟".

أصاخ ريكى - تيكى السمع. كان البيت يغرق فى سكون وصمت، لكنه تمنى لو يستطيع فقط أن يسمع الصرير الخافت والأكثر خفوتًا فى العالم... كان الصوت ضعيفًا شبيهًا بحشرة تسير على زجاج نافذة... كان ذلك الحفيف يصدر عن قشور جلد ثعبان يحتك بالطوب.

قال لنفسه: "ذاك قد يكون ناج أو ناجينا، وهو يزحف نحو أنابيب الصرف فى الحمام. أنت على حق يا شوكوندرا.. كان لا بد أن أتحدث مع شوا".

تسلل إلى حمام حجرة تيدى، لكنه لم يجد شيئًا هناك. ثم ذهب إلى حمام حجرة والدة تيدى، حيث توجد أسفل حائط الجص الأملس طوبة منتزعة لمرور أنابيب الصرف، وبينما كان ريكى - تيكى يتسلل إلى المكان الذى يوجد به المغطس (البانيو)، سمع ناج وناجينا يتهامسان معًا بالخارج فى ضوء القمر.

قالت ناجينا لزوجها: "عندما يخلو البيت من الناس، سيبتعد من هنا، وعندئذٍ ستصبح الحديقة لنا من جديد. هيا ادخل بهدوء، وتذكر أن الرجل الضخم الذى قتل كاريت هو أول شخص تعضه. ثم اخرج وأخبِرْنى، وسنطارد ريكى - تيكى معًا".

قال ناج: "هل أنت واثقة من أننا سنكسب أى شىء لو قتلنا هؤلاء الأشخاص؟".

"سنكسب كل شىء. عندما كان البنجالو خاليًا من الناس، هل كان هناك أى نمس فى الحديقة؟ لذا طالما بقى البنجالو خاليًا من الناس، سنكون أنا وأنت ملكة وملك الحديقة. وتذكر أنه بمجرد فقس بيضنا فى حقل البطيخ (وقد يحدث هذا غدًا) سيحتاج أطفالنا إلى مأوى وهدوء".

قال ناج: "لم أفكر فى ذلك ، سأذهب، لكن على أى حال لا داعى لمطاردة ريكى - تيكى بعد ذلك. سأقتل الرجل الضخم وزوجته، والطفل أيضًا لو استطعت، ثم نمضى مبتعدين فى هدوء. عندئذٍ سيصبح البنجالو خاليًا، وهكذا يبتعد ريكى - تيكى عن هنا".

شعر ريكى ـ تيكى بوخز فى جسده بسبب الغضب وبسبب كرهه لما سمعه، ثم ظهر رأس ناج من فتحة أنبوب الصرف، وتبعه جسده البارد بطوله الذى يبلغ خمس أقدام. بنفس درجة الغضب كان ريكى- تيكى أيضًا خائفًا حين رأى ضخامة حجم الكوبرا. لف ناج جسده، ورفع رأسه، وتطلع فى الحمام فى الظلام، واستطاع ريكى أن يرى عينيه تلمعان.

قال ريكى تيكى محدثًا نفسه: "والآن، لو قتلته هنا ستعرف ناجينا، ولو قاتلته على أرضية الحمام الفسيحة ستكون الظروف فى صالحه.. ماذا أفعل؟"

تمايل ناج للأمام والخلف، ثم سمعه ريكى- تيكى يشرب من أكبر إناء ماء والذى كان يستخدم لملء الحمام. قال الثعبان: "هذا لطيف، والآن حين قتل كاريت، كان لدى الرجل الضخم عصا. ربما لا يزال يحتفظ بالعصا، لكن حين يدخل إلى الحمام فى الصباح ليأخذ حمامه لن تكون معه العصا، سأنتظر هنا حتى يأتى. ناجينا ـ هل تسمعيننى؟ سأنتظر هنا فى هذا المكان المعتدل الحرارة حتى الصباح".

لم تأتِ أية إجابة من الخارج، فعلم ريكى ـ تيكى أن ناجينا قد ابتعدت عن المكان. لف ناج نفسه، لفة ثم لفة أخرى، حول الأنبوب المتصل بقاعدة إناء الماء. وظل ريكى ـ تيكى ساكنًا كالموت، وبعد ساعة بدأ يتحرك، عضلة عضلة، صوب إناء الماء. كان ناج نائمًا، ونظر ريكى ـ تيكى إلى ظهره الكبير وهو يتساءل أى جزء هو

الأفضل للإمساك به. قال ريكى :"إن لم أكسر ظهره من أول قفزة، سيظل قادراً على القتال، وإذا قاتل - لك الله يا ريكى! " نظر إلى سُمْكِ العنق عند غطاء رأس الكوبرا، لكن هذا كان كثيرًا عليه، وعضة قرب الذيل لن تفعل شيئًا سوى إثارة غضب ناج وتوحّشه.

فى النهاية قال لنفسه: "لا بد أن يكون الرأس هو هدفى.. الرأس فوق الغطاء. وعندما أصل إلى هذه المنطقة يجب ألا أفلته من قبضتى".

ثم قفز. كان الرأس مستلقيًا على مسافة قليلة من إناء الماء.. وفى لحظة انطباق أسنانه، ضغط ريكى بظهره على أنبوب الفخار الأحمر ليشدد قبضته على الرأس. منحه هذا ثانية واحدة أخرى ليتمكن من غايته، وقد استثمرها أفضل استثمار. ثم وجد نفسه يُضرَب على نحو مستمر جيئة وذهابًا كما لو كان فأرًا يتأرجح فى فم كلب - جيئة وذهابًا على الأرض، وإلى أعلى وأسفل، وفى دوائر واسعة، لكن عينيه كانتا حمراوين. واستمر فى تشديد قبضته على جسد ناج الضخم الذى يتخبط على الأرض فى حركة سريعة، قُلِبَت المغرفة الصفيح والصبّانة وفرشاة الاستحمام، ثم اصطدم بجانب المغطس بجسده فأحدث ضجة شديدة. وعندما أمسك تيكى - ريكى بظهر الثعبان، أطبق فكيه بشدة أكثر فأكثر، لأنه كان واثقًا أنه سيظل يواجه هذا الضرب حتى الموت.. ولشرف عائلته، فضّل أن يعثروا عليه مطبق الأسنان على خصمه. كان مصابًا بدوار ويشعر بالوجع، وأحس أنه يتمزق قطعًا، حين سمع شيئًا يُصدِر صوتًا خلفه

كأنه قصف الرعد. صدمته ريح ساخنة، ونار متوهجة سفعت فراءه... استيقظ الرجل الضخم على صوت الضوضاء، وأطلق ماسورتى البندقية المعبأتين بطلقات الرصاص على ناج خلف غطاء رأسه تمامًا.

ظل ريكى - تيكى مطبقًا أسنانه وهو مغمض العينين لأنه كان متأكدًا الآن أنه قد مات.. لكن رأس ناج لم يتحرك. والتقط الرجل الضخم ريكى - تيكى وقال: "إنه النمس مرة أخرى يا أليس. الشاب الصغير أنقذ الآن حياتنا". عندئذ دخلت والدة تيدى ووجهها شديد الشحوب، ورأت ما تَبقَّى من ناجٍ. وسحب ريكى - تيكى نفسه إلى حجرة تيدى، وقضى ما تبقى من الليلة يهز نفسه بلطف ليتأكد إذا ما كان حقًا قد تَقطَّعَ إلى أربعين قطعة، كما تَصوَّرَ.

حين انبلج الصبح كان جسده متصلبًا جدًا، لكنه شديد السرور لما قام به من إنجازات. قال: "والآن يتبقى لدىّ ناجينا لأنظر فى أمرها، وهى أسوأ من ناج خمس مرات، ولا أحد يعرف متى سيفقس البيض الذى تَحَدَّثَت عنه. يا إلهى ! لا بد أن أخرج وأرى دارزى".

ودون أن ينتظر طعام الإفطار، جرى ريكى - تيكى إلى الشجرة الشائكة، حيث كان دارزى يغنى أغنية النصر بأعلى صوت. كانت أخبار موت ناج تملأ الحديقة، لأن الكناس ألقى بجثته على كومة القمامة.

قال ريكى - تيكى بغضب: "ياه، يا لك من غبى يا كتلة الزغب والريش! هل هذا وقت مناسب للغناء؟".

غنى دارزى قائلاً: "ناج مات - مات - مات! أمسكه ريكى - تيكى الباسل الشجاع من رأسه وعضه بسرعة. وأحضرَ الرجل الضخم البندقية وقتله، وسقط ناج قطعتين! لن يأكل أطفالى مرة أخرى".

قال ريكى - تيكى وهو يتطلع بحرص حوله: "كل هذا حقيقى جدًا، لكن أين ناجينا؟".

استمر دارزى فى كلامه: "ناجينا ذهبت إلى أنابيب الصرف فى الحمام، ونادت على ناج، وفى النهاية خرج لها ناج على طرف عصا.. الكناس التقطه بطرف عصا وألقى به على كومة القمامة. دعنا نغنى احتفالاً بريكى تيكى العظيم أحمر العينين!". وملأ دارزى صدره بالهواء وراح يغنى.

قال ريكى - تيكى: "لو كنت أستطيع الصعود إلى عشك، لألقيت بصغارك خارجه! أنت لا تعرف متى تقوم بالعمل المناسب فى الوقت المناسب. أنت آمن فى عشك بأعلى، لكنها الحرب المندلعة ضدى بأسفل هنا. تَوقَّفْ لحظة عن الغناء يا دارزى".

قال دارزى: "من أجل خاطر ريكى تيكى العظيم الجميل سأتوقف! ما الأمر يا قاتل ناج المرعب؟".

"للمرة الثالثة أسألك.. أين ناجينا؟".

"على كومة القمامة قرب الإسطبلات، تنوح على ناج. ريكى- تيكى عظيم بأسنانه البيضاء".

"إلى الجحيم بأسنانى البيضاء! هل سمعت أبدًا أين تضع بيضها؟".

"تحت حقل البطيخ، على الطرف قرب الحائط، فى المكان الذى تشرق عليه أشعة الشمس طوال اليوم. لقد خبأتهم هناك منذ أسابيع".

"ولم تفكر لحظة فى أن هذا الأمر يستحق أن تخبرنى به؟ قلتَ على الطرف قرب الحائط؟".

"ريكى - تيكى، لن تذهب لتأكل بيضها؟".

"لن آكله بمعنى الكلمة - لا .. دارزى، لو لديك ذكاء فى حجم حبة قمح لكنتَ طرتَ إلى الإسطبلات وادعيتَ أن جناحك مكسور، وجعلت ناجينا تطاردك بعيدًا ناحية تلك الأشجار. لا بد أن أذهب إلى حقل البطيخ، وإذا ذهبت الآن إلى هناك ستراني".

كان دارزى طائرًا ضئيلاً صغير العقل مغطى بالريش، لا يمكنه أن يفكر فى أكثر من فكرة واحدة فى وقت واحد، ولأنه يعرف أن أطفال ناجينا يفقسون من بيض مثل صغاره، لم يفكر فى البداية أنه من العدل قتلهم. لكن زوجته كانت فطنة وكانت تدرك أن بيض الكوبرا يعنى أنهم سيصبحون فيما بعد ثعابين كوبرا صغارًا. لذلك طارت من العش، وتركت دارزى يحافظ على دفء الصغار ويواصل أغنيته عن موت ناج. كان يشبه الرجال كثيرًا فى بعض الأمور.

حلقت أمام ناجينا قرب كومة القمامة، وصاحت: "أوه، جناحى انكسر! الولد الذى يسكن هذا المنزل قذفنى بحصاة وكسر جناحى". وارتعشت فى يأس أكثر من أية مرة سابقة. رفعت ناجينا رأسها وهسهست قائلة: "لقد حَذَّرت ريكى - تيكى عندما كنت

سأقتله. فى الحقيقة، اخترتِ مكانًا سيئًا لتعرجى فيه". واتجهت نحو زوجة دارزى وهى تزحف على التراب.

صرخت زوجة دارزى: "الولد كسر جناحى بالحصاة!".

"حسنًا، ربما تحظين ببعض العزاء عندما تموتين وأنت تعرفين أننى سأتولى أمر الولد. زوجى ملقى على كومة القمامة هذا الصباح، لكن قبل حلول الليل سيكون ذلك الولد فى البيت ملقى فى سكون تام. ما جدوى الهرب؟ أنا واثقة أننى سأمسك بك أيتها الحمقاء الصغيرة، انظرى إلىّ!".

كانت زوجة دارزى أكثر فطنة من أن تفعل ذلك، لأنها تعرف أن الطائر الذى ينظر فى عينى الأفعى يصاب بخوف شديد وتُشَلُّ حركته. ظلت زوجة دارزى ترفرف وترتعش، وتصفر بأسف، ولم ترتفع عن الأرض، وسَرَّعَت ناجينا من حركتها.

سمعهما ريكى - تيكى يتحركان متجهين صوب الممر قرب الإسطبلات، فتحرك نحو حقل البطيخ قرب الحائط. هناك، فى مهاد من القش الدافئ فوق البطيخ، مخبأ ببراعة ومكر شديدين، وجد خمسًا وعشرين بيضة، فى حجم بيض دجاج "البنطم" الصغير، لكنها مغلفة بقشرة لينة ضاربة للبياض، بدلاً من القشرة الصلبة مثل المحار.

قال: "لقد جئتُ فى وقت مناسب"، لأنه استطاع أن يرى صغار الكوبرا ملتفين حول أنفسهم داخل البيض، وكان يعرف أنه فى اللحظة التى يفقسون فيها من البيض يمكنهم قتل رجل أو نمس.

عض الجزء العلوى من كل بيضة وانتزعه بأسرع ما يستطيع، آخذًا فى اعتباره أن يسحق تلك الأفاعى الصغيرة. وأخذ يقلب مهاد القش بين وقت وآخر ليتأكد أنه لم يغفل واحدة منها. فى النهاية تبقت أمامه ثلاث بيضات فقط، وبدأ ريكى - تيكى يضحك بينه وبين نفسه، حين سمع صرخة زوجة دارزى: "ريكى - تيكى، لقد دفعتُ ناجينا صوب المنزل، وقد ذَهَبَتْ بالفعل إلى الشرفة، هيا تعالَ بسرعة - إنها تنوى قتلهم!".

هشم ريكى - تيكى بيضتين، وهرول باضطراب متراجعًا داخل حقل البطيخ والبيضة الثالثة فى فمه، ثم عدا بخطو سريع صوب الشرفة وهو يثبت أقدامه فى الأرض بأقصى ما يستطيع من قوة. كان تيدى وأمه وأبوه يجلسون فى الشرفة لتناول إفطارهم المبكر، لكن ريكى - تيكى رآهم لا يأكلون شيئًا. كانوا جالسين فى ثبات وسكون مثل الأحجار، ووجوههم شاحبة. كانت ناجينا تلف نفسها حول ممسحة الأرجل قرب مقعد تيدى، وبينها وبينه مسافة يسهل عليها الانقضاض منها على ساقه العارية.. وكانت تتمايل جيئة وذهابًا، تغنى أغنية النصر.

قالت فى هسيس: "يا ابن الرجل الضخم الذى قتل ناج، اجلس ساكنًا.. أنا لست مستعدة بعد. انتظر قليلاً. اثبتوا تمامًا، جميعكم، اثبتوا تمامًا أنتم الثلاثة! لو تحركتم سأنقض عليكم وأقتلكم. وإذا لم تتحركوا سأنقض أيضًا عليكم وأقتلكم. أوه، أيها الحمقى، من منكم قتل زوجى ناج؟".

كانت عينا تيدى مثبتتين على والده، وكل ما استطاع والده أن يفعله أن همس: "اثبت فى مكانك يا تيدى.. لا ينبغى أن تتحرك.. اثبت فى مكانك".

عندئذ دخل ريكى ـ تيكى وصاح: "التفِتى إلىّ يا ناجينا، التفِتى إلىّ وقاتلينى!".

قالت دون أن تحرك عينيها: "كل شىء فى موعده المناسب.. سأنهى الأمر بينى وبينك حالاً.. انظر إلى أصدقائك يا ريكى - تيكى.. إنهم ساكنون وشاحبون. إنهم خائفون لا يجرؤون على الحركة، أما أنت إذا اقتربت خطوة واحدة فسأنقض عليك".

قال ريكى ـ تيكى:" انظرى إلى بيضك ، هناك بين ثمار البطيخ قرب الحائط.. اذهبى وانظرى يا ناجينا!".

استدارت الأفعى الضخمة نصف استدارة، ورأت البيضة فى الشرفة. قالت: "آه ـ ه! أعطِنى إياها".

وضع ريكى ـ تيكى كفيه، كل كف على أحد جانبى البيضة، وعيناه فى حمرة الدم : "ما ثمن بيضة الأفعى؟ ما ثمن ثعبان كوبرا صغير؟ ما ثمن ملك كوبرا صغير؟ مَا ثمن آخر ـ آخر نسل الكوبرا؟ إن النمل يأكل كل البيض هناك بين ثمار البطيخ".

دارت ناجينا ملتفة بجسدها كله، ناسية كل شىء من أجل البيضة الوحيدة المتبقية. ورأى ريكى ـ تيكى والد تيدى يمد يده الكبيرة، ويمسك بتيدى من كتفه، ويسحبه عبر المائدة الصغيرة التى تحمل أكواب الشاى، ووضعه فى مكان آمن لا تصل إليه ناجينا.

ضحك ريكى تيكى ضحكة خافتة وقال: "خدعتك! خدعتك! خدعتك! ريك - تك - تك! الولد الآن آمن، وأنا - أنا - أنا مَنْ أمسك ناج من غطاء رأسه، الليلة الماضية فى الحمام". ثم بدأ يقفز إلى أعلى وأسفل بأقدامه الأربعة معًا، ورأسه قريب من الأرض. "لقد أخذ يقذفنى جيئة وذهابًا، لكنه لم يستطع أن يتخلص من قبضتى.. كان ميتًا قبل أن يضربه الرجل الضخم ويمزقه إلى جزأين. أنا من قتله! ريكى - تيكى - تك - تك ! هيا تَقدَّمى يا ناجينا.. اقتربى منى وقاتلينى.. لن تظلى أرملة طويلاً".

أدركت ناجينا أنها فقدت فرصتها فى قتل تيدى، والبيضة بين كفى ريكى - تيكى، فقالت وهى تخفض غطاء رأسها: "أعطِنى البيضة يا ريكى - تيكى.. أعطِنى آخر واحدة من بيضى، وسأذهب بعيدًا ولن أعود إلى هنا أبدًا".

"نعم، ستذهبين بعيدًا، ولن تعودى إلى هنا أبدًا، لأنك ستذهبين إلى كومة القمامة مع ناج. قاتِلى أيتها الأرملة! لقد ذهب الرجل الضخم ليحضر بندقيته! قاتِلى!".

كان ريكى - تيكى يحيط بناجينا من كل ناحية، يحافظ فقط على ألا يكون فى متناول ضربتها. بدت عيناه الصغيرتان مثل قطعتى جمر. لملمت ناجينا نفسها وقفزت ناحيته. قفز ريكى - تيكى عاليًا للوراء. مرة ومرة ومرة، وفى كل مرة يقترب رأسها تضرب ممسحة الشرفة، ثم لملمت نفسها مرة أخرى مثل "زنبرك" الساعة. عندئذٍ وثب ريكى - تيكى فى دائرة ليكون خلفها، والتفتت ناجينا لتواجه

رأسه برأسها، مما جعل حفيف ذيلها على الممسحة يصدر صوتًا مثل سقوط أوراق الأشجار الجافة حين تهب عليها الريح.

نسى ريكى - تيكى أمر البيضة التى لا تزال ملقاة على أرض الشرفة، وراحت ناجينا تقترب منها وتقترب أكثر، حتى أمسكت بها فى النهاية. بينما كان ريكى - تيكى يلتقط أنفاسه. أمسكت بها فى فمها، واتجهت نحو درجات الشرفة، وانطلقت مثل سهم صوب الممر، وريكى - تيكى خلفها. حين جرت الكوبرا لإنقاذ حياتها، ذهبت مثل ضربة سوط على رقبة حصان. كان ريكى - تيكى يعرف أنه يجب أن يمسك بها، وإلا فكل المتاعب ستعود للظهور من جديد. اتجهت مباشرة نحو العشب الطويل قرب الشجرة الشائكة. وسمع ريكى - تيكى وهو يجرى خلفها، دارزى مستمرًا فى غناء أغنيته الصغيرة الحمقاء عن النصر، لكن زوجة دارزى كانت أكثر حكمة منه. طارت من عشها عندما رأت ناجينا قادمة، وألقت بجناحيها فوق رأس ناجينا. لو أن دارزى مد يد المساعدة لزوجته لاستطاعا معًا أن يقلباها، لكن ناجينا خفضت غطاء رأسها وواصلت سيرها. ومع ذلك، فالتأخير القصير ساعد ريكى - تيكى أن يصل إليها فى الوقت المناسب. وبينما كانت تقذف بنفسها داخل حفرة الفئران حيث كانت تعيش هى وناج، أطبق بإحكام بأسنانه البيضاء الصغيرة على ذيلها، ودخل معها - وقليل جدًا من حيوانات النمس، مهما كانوا يتميزون بالحكمة أو خبرة النضج، يكترثون بمتابعة ثعبان كوبرا داخل حفرته. كانت الحفرة مظلمة، وريكى - تيكى لم يعد بوسعه أن يعرف أين سيتسع المكان بما فيه الكفاية فتأخذ الفرصة لتلتف

وتنقض عليه. لكنه أمسك بها بوحشية، وحاول تثبيت ساقيه على الأرض لتعمل مثل المكابح فى أرض موحلة ساخنة. عندئذٍ بدأ العشب النامى عند فتحة الحفرة يتوقف عن الاهتزاز، وقال دارزى: "لقد انتهى أمر ريكى - تيكى! علينا أن نغنى أغنية موته. ريكى - تيكى الباسل مات! من المؤكد أن ناجينا قتلته فى الحفرة تحت الأرض".

وأخذ دارزى يغنى أغنية شديدة الحزن ألفها فى تلك اللحظة، وبمجرد أن وصل إلى أكثر جزء مؤثر فيها بدأ العشب يهتز مرة أخرى، وسحب ريكى - تيكى نفسه خارجًا من الحفرة مغطى بالوحل، يجر ساقيه، ويلعق شواربه. توقف دارزى عن الغناء بصيحة صغيرة. نفض ريكى - تيكى التراب عن فرائه وعطس ثم قال: "انتهى الأمر، لن تخرج الأرملة من هنا أبدًا". وسمعه النمل الأحمر الذى يعيش بين سيقان الأعشاب، وبدأ يندفع بأعداد كبيرة إلى الحفرة واحدًا وراء الآخر ليتأكدوا من صحة كلامه.

التف ريكى - تيكى حول نفسه فى العشب، ونام فى مكانه - نام ونام حتى وقت متأخر من الظهيرة، لأنه قام فى ذلك اليوم بعمل شاق.

حين استيقظ قال: "والآن، سأعود إلى المنزل، أخبر "النحاس" يا دارزى، وسيتولى هو إخبار الحديقة أن ناجينا ماتت".

"النحاس" طائر يحدث جلبة تشبه تمامًا طرق المطرقة على الأوانى النحاسية، وبسبب ذلك فهو دائمًا منادى البلدة فى كل

الحدائق الهندية، يقوم بنقل كل الأخبار لجميع من يهتم بالإصغاء إليه. وأثناء ذهاب ريكى - تيكى للممر، لفت انتباهه صوت ضئيل مثل جرس الطعام، ثم صوت قوى يقول: "دينج - دونج - توك! ناج مات - دونج! ناجينا ماتت! دينج - دونج - توك!"، مما جعل كل طيور الحديقة تغرد، والضفادع تنق، لأن ناج وناجينا كانا يأكلان الضفادع كما يأكلان الطيور الصغيرة.

حين وصل ريكى للمنزل، خرج تيدى وأمه (لا تزال شاحبة، لأنها كانت قد فقدت الوعى) ووالده، وصاحوا ينادون عليه. وفى تلك الليلة أكل كل ما قدموه له حتى لم يعد يستطيع أن يأكل، وذهب إلى الفراش على كتف تيدى، حيث رأته والدة تيدى حين جاءت لتطمئن على ولدها فى وقت متأخر من الليل.

قالت لزوجها: "أنقذ حياتنا وحياة ابننا.. فكِّرْ فى هذا، لقد أنقذ حياتنا جميعًا".

استيقظ ريكى - تيكى وقفز، لأن حيوان النمس نومه خفيف.

قال: "أوه، إنها أنتِ، ما الذى يزعجك؟ كل ثعابين الكوبرا ماتت. وحتى إن لم تمت، أنا هنا.

ريكى - تيكى كان له الحق فى أن يكون فخورًا بنفسه. لكنه لم يبالغ فى تفاخره، وقد حافظ على تلك الحديقة كما ينبغى على نمس أن يفعل، باستخدامه أسنانه وقفزاته وانطلاقاته وعضه، حتى لم تعد أية كوبرا تجرؤ أن تُظهر رأسها داخل أى شق فى الحوائط.

أغنية دارزى

أغنية على شرف ريكى - تيكى - تافى
مطرب وحائك أنا .
مزدوجة المتعة التى أعرفها .
فخور حتى السماء بغنائى ومرحى،
فخور بالبيت الذى خطته من الأغصان
إلى أعلى وإلى أسفل، أنسج موسيقاى - أنسج البيت الذى خطته
أعاود الغناء لأفراحكم الصغيرة،
أمى، ارفعى رأسك عاليًا!
مات الشيطان الذى كان يزعجنا!
الموت فى الحديقة يرقد ميتًا.
الرعب الذى كان يختبئ بين الورود ضعف الآن .
دُفِعَ نحو تل الروث ومات!

مَن الذى حررنا منه؟

أخبِرونى عن عشه واسمه

ريكى الباسل، الحقيقى،

تيكى ذو العيون المشعة.

ريكى - تيكى - تيكى، صاحب الأسنان العاجية،

الصياد ذو العيون المشعة!

قدموا له شكر الطيور،

منحنية وريش ذيولها منبسط،

امدحوه بكلمات العندليب.

وإلا.. سأمدحه بنفسى.

اسمعوا! سأغنى لكم مديح ذى الذيل البراق

ريكى صاحب العينين الحمراوين!

(هنا قاطعه ريكى - تيكى، وهكذا ضاعت بقية الأغنية).

توماى صديق الأفيال

سأتذكر ماذا كنت. أعيتنى السلاسل والحبال
سأتذكر قوتى القديمة وكل ما صنعته فى الغابة
لن أبيع ظهرى لرجل بحزمة قصب:
سأخرج إلى أبناء جنسى، وأهل الغابة فى أوكارهم
سأخرج حتى الصباح، حتى بزوغ الفجر.
هناك فى العراء
حيث قبلة الرياح البريئة، وملاطفة المياه العذبة
سأنسى أصفاد كاحلى وأنتزع أوتادى
سأعاود زيارة أحبابى المفقودين، ورفاقى الطيبين!

كالاناج، التى تعنى "الثعبان الأسود"، خدم الحكومة الهندية بكل طريقة يستطيع فيل أن يفعلها على مدار سبعة وأربعين عامًا. كان قد أتم عامه العشرين حين أمسكوه، وذلك جعله كأنه فى السبعين..

سن متقدمة بالنسبة لفيل. تذكر كيف كان يدفع أمامه، وعلى جبهته قطعة كبيرة من الجلد، مدفعًا عالقًا فى الوحل، وكان ذلك قبل الحرب الأفغانية سنة ١٨٤٢، ومنذ ذلك الحين لم يعد لكامل قوته السابقة. والدته "رضا بيارى" - رضا الحبيبة - التى أمسكوها فى نفس الوقت مع كالاناج، قالت له قبل أن تسقط أنيابه اللبنية، إن الأفيال التى تخاف تصاب دائمًا. واقتنع كالاناج أن تلك النصيحة نافعة، لأنه فى المرة الأولى التى رأى فيها قنبلة تنفجر تراجع للوراء يصرخ، فاصطدم بكومة من البنادق، وتلقى منها الوخزات بـ "السونكى" فى كل الأجزاء اللينة من جسمه. لذلك، قبل أن يتم الخامسة والعشرين من عمره، أقلع عن الشعور بالخوف، وصار أكثر فيل محبوب، وأكثر فيل يتلقى العناية والرعاية فى خدمة الحكومة الهندية. حَمَل الخيام، خيامًا يصل وزنها إلى ألف ومائتى رطل، فى المسيرة إلى شمال الهند. رُفِعَ إلى سفينة بخارية عن طريق الرافعة، وظل عدة أيام فى الماء. ثم جعلوه يحمل مدافع الهاون على ظهره فى بلدة غريبة وصخرية بعيدة عن الهند. وقد رأى الإمبراطور ثيودور يرقد ميتًا فى قرية المجدل، ثم عاد مرة أخرى فى السفينة البخارية، وهذا ما قاله الجنود لحَمَلَة ميدالية الحرب الحبشية. وبعد عشر سنوات، رأى رفاقه من الأفيال الأخرى يموتون من البرد والصرع والجوع وضربة الشمس فى مكان يدعى "مسجد على". بعد ذلك أرسلوه آلاف الأميال جنوبًا لينقل ويكوّم ألواحًا خشبية من أشجار الساج لصنع السفن فى "مولمين"، هناك كاد يقتل فيلاً شابًا متمردًا كان يتهرب من حصته من العمل.

بعد ذلك أخذوه من مكان نقل الأخشاب، ووظفوه مع عدد من الأفيال الأخرى المدربة على العمل، ليساعد فى الإمساك بالأفيال البرية فى جبال جارو. الأفيال حِكْرٌ مقصور على الحكومة الهندية.. هناك قسم كامل متخصص فقط فى صيدها والإمساك بها وترويضها، وإرسالها إلى هنا وهناك فى الأماكن التى يحتاجون إليها، لتعمل فى أى جزء من البلاد. كان ارتفاع كالاناج يبلغ عشر أقدام كاملة عند كتفه، وكانوا قد قصُّوا أنيابه لتصبح بطول خمس أقدام، وربطوا أطرافها بأربطة من النحاس حتى لا تتشق، لكنه كان يستطيع بهذه الأنياب المجدوعة أن يؤدى أعمالاً أكثر مما يستطيع أى فيل آخر غير مدرب وله أنياب سليمة حادة. وبعد أسابيع وأسابيع من القيادة بحذر للأفيال المبعثرة عبر التلال، كانت تساق تلك الحيوانات البرية الأربعون أو الخمسون إلى آخر ما أقاموه من الحظائر المطوقة بالقضبان والأسلاك الشائكة، وتغلق خلفهم البوابة الكبيرة المصنوعة من جذوع الأشجار المربوطة معًا. ويدخل كالاناج وراءهم إلى ذلك الجحيم المشتعل استجابة لكلمة من المسئولين (عادة أثناء الليل، عندما تكون الإضاءة الصادرة عن خفقات المشاعل ووميضها خافتة لا تُمكِّن أحدًا من تقدير المسافات). ويختار كالاناج أكبر وأكثر الأفيال توحشًا فى القطيع كله، ويضربه ضربًا مبرحًا، ويدفعه بقسوة حتى يتحول إلى حيوان وديع مسالم، بينما الرجال على ظهور الأفيال الأخرى يقيدون الأفيال الصغيرة بالحبال. لم يكن هناك شىء فى أسلوب القتال لم يعرفه كالاناج "الثعبان الأسود" الحكيم العجوز، لأنه قام أكثر من

مرة فى حياته بحراسة نمر جريح، حيث يلف خرطومه اللين على نفسه لكى لا يتعرض للأذى، ثم يدفع الحيوان المتوحش الذى لا يزال ينبض بالحياة، يدفعه برأسه فى الهواء إلى اليمين واليسار، وهى طريقة ابتكرها بنفسه، ثم يطرحه أرضًا ويركع عليه بركبته الكبيرة إلى أن تفارقه الحياة وهو يصرخ ويصدر أصواتًا عالية. ولا يتبقى بعد ذلك سوى جثة مخططة مترهلة ممدة على الأرض يستطيع كالاناج أن يسحبها من ذيلها.

قال توماى الكبير، سائسه، ابن توماى الأسود الذى أخذه إلى الحبشة، وحفيد توماى صائد الأفيال الذى رآه حين أمسكوه: "نعم، لم يعد هناك شىء يخشاه الثعبان الأسود إلا أنا. لقد عاصر ثلاثة أجيال منا تطعمه وتسوسه، وسيعيش حتى يرى الجيل الرابع".

قال توماى الصغير وهو يقف بطوله الذى يبلغ أربع أقدام، ولا تغطيه سوى خرقة بالية :"هو يخشانى أنا أيضًا". كان يبلغ من العمر عشر سنوات، وهو أكبر أبناء توماى الكبير، ووفقًا لعاداتهم سيأخذ مكان والده على رقبة كالاناج عندما يكبر، ويتولى نخسه بالقضيب الحديد الثقيل، وهو المهماز الذى ينخسون به الأفيال، والذى استخدمه والده وجده وجد جده كثيرًا حتى صار ناعمًا من كثرة الاستخدام. كان يعرف ما الذى يتحدث عنه، لأنه ولد تحت ظل كالاناج، ولعب معه قبل أن يتعلم المشى، وسحبه إلى المياه بمجرد أن استطاع المشى. وكالاناج لم يحلم بعصيان أوامر سيده الصغير التى تصدر بصوت طفولى، أكثر مما حلم أن يقتله فى ذلك اليوم عندما

حمل توماى الكبير طفله الرضيع الأسمر الصغير ووضعه تحت أنياب كالاناج، وقال له أن يحيّى سيده القادم. قال توماى الصغير: "نعم، هو يخشانى"، وخطا خطوات واسعة نحو كالاناج وهو ينعته بأنه خنزير بدين عجوز، وجعله يرفع سيقانه واحدة وراء الأخرى.

قال توماى الصغير: "واو، أنت فيل كبير"، وهز رأسه الملىء بالشعر المجعد "المنفوش"، وردد مقتبسًا من كلمات والده: "ربما تدفع الحكومة الهندية أموالاً لشراء الأفيال، لكن الأفيال تنتمى لنا نحن الفيالين. عندما تكبر يا كالاناج، سيأتى راجا (أمير هندى) ثرى، ويشتريك من الحكومة بمبلغ من المال يوازى حجمك وأخلاقك، وهناك لن تفعل شيئًا عند الأمير غير أن تحمل الأقراط الذهبية فى أذنيك والهودج الذهبى على ظهرك، ورداء أحمر مغطى بالذهب يتدلى على جانبيك، وتسير فى مقدمة المواكب الملكية. عندئذ سأجلس على رقبتك، يا كالاناج، ومعى مهماز من الفضة، والرجال يجرون أمامنا بعصيان ذهبية، يصيحون: أفسِحوا الطريق لفيل الملك! سيكون هذا أمرًا ممتعًا يا كالاناج ، لكنه ليس بقدر متعة الصيد فى الغابات".

قال توماى الكبير: "أووف ، أنت صبى صغير، ومتوحش مثل عجل الجاموس، هذا الجرى إلى أعلى وأسفل للصيد بين التلال ليس أفضل شىء فى خدمة الحكومة. إننى أتقدم فى السن ولا أحب الأفيال البرية. أعطِنى قطيعًا من الأفيال من سلالة جيدة، وحبلاً لكل فيل، وجذوع أشجار كبيرة لربطها معًا بطريقة آمنة، وطرقًا واسعة ممهدة لأدربهم فيها، بدلاً من هذه المعسكرات غير

المنضبطة. آه، إن ثكنات كاونبور كانت جيدة. كانت هناك سوق قريبة منها، وفقط ثلاث ساعات عمل فى اليوم".

تذكر توماى الصغير ثكنات كاونبور للأفيال ولم يقل شيئًا، فهو يفضِّل حياة المعسكرات، ويكره تلك الطرق الواسعة الممهدة، ونَبْش الأرض يوميًا بحثًا عن الحشائش لمخزون علف الماشية، والساعات الطويلة حين لا يكون أمامك شىء تفعله عدا مراقبة كالاناج وهو يتململ فى أوتاده. ما كان يحبه توماى الصغير هو الاندفاع إلى الطرق التى لا يسير فيها إلا الأفيال، ومنحدرات الوديان، ونظرات الأفيال البرية التى ترعى على بعد أميال، واندفاع الخنازير والطواويس المذعورة تحت أقدام كالاناج، والأمطار الدافئة التى تحجب الضوء حين يتصاعد البخار من كل التلال والوديان، والصباحات الجميلة الغائمة فى الضباب حين لا يعرف أى شخص أين سيعسكر تلك الليلة، والقيادة الحذرة المتواصلة للأفيال البرية، والاندفاع الجنونى والغاضب مع ضجة آخر قيادة فى الليلة السابقة، حين تتدفق الأفيال داخل الحظيرة المسيجة مثل انهيار الصخور عند منحدر، ثم تكتشف أنها لا تستطيع الخروج، فتقذف بنفسها نحو القضبان الثقيلة، لتساق عائدة عن طريق الصراخ والمصابيح المشتعلة وإطلاق وابل من الخراطيش الفارغة نحوها. حتى الولد الصغير يمكن أن يكون ذا نفع فى ذلك الوقت، وتوماى كان ذا فائدة تماثل ثلاثة صبية، إذ يمكنه أن يمسك شعلته ويلوح بها، ويصرخ بأعلى صوت. لكن الوقت الممتع الحقيقى يأتى حين تبدأ قيادة الأفيال للخروج وقد ظهرت "الكيدا"، وهى الحظيرة

المسيجة بالقضبان، كأنها صورة من نهاية العالم. ويضطر الرجال لتبادل الإشارات مع بعضهم، لأنهم لم يكونوا يستطيعون سماع بعضهم بعضًا وهم يتحدثون. عندئذٍ يتسلق توماى الصغير قمة واحد من قضبان الحظيرة المهتزة، وشعره البنى الذى غيرت الشمس لونه يطير على أكتافه، فبدا على ضوء المشعل مثل الغول. وبمجرد أن ساد بعض الهدوء يمكنك أن تسمع صيحاته العالية لتشجيع كالاناج، أعلى من أصوات الأبواق وهزيم الرعد "وفرقعة" الحبال وأصوات الأفيال وهى تُشَدُّ إلى أوتادها. "هيا هيا أيها الثعبان الأسود!".. "عض عليه بنابك! احترس، احترس!".. "اضربه! اضربه!".. "انتبه للقضيب، هيا هيا يا كاااالا!"... كان يصيح والمعركة الكبيرة بين كالاناج والفيل البرى تتأرجح يمينًا ويسارًا عبر الحظيرة، أما صيادو الأفيال كبار السن فيمسحون العرق عن عيونهم، ويجدون الوقت ليومئوا لتوماى الصغير الذى يتمايل من المتعة وهو على قمة القضبان.

لقد فعل أكثر من التمايل. ذات ليلة انسل من بين القضبان وتسلل بين الأفيال، وأمسك بطرف حبل غير محكم الربط كان قد سقط، وألقى به لأحد قادة الأفيال وهو يحاول أن يربط ساق فيل صغير يرفس بها (الحيوانات الصغيرة تثير المشاكل أكثر من الحيوانات الناضجة). رآه كالاناج، وأمسكه من جذعه وسلمه لتوماى الكبير، الذى أخذ يصفعه، وأعاده فوق القضبان. فى الصباح التالى وبخه قائلاً: "ألا يكفيك قدرتك على التمييز بين سلالات الأفيال الجيدة عن غيرها، وحمل خيمة صغيرة؟ هل أنت

فى حاجة إلى الذهاب لصيد الأفيال بمفردك، أيها التافه الصغير؟!.. والآن أولئك الصيادون الحمقى، الذين يكسبون أقل منى، قد تحدثوا إلى السيد بيترسون فى الموضوع". كان توماى الصغير خائفًا. لم يكن يعرف الكثير عن الرجال البيض، لكن السيد "بيترسون" كان أهم رجل أبيض فى العالم بالنسبة إليه. كان هو رئيس كل عمليات الكيدا - الرجل الذى يصطاد كل الأفيال لحساب حكومة الهند، والذى يعرف كل شىء عن الأفيال أكثر من أى رجل على وجه الأرض.

قال توماى الصغير: "ماذا - ماذا سيحدث؟".

"يحدث! قد يحدث أسوأ شىء. السيد بيترسون رجل مجنون، وإلا فلماذا يصطاد هذه الشياطين المتوحشة؟ ربما يطلب منك أيضًا أن تصبح صائد أفيال، وأن تنام فى أى مكان فى تلك الغابات المحمومة، وفى النهاية يدوسون عليك بأقدامهم حتى تموت فى الكيدا. حسناً. سينتهى هذا الهراء على خير. ستنتهى عمليات الصيد الأسبوع القادم ، ونحن أبناء السهول سيعيدوننا إلى مواقعنا، عندئذٍ سنسير فى الطرق الممهدة وننسى كل هذا الصيد. لكن يا ولدى، أنا غاضب منك لأنك تنخرط فى هذا العمل الخاص بهؤلاء القوم القذرين، قوم غابة أساميس. كالاناج لن يطيع أحدًا إلا أنا، لذلك علىَّ المضى معه إلى الكيدا، لكنه ليس أكثر من فيل مقاتل ولن يساعد فى ربط الفيلة المتوحشة، لذلك أنا مستريح، كما يليق بفَيَّال - ليس مجرد صائد - بل فيال، أقول لك، ورجل سيجد معاشًا

فى نهاية خدمته. هل عائلة توماى الفيالين يمكن لها أن تداس تحت الأقدام فى قاذورات كيدا؟ أنت شخص سيئ! شخص شرير! ولد تافه! اذهب ونظف كالاناج واهتم بأذنيه، وتأكد من عدم وجود أشواك فى أقدامه، وإلا سيمسك بك السيد "بيترسون" ويجعلك صيادًا وحشيًا، تتبع خطا الأفيال.. دب الغابة.. باه ! يا للعار! هيا اذهب!".

مضى توماى الصغير دون أن ينطق بكلمة، لكنه باح لكالاناج بكل أحزانه وهو يفحص أقدامه. قال توماى الصغير "لا يهم"، وهو يقلب إلى أعلى أهداب أذن كالاناج اليمنى الكبيرة: "لقد ذكروا اسمى أمام السيد "بيترسون"، وربما - ربما - ربما - من يعلم؟ هيه! تلك شوكة كبيرة سحبتها منك!".

قضوا الأيام القليلة التالية فى جمع الأفيال، والسير صعودًا وهبوطًا مع الأفيال التى أمسكوها حديثًا، كل فيل بين زوج من الأفيال المروضة، لمنعها من إحداث مشاكل كثيرة أثناء السير فى الطريق إلى أسفل إلى حيث السهول - وأخذ البطاطين والحبال الإضافية والأشياء الأخرى التى اهترأت، أو كانت قد فُقِدَت فى الغابة. وأتى السيد بيترسون على ظهر فيلته الماهرة بودمينى. كان يشترى من معسكرات أخرى بين التلال، لأن الموسم يوشك أن ينتهى، وكان هناك بائع محلى يجلس أمام مائدة تحت شجرة، ليعطى قادة الأفيال أجورهم. كل رجل يأخذ أجره يعود إلى فيله، ويلحق بالصف الواقف استعدادًا لبدء السير. الصيادون والقناصون

ومثيرو الطرائد، والرجال العاملون فى الكيدا العادية، الذين يبقون فى الغابة عامًا تلو الآخر، جلسوا على ظهور الأفيال التابعة لقوة السيد بيترسون الدائمة، أو جلسوا متكئين وبنادقهم على أذرعهم، وراحوا يسخرون من قادة الأفيال الذين يبتعدون، ويضحكون عندما تخرج من الصف الأفيال التى أمسكوها حديثًا وتجرى. ذهب توماى الكبير إلى البائع وتوماى الصغير خلفه، وقال مقتفى الأثر "ماشوا آبا" فى صوت خفيض لصديق له: "على الأقل هناك فيل واحد جيد فى هذه المجموعة.. مما يدعو للشفقة أن يُرسل هذا الفتى الصغير المنتمى للغابة لينمو فى السهول".

وبالطبع كان للسيد بيترسون آذان فى كل مكان حوله، كرجل يحتم عليه عمله أن يستمع لأكثر الكائنات الحية صمتًا فى العالم - وهو الفيل البرى. التفت من مكانه على ظهر بودمينى، وقال: "ما هذا ؟! لم أسمع عن رجل بين قادة الأفيال القادمين من السهول له من الذكاء ما يكفى لكى يربط فيلاً ولو كان ميتًا!".

قال ماشوا آبا: "إنه ليس رجلاً بعد، إنه مجرد صبى صغير. ذهب معنا فى آخر قافلة إلى الكيدا، وهناك ألقى لـ"بارماو" الحبل، عندما كنا نحاول الإمساك بالفيل الصغير ذى البقع على أكتافه بعيدًا عن أمه". قال ماشوا آبا هذا وأشار نحو توماى الصغير، ونظر السيد بيترسون، فانحنى توماى الصغير على الأرض تحية له.

قال السيد بيترسون : "هو ألقى بالحبل؟ إنه أصغر من وتد صغير. أيها الصبى، ما اسمك؟"، كان توماى الصغير شديد الخوف

لدرجة حبست الكلام فى فمه، لكن كالاناج كان وراءه، فأشار توماى بيده، عندئذ أمسك به الفيل من جذعه ورفعه إلى مستوى جبهة بودمينى، أمام السيد بيترسون الكبير. عندئذٍ غطى توماى الصغير وجهه بكفيه لأنه لم يكن سوى صبى صغير، وفيما عدا اهتماماته بالأفيال كان مجرد طفل خجول مثل أى طفل آخر.

قال السيد بيترسون: "واو!" وابتسم من تحت شواربه "لماذا علَّمْتَ فيلَكَ هذه الحركة؟ هل ليساعدك هذا فى سرقة القمح الأخضر من فوق أسطح البيوت عندما توضع السنابل هناك لتجف؟".

قال توماى الصغير: "ليس القمح الأخضر يا حامى الفقراء من الجوع، لكنه البطيخ". وانفجر جميع الحاضرين فى هدير من الضحك. معظمهم قد عَلَّم أفياله تلك الحيلة عندما كانوا صغارًا فى مثل سنه. كان توماى الصغير معلقًا فى الهواء مرتفعًا عن الأرض مسافة ثمانى أقدام، لكنه كان يتمنى أن يكون تحت الأرض ثمانى أقدام!.

قال توماى الكبير عابسًا: "إنه توماى ولدى يا سيدى، إنه ولد سيئ جدًا، وسينتهى به المطاف فى السجن يا سيدى".

قال السيد بيترسون: "أشك فى ذلك، إن ولدًا يستطيع مواجهة كيدا بأكملها فى مثل سنه لا ينتهى به المطاف فى السجن. انظر أيها الصغير، إليك أربع آنات (عملة تساوى ١٦/١ من الروبية) خذها وأنفقْها فى شراء الحلوى، لأنك تحت تلك الكومة الكبيرة من الشعر تمتلك رأسًا يفكر. ومع الوقت قد تصبح صيادًا أيضًا". عبس

توماى الكبير أكثر من ذى قبل، وأكمل السيد بيترسون: "تذكر على الرغم من ذلك، أن الكيدا ليست مكانًا مناسبًا للعب الأطفال".

قال توماى الصغير وهو يلهث بشدة: "هل يجب ألا أذهب هناك إطلاقًا يا سيدى؟"

ابتسم السيد بيترسون مرة أخرى وقال: "نعم، وعندما ترى الأفيال ترقص، سيكون ذلك وقتًا مناسبًا. تعالَ إلىّ عندما ترى الأفيال ترقص، وعندئذٍ سأجعلك تدخل كل الكيدات".

انفجر الحاضرون مرة أخرى فى الضحك، لأن تلك دعابة قديمة بين صيادى الأفيال، يُقصد بها أن هذا لن يحدث على الإطلاق. هناك مساحات كبيرة خالية مخبأة بعيدًا هناك فى الغابات يسمونها "قاعات رقص الأفيال"، وتلك الأماكن يُعْثَر عليها بالمصادفة، ولم يرَ أحد على الإطلاق الأفيال ترقص. حين يتفاخر أحد قادة الأفيال بمهارته وشجاعته على القادة الآخرين يقولون له: "ومتى رأيت الأفيال ترقص؟".

أنزل كالاناج توماى الصغير، فانحنى على الأرض مرة أخرى ثم ابتعد مع والده، وأعطى قطع الآنا الفضية الأربع لوالدته التى كانت تهدهد أخاه الرضيع، وامتطى الجميع ظهر كالاناج. وسار صف الأفيال بنخيرها وصيحاتها الطويلة الحادة هابطًا طريق التل إلى السهول. كان الطريق بالنسبة للأفيال الجديدة أمرًا يبعث على النشاط والحيوية، وقد أثاروا المتاعب عند كل نهر مروا به، مما استدعى الأمر ملاطفتهم حينًا وضربهم معظم الوقت.

كان توماى الكبير ينخس كالاناج بغيظ، لأنه كان شديد الغضب، لكن توماى الصغير كان سعيدًا جدًا لدرجة تمنعه من الكلام، فقد انتبه إليه السيد بيترسون، وأعطاه نقودًا، فشعر بما يشعر به جندى متميز إذا ناداه قائده من بين الصفوف وأثنى عليه.

فى النهاية قال بنعومة لأمه: "ماذا كان السيد بيترسون يقصد بقوله رقصة الأفيال؟".

سمعه توماى الكبير وقال غاضبًا: "يقصد أنك لن تكون أبدًا واحدًا من مقتفى آثار الحيوانات على التلال.. ذاك ما كان يقصده. أوه، أنت يا من تجلس فى المقدمة، ما الذى يعوق الطريق؟".

كان هناك قائد من "آسام" يجلس على بعد فيلين أو ثلاثة فى المقدمة، التفت خلفه وصاح فى غضب: "أحضِر كالاناج إلى هنا، واجعله يضرب هذا الصغير الذى أمتطيه ليحسن التصرف. لماذا اختارنى أنا السيد بيترسون لأسير مع حميرك التى تربت فى حقول الذرة؟ هات حيوانك إلى جانبى يا توماى، ودعه ينخس بأنيابه. بحق جميع آلهة التلال، هذه الأفيال الجديدة ممسوسة، أو تشم رائحة رفاقها فى الغابة".

ضرب كالاناج الفيل الجديد فى ضلوعه حتى جعل الغازات تخرج من بطنه، وقال توماى الكبير: "لقد مسحنا التلال من الأفيال البرية فى آخر رحلة صيد. إنه فقط إهمالك فى قيادتها. هل علىَّ أن أنظم الصف كله؟".

قال القائد الآخر: "اسمعوا ما يقول! مسحنا التلال! هوو؟ هوو! أنتم حكماء جدًا يا معشر أهل السهول. أى شخص بخلاف المعاتيه الذين لم يروا فى حياتهم غابة، يعرف أن الأفيال تدرك أن موسم قيادتها إلى الأسر قد انتهى، لهذا السبب جميع الأفيال البرية هذه الليلة سوف... لكن لماذا أهدر معلوماتى على سلحفاة نهر؟".

صاح توماى الصغير بصوت مرتفع: "ماذا سيفعلون؟".

"نعم، أيها الصغير، هل تسمعنى هناك؟ حسنًا، سأخبرك لأنك تحسن التفكير. سيرقصون، لذلك يتعين على والدك، الذى مسح كل التلال وجمع كل الأفيال، أن يضاعف تثبيت أوتاده الليلة".

قال توماى الكبير: "ما هذا الكلام الفارغ؟! على مدى أربعين سنة، توليت أنا ووالدى العناية بالأفيال، ولم نسمع مطلقًا عن ذلك الرقص فى ضوء القمر".

"نعم، فإن رجل السهول الذى يعيش فى كوخ لا يعرف سوى جدران كوخه الأربعة. وعلى أية حال، دع الأفيال حرة هذه الليلة وانظر ما سيحدث. أما بالنسبة لموضوع الرقص، أنا رأيت ذلك المكان هناك. يا بابرى باب! على كم منعطف يحتوى نهر ديهانج؟ ها هو نهر آخر.. لا بد أن نجعل الحيوانات الصغيرة تَسْبَح. قف مكانك، أنت الذى فى الخلف هناك".

وبهذه الطريقة، من خلال الكلام والمشاحنات "وطرطشة" الماء عبر النهر، يجعلون مسيرتهم الأولى نوعًا من معسكر استقبال للأفيال الجديدة. لكنهم كانوا قد فقدوا أعصابهم منذ فترة طويلة.

ثم قُيِّدَت الأفيال من قوائمها الخلفية إلى أوتاد من جذوع الأشجار الضخمة، ورُبِطت الأفيال الجديدة بحبال إضافية، وكُوِّم العلف أمامها، وعاد قادة التلال إلى السيد بيترسون فى ضوء بعد الظهيرة، بعد أن أخبروا قادة السهول أن يكونوا حريصين أشد الحرص فى رعايتهم للأفيال هذه الليلة، وضحكوا عندما سألهم قادة السهول عن سبب ذلك.

اهتم توماى الصغير بإعداد عشاء كالاناج. وعند حلول المساء تجوَّل فى المعسكر فى سعادة لا توصف بالكلام، وهو يبحث عن طبلة صغيرة. الطفل الهندى عندما يمتلئ قلبه بالسعادة، لا يجرى هنا وهناك ويحدث جلبة بأسلوب فوضوى، بل يجلس متوحداً مع نفسه فى متعة شديدة. وتوماى الصغير تحدث إليه السيد بيترسون! قد يصاب بالمرض إذا لم يجد ما يبحث عنه. لكن بائع الحلوى فى المعسكر أعاره طبلة صغيرة - طبلة يمكن استخدامها باليد - وهكذا جلس، متربع الساقين، أمام كالاناج وقد بدأت النجوم تظهر على صفحة السماء، والطبلة فى حجره، وأخذ يدق عليها ويدق ويدق، وكلما فكر أكثر فى الشرف الكبير الذى حظى به زاد فى دقها، كل ذلك وهو جالس بمفرده وسط علف الفيل. لم يكن هناك نغمة ولا كلمات، لكن مجرد دق الطبلة بيده منحه السعادة. قاومت الأفيال الجديدة الحبال، وأطلقت صيحاتها الحادة الطويلة وراحت تصرخ صرخات مدوية بين وقت وآخر، وسمع توماى الصغير والدته فى المعسكر فى كوخهم تضع شقيقه الرضيع لينام وهى تغنى له أغنية قديمة - قديمة - عذبة عن الإله العظيم شيفا،

الذى أخبر ذات يوم جميع الحيوانات ما الذى ينبغى أن تأكله. إنها أغنية رقيقة تغرى الطفل بالنوم، وتقول الأبيات الأولى:

شيفا، الذى يغدق المحاصيل ويجعل الريح تهب،

يجلس فى مداخل البيوت طوال اليوم منذ عهد بعيد،

يمنح كل واحد نصيبه، من الطعام والكدح والقدر،

من الملك إلى الشحاذ، الجميع أمام بابه،

خالق كل شىء. شيفا حامينا،

ماهاديو! ماهاديو! خلق كل شىء.

النباتات الشوكية للجِمال، العلف للماشية،

وقلب الأم للرأس الناعس، يا طفلى العزيز الصغير!

واصل توماى الصغير إحساسه بالسعادة وهو يدق الطبلة عند نهاية كل بيت من الشّعر، حتى غلبه النعاس فمد جسده على العلف بجوار كالاناج. فى النهاية بدأت الأفيال تتمدد واحدًا بعد الآخر كما هى عادتها، حتى صار كالاناج الوحيد على يمين الصف الذى ظل واقفًا، وهو يتمايل ببطء من جانب لآخر، وقد مد أذنيه للأمام ليصغى لريح الليل وهى تهب ببطء شديد عبر التلال. كان الهواء مفعمًا بكل ضجيج الليل ذاك، طقطقة ساق بامبو مصطدمة بأخرى، حفيف كائن ما بين الأشجار القصيرة الصغيرة، "والخريشة" والأصوات العالية الحادة الصادرة عن طائر نصف

مستيقظ (الطيور تستيقظ فى الليل أكثر مما نتصور)، وتساقط المياه من مسافة بعيدة. نام توماى الصغير بعض الوقت، وعندما استيقظ كان ضوء القمر ساطعًا، وكان كالاناج لا يزال واقفًا وأذناه منتصبتان. التفت توماى الصغير، وسمع صوت خشخشة فى العلف، وراقب انحناءة ظهر الفيل الكبيرة التى أخفت نصف النجوم فى السماء. وعندما راقب، سمع، هناك بعيدًا جدًا، ما بدا له أنه ليس أكثر من صدى ضجة خافتة سرت عبر السكون، الـ "هوووت.. تووت" صادرة عن فيل برى. قفزت جميع الأفيال فى الصف واقفة كما لو كانت قد أصيبت بطلقة رصاص، وفى النهاية أيقظ نخيرها الفيالين النائمين، فخرجوا، ودخلوا المكان الذى كانت الأفيال مربوطة فيه بالحبال بأوتادها وهم يحملون مطارق خشبية كبيرة، وأحكموا شد هذا الحبل وتأكدوا من ربط ذاك حتى ساد الهدوء. أحد الأفيال الجديدة كاد ينتزع وتده من الأرض، فأخذ توماى الكبير السلسلة من ساق كالاناج وقيد بها قوائم ذلك الفيل الأمامية إلى الخلفية، وتناول أنشوطة من الأعشاب ولفها حول ساق كالاناج، وقال له أن يتذكر أنه ربطه بسرعة. كان يعرف أنه هو ووالده وجده قد قاموا بهذه الأمور مئات المرات من قبل. لم يجب كالاناج على الأمر بالقرقرة مثلما يفعل عادة، بل وقف ساكنًا، يتطلع بعيدًا عبر ضوء القمر، رأسه مرتفع قليلاً وأذناه مبسوطتان مثل مروحتين متجهتين نحو الانحناءات الكبيرة فى تلال جارو.

قال توماى الكبير لتوماى الصغير: "اعتنِ به إذا أصابه أرق فى الليل"، ودخل الكوخ ونام. كان توماى الصغير يوشك أن ينام هو

الآخر، عندما سمع الحبل المصنوع من ليف جوز الهند يُفَك مُصْدِرًا طقطقة خفيفة. أفلت كالاناج نفسه من وتده بقدر ما استطاع من بطء وصمت، مثلما يخرج السحاب فى السماء من مدخل الوادى، فجرى توماى الصغير خلفه بخطى سريعة وهو حافى القدمين، فى الطريق تحت ضوء القمر، وهو ينادى لاهثًا: "كالاناج! كالاناج! خذنى معك، أوه.. كالاناج!". استدار الفيل دون صوت، وخطا ثلاث خطوات كبيرة عائدًا للولد فى ضوء القمر.. أنزل خرطومة إلى الأرض، ورفعه على رقبته، وقبل أن تستقر ركبتا توماى، انساب كالاناج إلى الغابة.

كان هناك صوت صرخة حادة غاضبة من الصفوف، ثم ساد الصمت كل شىء، وبدأ كالاناج فى التحرك. بعض الأحيان تحتك باقة من الأعشاب الطويلة بجوانبه مثلما تحتك الموجة بجوانب السفينة، وبعض الأحيان يحتك عنقود من النباتات المتعرشة من الفلفل البرى بظهره، أو تصدر سيقان البامبو صريرها عندما تلمسها كتفه، لكن بين تلك الأوقات يتحرك دون صوت مطلقًا، يندفع إلى غابة جارو كما لو كان دخانًا. كان يصعد التل، لكن على الرغم من أن توماى الصغير كان يراقب النجوم من بين غصون الشجر، لم يستطع تحديد اتجاهه. ثم وصل كالاناج إلى قمة المرتقى وتوقف لحظة، ورأى توماى الصغير قمم الأشجار كلها منبسطة ومكسوة بطبقة كأنها الفراء تحت ضوء القمر إلى مسافة أميال وأميال، والضباب المختلط باللونين الأزرق والأبيض فوق النهر الممتد فى الفراغ. مال توماى للأمام وتطلع حوله، فشعر أن الغابة

مستيقظة تحته . مستيقظة ومنتعشة وصاخبة. مر خفاش بنى كبير من آكلى الفواكه بجوار أذنه، وخشخش شوك قنفد بين الأعشاب الكثيفة، وسمع فى الظلام بين جذوع الأشجار دبًا بريًا يحفر بعنف فى الأرض الدافئة المخضلة بالندى ويتشمم الأرض وهو يحفرها. ثم تكومت الأغصان الكثيفة فوق رأسه مرة أخرى، وبدأ كالاناج يهبط الوادى.. ليس بهدوء هذه المرة، بل مثل رصاصة تنطلق من ارتفاع شاهق دفعة واحدة. تحركت قوائمه الضخمة بثبات مطرد مثل "الكَبَّاسات"، ثمانى أقدام فى كل خطوة كبيرة سريعة، وصَدَرَ حفيف عن جلد الأطراف المجعد. وتمزقت الشجيرات الصغيرة القصيرة على جانبيه محدثة ضوضاء كأنها قماش يتمزق، وارْتَدَّت الشجيرات وهو ينطلق من بينها على يساره ويمينه كـ "الزنبرك"، وضربته بعنف فى خصره، والأغصان المتدلية من النباتات المتعرشة المجدولة معًا اشتبكت فى أنيابه وهو يلقى برأسه من جانب لآخر ويشق طريقه للأمام. انحنى توماى الصغير قريبًا من العنق الضخم حتى لا تسحبه الأغصان المتمايلة وتجرجره على الأرض، وتمنى لو كان فى وسعه فى تلك اللحظة العودة للصفوف مرة اخرى. ثم بدأ السير فوق النجيلة يصبح سهلاً، وأصبحت أقدام كالاناج تنغرس فيها وتسحقها وهو يخطو فوقها، وضباب الليل فى قاع الوادى يلف توماى الصغير بالبرد. كانت هناك "طرطشة" وصوت خرير الماء الجارى واندفاعه، ومشى كالاناج على قاع النهر وهو يتحسس طريقه فى كل خطوة. كان هناك صوت أعلى من صوت المياه وهى تلتف حول سيقان الفيل كالدوامة، واستطاع توماى الصغير أن

يسمع المزيد من "الطرطشة" وصرخات عالية فوق تيار مياه النهر وأسفله ـ كان هناك نخير شديد وشخير غاضب، وبدا الضباب حوله مليئًا بالظلال المتغيرة المتماوجة. قال: "حقًا!" ورفع صوته إلى حد ما وأسنانه تصطك ببعضها بعضًا: "الأفيال منطلقة الليلة، إنها الرقصة إذن!".

اندفع كالاناج خارجًا من الماء، وأخرج كل الماء من خرطومه، وبدأ يتسلق ويصعد من جديد، لكن هذه المرة لم يكن بمفرده، ولم يجد صعوبة فى شق طريقه. كان الطريق ممهدًا بالفعل، عرضه ست أقدام أمامه، حيث النباتات المنحنية فى الغابة تحاول مساعدة نفسها على أن تقف باستقامة. لا بد أن كثيرًا من الأفيال قد مرت من هذا الطريق منذ لحظات قليلة. نظر توماى الصغير خلفه.. وراءه كان هناك فيل برى كبير، عيناه الصغيرتان اللتان تشبهان عيون الخنازير ملتهبتان مثل جمرتين مشتعلتين.. كان فى تلك اللحظة يرفع نفسه من مياه النهر الضبابية. ثم انغلقت الأشجار مرة أخرى، واستمرا فى رحلتهما صاعدين، مصحوبين بالصرخات العالية الحادة وأصوات التهشيم، وصوت تحطم وتكسر غصون الأشجار حولهما من كل ناحية. فى النهاية وقف كالاناج ساكنًا بين جذعى شجرتين فى أعلى مكان على قمة التل. كانا جزأين من دائرة من الأشجار التى نمت حول مساحة غير منتظمة الشكل تصل إلى ثلاثة أو أربعة أكرات (الأكر مقياس مساحة يساوى ٤٨٤٠ ياردة أو أربعة آلاف متر مربع)، وفى كل هذه المساحة، بقدر ما استطاع توماى الصغير أن يرى، قد سُوِّيت الأرض تمامًا كما لو كانت

مرصوفة. بعض الأشجار نمت فى المنتصف، لكن قشرتها قد انتُزِعت منها، وظهر خشبها الأبيض الداخلى كله ساطعًا ومصقولاً فى بقع الضوء المنعكسة من ضوء القمر. كانت هناك نباتات متعرشة مدلاة من الأغصان العالية، وكؤوس أزهار النباتات المتعرشة الكبيرة شمعية البياض مثل اللبلاب مدلاة لأسفل تغط فى نوم عميق، لكن داخل حدود المساحة الخالية لا يوجد نصل ورقة خضراء. لا شىء سوى الأرض التى وطئتها الأقدام. انعكس عليها ضوء القمر فأضفى عليها لونًا رماديًا مثل لون الحديد، فيما عدا بعض الأفيال الواقفة فيها، وظلالها السوداء كالحبر. نظر توماى الصغير حوله، وأمسك أنفاسه، تكاد عيناه أن تخرجا من محجريهما. وبينما هو يحدق النظر، ظهر المزيد والمزيد والمزيد من الأفيال قادمين من بين جذوع الأشجار. كان توماى الصغير لا يجيد العد أكثر من عشرة، فراح يعد على أصابعه مرات ومرات حتى فَقَدَ القدرة على جمع العشرات التى أحصاها، وبدأ رأسه يدور. سمعهم قادمين من خارج الأرض الخالية الواسعة، تصطدم أجسادهم الضخمة بالأشجار الصغيرة القصيرة، وهم يشقون طريقهم صاعدين من جانب التل. لكن بمجرد وصولهم داخل الأرض الواسعة الخالية بدءوا يتحركون مثل الأشباح.

كانت هناك أفيال ذكور برية بيضاء، وأوراق أشجار متساقطة، وثمار جوز الهند وأغصان ملقاة على تجاعيد أعناقهم والأجزاء الخارجية من آذانهم. أما الإناث فكانت بدينة بطيئة الحركة والسير، وبصحبتها الصغار القلقون، يختلط سواد بشرتهم باللون

الوردى، لا يصل ارتفاعهم إلى أكثر من ثلاث أو أربع أقدام وهم يجرون تحت بطون أمهاتهم. أما الأفيال الشابة فقد بدأت أنيابها تظهر حديثًا، وهم يشعرون بالفخر الشديد بها. أما الإناث العجائز فأجسادهن طويلة وهزيلة وضامرة ووجوهن مجعدة وقلقة، بينما تبدو الخشونة والوحشية على العجائز من الذكور، وأجسامهم ممتلئة بالندوب من الكتف حتى الخصر وآثار الضرب والجروح من المعارك الماضية، وقشور القذارة التى تكونت على جلودهم من احتكاكهم الكثير بالوحل تتساقط من أكتافهم، وأحدهم كان نابه مكسورًا وبدت عليه بوضوح علامات الضرب الشديد، وعلى جنبه كشط جلد مروع من أثر براثن نمر. كانوا يقفون الرأس مواجه للرأس، أو يسيرون جيئة وذهابًا ثنائيات، أو يهتزون ويتمايلون كل على حدة. عشرات وعشرات من الأفيال. كان تومای يعرف أنه طالما هو فى مكانه فوق رقبة كالاناج لا يتحرك لن يصيبه أذى، لأنه حتى أثناء الاندفاعات والتدافع فى قيادة الكيدا لا يمد أى فيل برى خرطومه ويسحب رجلاً من فوق عنق فيل مروض. هذه الأفيال لا تفكر هذه الليلة فى البشر. وفى اللحظة التى بدءوا فيها، مدوا آذانهم للأمام، لأنهم سمعوا صلصلة ساق مربوط بها الحديد فى الغابة، لكن لم يكن الأمر سوى بودمينى فيلة السيد بيترسون المدللة. توقفت صلصلتها، وعلا نخيرها وشخيرها أعلى التل. لا بد أنها قد حطمت أوتادها، وأتت مباشرة من معسكر السيد بيترسون. ورأى تومای الصغير فيلاً آخر، لم يعرفه، بحبال بالية على ظهره وصدره. هو أيضًا، لا بد أنه قد هرب من معسكر ما فى التلال القريبة.

فى النهاية لم يعد هناك صوت للمزيد من أى أفيال تتحرك فى الغابة. ودار كالاناج خارجًا من مكانه بين الأشجار، ودخل إلى منتصف حشد الأفيال وهو يقرقر ويقرقر، وبدأت الأفيال كلها تتحدث بلغاتها الخاصة، وتتحرك فى المكان. أما توماى الصغير فقد ظل قابعًا فى مكانه ينظر إلى العشرات والعشرات من الظهور العريضة والآذان المفلطحة التى تتحرك للخلف والأمام، والجذوع المتقاذفة، والعيون الصغيرة التى تدور فى المكان. سمع صوت "قرقعة" الأنياب وهى تصطدم بأنياب أخرى دون قصد، وحفيف تلامُس الأفيال وهى تتزاوج معًا، واحتكاك الجوانب والأكتاف الضخمة فى الزحام، وأصوات الضربات المتوالية والمستمرة للذيول العديدة. ثم غطت القمر سحابة، وهكذا جلس توماى الصغير فى ظلام شديد. لكن التدافع والاصطدام والقرقرة المتواصلة استمرت كما هى. أدرك أن الأفيال توجد فى كل جهة حول كالاناج، وأنه لا توجد فرصة لجعله يعود ويخرج من بين هذا الحشد من الأفيال، فأخذت أسنانه تصطك وجسده يرتعش. على الأقل، هناك فى الكيدا ضوء المشاعل والصيحات، لكنه هنا وحده تمامًا فى الظلام، وقد حدث مرة أن جاء خرطوم ولمسه فى ركبته. عندئذٍ أطلق أحد الأفيال صيحة طويلة حادة، وفى خلال خمس أو عشر ثوانٍ مروعة كان الجميع يقلدونه. هطل الندى من فوق الأشجار على الظهور غير المرئية مثل المطر، وبدأت ضوضاء كئيبة كالهدير.. لم تكن شديدة الارتفاع فى البداية، ولم يستطع توماى الصغير أن يعرف ما هو هذا الصوت، لكنها ازدادت ارتفاعًا أكثر وأكثر، ورفع كالاناج

إحدى قوائمه الأمامية ثم الأخرى، ثم هبط بها على الأرض - واحد اثنان، واحد اثنان، بثبات مطرد كطرقات المطرقة. كانت الأفيال فى تلك اللحظة تسحق الأرض بأقدامها معًا، وبدا الأمر مثل نقر طبول الحرب عند فتحة كهف. تساقط الندى من فوق الأشجار حتى لم تبقَ قطرة واحدة لم تسقط بعد، واستمر الهدير، واهتزت الأرض وارتجّت تحت أقدام الأفيال، ووضع توماى الصغير يديه على أذنيه حتى لا يسمع، لكنه كان صريرًا هائلاً يخترق سمعه.. هذا الدق لمئات الأقدام الثقيلة على الأرض البكر. مرة أو مرتين فقط استطاع أن يسمع كالاناج والآخرين جميعًا يتحركون بسرعة للأمام فى خطوات واسعة قليلة، وتحولت الضربات الثقيلة إلى صوت سحق أشياء خضراء مليئة بالعصارة.. لكن فى خلال دقيقة أو دقيقتين عاد مرة أخرى هدير الأقدام على الأرض الصلبة. كانت هناك شجرة بالقرب منه فى مكان ما تتحطم وتئن. مد ذراعه وتحسس قشرتها، لكن كالاناج تحرك للأمام، وهو لا يزال يدوس الأرض ويدقها بعنف، ولم يعرف توماى الصغير أين هو بالضبط فى المساحة الخالية. لم يعد هناك صوت للأفيال، إلا مرة واحدة عندما تصرخ اثنان أو ثلاثة من الأفيال الصغيرة معًا. ثم سمع صوت دق الأرض وخطوات ثقيلة واستمر الطنين. لا بد أن ساعتين كاملتين قد مرتا، وأصبحت كل أعصاب توماى الصغير تؤلمه، لكنه أدرك من رائحة هواء الليل أن الفجر يقترب.

أشرق الصباح كصفحة كبيرة شاحبة صفراء اللون وراء التلال الخضراء، وتوقف الهدير مع أول شعاع للشمس، كما لو كان ضوء

الشمس بمثابة أمر بالتوقف. قبل أن يتمكن توماى الصغير من إخراج كل تلك الأصوات من رأسه، وحتى قبل أن يغير من وضعه، لم يعد هناك ولا فيل واحد على مرمى بصره إلا كالاناج، وبودمينى، والفيل ذو الحبال المهترئة، ولم يعد هناك علامة أو حفيف أو همسة أسفل جوانب التلال تدل على المكان الذى ذهب إليه الآخرون. راح توماى الصغير يحدق ببصره مرات ومرات. الأرض الواسعة الخالية كما يتذكرها، اتسعت مساحتها فى الليل. المزيد من مجموعات الأشجار تقف فى منتصفها، لكن الأشجار الصغيرة القصيرة وأعشاب الغابة على الجانبين قد ابتعدت للوراء. حملق توماى الصغير مرة أخرى. الآن أدرك مغزى دق الأرض. كانت الأفيال تفسح لنفسها المزيد من المساحة الخالية.. دقت بأقدامها العشب الجاف والأغصان الطرية وحولتها إلى نفايات، والنفايات تحولت إلى شظايا، والشظايا تحولت إلى ألياف صغيرة، والألياف الصغيرة تحولت إلى أرض صلبة.

قال توماى الصغير وعيناه ثقيلتان من شدة الحاجة للنوم: "واوا! كالاناج، سيدى، دع بودمينى تحرسنا حتى نذهب إلى معسكر السيد بيترسون، وإلا سأسقط من فوق عنقك".

رأى الفيل الثالث الفيلين يبتعدان، فأطلق صوتًا عاليًا، ودار حول نفسه، ثم اتخذ طريقه. ربما ينتمى لمؤسسة أحد الملوك المحليين الصغار، على بعد خمسين أو ستين أو حتى مائة ميل.

بعد ساعتين كان السيد بيترسون يتناول طعام الإفطار المبكر، وأفياله، التى تم تقييدها بالأمس تقييدًا مضاعفًا، بدأت تطلق

صرخاتها. أما بودمينى، ملوثة بالوحل حتى كتفيها، وبصحبتها كالاناج، متقرح القدمين بشدة، فكانا يسيران إلى داخل المعسكر متثاقلين. توماى الصغير وجهه شاحب وبه آثار كدمات، وشعره ممتلئ بأوراق الشجر ومبلل بالندى، لكنه حاول أن يلقى التحية على السيد بيترسون، فصاح بضعف: "الرقصة - رقصة الأفيال! رأيتها، و- أنا أموت!" وأثناء جلوس كالاناج، انزلق توماى الصغير من فوق عنقه فى ضعف شديد.

لكن لأن الأطفال المحليين ليست لديهم أعصاب تستحق أن نتحدث عنها، فإنه فى خلال ساعتين كان ممددًا بمنتهى الرضا والقناعة على أرجوحة السيد بيترسون الشبكية، ومعطف السيد بيترسون الخاص بالصيد تحت رأسه، وكان قد تناول كوب لبن دافئ، وقليلاً من البراندى، وطبق كينين، بينما جلس صياد الغابة ذو الشعر الأشيب المخيف على مسافة ثلاث أقدام منه ينظر إليه كما لو كان ينظر إلى شبح. لقد حكى له حكايته فى كلمات موجزة، مثل أى طفل، واختتم كلامه بقوله:

"والآن، إذا كنت أكذب عليك فى كلمة واحدة، أرسِل الرجال ليروا بأنفسهم، وسوف يجدون أن قطيع الأفيال قد وطئ المزيد من الأرض فى المكان الذى يرقصون فيه، وسيجدون عشرة أفيال وعشرة، والمزيد من العشرات، آثار أقدامهم تؤدى إلى مكان الرقص ذاك. لقد صنعوا المزيد من المساحة الخالية بأقدامهم. لقد رأيتهم.. كالاناج أخذنى إلى هناك، وقد رأيت بعينىّ، وكالاناج أيضًا قدماه متعبتان جدًّا!".

تمدد توماى الصغير ونام طيلة ما بعد الظهيرة والغروب، وأثناء نومه تتبع السيد بيترسون وماشوا آبا آثار أقدام الفيلين لمسافة خمسين ميلاً عبر التلال. قضى السيد بيترسون ثمانية عشر عامًا فى صيد الأفيال، ولم يعثر على مكان لرقص الأفيال إلا مرة واحدة. لم يكن ماشوا آبا فى حاجة للنظر مرتين فى المساحة الخالية ليدرك ما حدث فيها، أو أن "يخربش" بأصبع قدمه فى الأرض المليئة بقشرة من الوحل الجاف المدكوك.

قال: "الطفل يقول الحقيقة، كل هذا حدث بالأمس، ولقد أحصيت آثار الأقدام التى عبرت النهر فوجدتها سبعين. انظر يا سيد، هنا قَطَعَت ساق بودمينى المربوطة بالحديد لحاء تلك الشجرة! نعم، إنها كانت هنا هى أيضا". نظر كل منهما للآخر، ثم نظرا حولهما إلى أعلى وأسفل، وتعجبا، لأن أساليب الأفيال كانت أبعد من حكمة أى إنسان وأبعد من فهمه، سواء كان أبيض أو أسود.

قال ماشوا آبا: "على مدى خمس وأربعين سنة، اتبع سيدى الفيل، ولم أسمع مطلقًا أن طفل أى واحد منا قد رأى ما رآه هذا الطفل. لكن بحق جميع آلهة التلال، إنه.. ماذا يمكن أن نقول؟"، وهز رأسه.

حين عادا إلى المعسكر كان وقت وجبة المساء. أكل السيد بيترسون بمفرده فى خيمته، لكنه أصدر الأوامر أن يقدم للعاملين فى المعسكر خروفين وبعض الدجاج، وتُضاعف كذلك كمية الدقيق

والأرز والملح، لأنه كان يعرف أنهم مقدمون على احتفال. جاء توماى الكبير بخطا سريعة من المعسكر فى السهول ليبحث عن ولده وفيله، وعندما وجدهما نظر إليهما كأنه يخاف منهما. وأقيم الاحتفال قرب نيران المعسكر المشتعلة أمام صفوف الأفيال المقيدة فى أوتادها، وكان توماى الصغير هو بطل كل تلك الاحتفالات. أما صيادو الأفيال السمر الكبار، ومقتفو الأثر وقادة الأفيال ورابطو الحبال والرجال الذين يعرفون كل أسرار ترويض الأفيال البرية، فقد مَرَّروه بينهم من واحد لآخر، وعَلَّموا جبينه بدم أخذوه من صدر ديك برى مذبوح توًا، ليشهدوا أنه ينتمى للغابة وأنه الأكثر خبرة وحرية فى كل الغابات.

وفى النهاية، حين خبت النيران، فإن الضوء الأحمر المتوهج من الخشب المحترق، جعل الأفيال تبدو وكأنها قد غمست فى الدم هى الأخرى. ماشوا آبا، رئيس جميع قادة الأفيال فى كل الكيدات. ماشوا آبا، هو الوجه الآخر للسيد بيترسون، الذى لم ير طريقًا ممهدًا على مدى أربعين سنة، ماشوا آبا، الذى كان عظيم الشأن لدرجة أنه ليس له اسم آخر سوى "ماشوا آبا". وثب على قدميه، وتوماى الصغير مرتفع فى الهواء فوق رأسه، وصاح: "اسمعوا، يا إخوتى. اسمعوا أيضًا، أنتم يا سادتى فى الصفوف هناك، لأنى أنا، ماشوا آبا، أنا أتحدث! هذا الصغير لن يُدْعى بعد اليوم توماى الصغير، بل توماى صديق الأفيال، مثلما أُطلق على جده الأكبر من قبله. ما لم يرَه رجل على الإطلاق رآه هو عبر ليلة طويلة، وقد أيده قطيع الأفيال وآلهة الغابات. سيصبح مقتفى أثر له شأن عظيم،

وسيصبح أيضًا أعظم منى، حتى أنا، ماشوا آبا! سيتبع الأثر الجديد، والأثر الذى يتركه بول الحيوانات، والأثر المختلط بغيره، بعينين ثاقبتين! لن يصيبه الأذى فى الكيدا حين يجرى تحت بطون الأفيال البرية ليربطها. وإذا انزلق أمام أقدام فيل مهاجم ذكر، سيعرف الفيل الذكر من هو ولن يسحقه. آه! يا سادتى فى السلاسل"... دار حول صف الأوتاد. "هنا الصغير الذى رآكم ترقصون فى أماكنكم الخفية. المشهد الذى لم يرَه رجل على الإطلاق! امنحوه الشرف يا سادتى! سلام يا أطفالى. قدموا التحية لتوماى صديق الأفيال! جونجا برشاد، آهاااا هيرا جوج، بيرشى جوج، كوتار جوج، آهاا بودمينى. أنت رأيته فى الرقصة، وأنت أيضًا يا كالاناج، لؤلؤتى بين الأفيال! آهاااا أنتما معًا! إلى توماى صديق الأفيال. برافوا".

ومع آخر صيحة برية، رفع جميع الأفيال خراطيمهم حتى لمست أطرافها جباههم، وانطلقوا فى تحية كبيرة. جلجلت أقدامهم تدق الأرض بصوت مثل أصوات طبول النصر التى لا تُقرع إلا لنائب ملك الهند، وهى تحية الكيدا!.

كل هذا كان من أجل خاطر الصغير توماى، الذى رأى ما لم يرَه رجل من قبل أبدًا. رقصة الأفيال فى الليل وهو بمفرده فى قلب تلال جارو!.

شيفا وحشرة الجندب

الأغنية التى غنتها والدة توماى لرضيعها

شيفا، الذى يغدق المحاصيل ويجعل الريح تهب،

يجلس فى مداخل البيوت طوال اليوم منذ عهد بعيد،

يمنح كل واحد نصيبه من الطعام والكدح والقدر،

من الملك الجالس على عرشه إلى الشحاذ الجالس أمام البوابة

خالق كل الأشياء - شيفا حامينا.

ماهاديو! ماهاديو! خلق كل شىء -

النباتات الشوكية للجمل، العلف للبقرة

وقلب الأم للرأس الناعس، يا طفلى الصغير!

القمح منحه للأغنياء، وحبوب الدُّخن للفقراء،

فتات الطعام لرجال الدين الذين يتسولون من باب لباب

الماشية للنمر، واللحم الفاسد للحدأة،

الحيوانات الممزقة والعظام للذئاب الشريرة دون مأوى فى الليل

لم يخلق شيئًا عبثًا، ولم ينظر لأحد باحتقار .

بارباتى إلى جواره تراقبهم قادمين ذاهبين،

فكرت أن تخدع زوجها، مما جعل شيفا مدعاة للسخرية،

سرقت الجندب الصغير وأخفته فى صدرها!

هكذا احتالت عليه، شيفا حامينا

ماهاديو! ماهاديو! التفت وانظر

الجِمال مرتفعة، الأبقار ثقيلة

لكن هذا أصغر الكائنات الصغيرة، يا طفلى العزيز!

عندما انتهى توزيع الأقدار، قالت ضاحكة:

"يا سيد ملايين الأفواه، هل يوجد فم جائع؟"

أجابها شيفا ضاحكًا: "كل واحد أخذ نصيبه،

حتى ذلك الصغير، المخبأ قرب قلبك".

أخرجته من صدرها، بارباتى اللصة،

رأت أصغر الكائنات الصغيرة يقرض نبتة طازجة ..

رأت وخافت، وتعجبت، تلت صلاتها لشيفا،

الذى يمنح الجسد لكل كائن حى
هو خالق كل الأشياء - شيفا حامينا،
ماهاديو! ماهاديو! خلق كل شىء -
النباتات الشوكية للجمل، العلف للبقرة،
وقلب الأم للرأس الناعس، يا طفلى العزيز!

خدم الملكة

يمكنك أن تجعلها تنجح بالعناد أو بقاعدة بسيطة تتكون من ثلاثة أشياء..

لكن طريقة التوأم ليست طريقة اثنين متشابهين.

يمكنك أن تلفها، يمكنك أن تديرها، يمكنك أن تطويها حتى تسقط،

لكن طريقة بيلى وينكى ليست طريقة وينكى بوب!

ظلت الأمطار تهطل بغزارة لمدة شهر كامل - تهطل على معسكر به ثلاثون ألف رجل، وآلاف الجمال، والأفيال، والخيول، والثيران والبغال ,كلها معًا فى مكان يسمى روالبيندى، ليستعرضها نائب ملك الهند - كان يستقبل زيارة من أمير أفغانستان - وهو ملك غليظ لبلد شديد الهمجية. وقد أحضر الأمير معه لحراسته ثمانمائة رجل وخيولاً لم ترَ معسكرًا أو قاطرة قط فى حياتها من قبل - رجال متوحشون وخيول متوحشة من مكان ما فى أعماق آسيا الوسطى.

كل ليلة تحرص مجموعة من تلك الخيول على فك الحبال التى تربط قوائمها وتفر مذعورة فى أرجاء المعسكر فى الوحل والظلام، أو تفك الجمال حبالها وتجرى وتسقط فوق حبال الخيام.. ويمكنك أن تتصور كم كان هذا مثيرًا لسعادة رجال يحاولون النوم! كانت خيمتى بعيدة عن صفوف الجمال، وظننت أنها آمنة، لكن ذات ليلة أدخل شخص رأسه فى الخيمة وصاح: "اخرج، بسرعة! إنهم قادمون! لقد ضاعت خيمتى!".

عرفت مَن المقصودون بـ "إنهم"، لذلك ارتديت حذائى ذا الرقبة ومعطفى الواقى من المطر وخرجت فى الوحل. الثعلبة الصغيرة، ثعلبتى الذكية، خرجت من الناحية الأخرى من الخيمة، ثم بعد ذلك حدث الزئير والجأر والبقبقة.. ورأيت الخيمة، وعمودها ينهار، وقد بدأت تتطاير فى الهواء مثل شبح مجنون، واندفع جمل يتخبط فيها. ورغم أننى كنت مبللاً وحانقًا، لم أتمالك نفسى من الضحك. ثم جريت لأننى لم أعرف كم عدد الجمال التى ربما تكون قد انفلتت من قيودها. وقبل مرور فترة طويلة كنت قد ابتعدتُ عن مرمى بصر المعسكر، وأخذت أشق طريقى فى الوحل. فى النهاية سقطت على مؤخرة مدفع، وأدركت عندئذٍ أننى فى مكان ما قرب صفوف سلاح المدفعية حيث تُكَوّم المدافع فى الليل. ولأننى لم أرغب فى المزيد من التوغل فى المطر والظلام، وضعت معطفى الواقى من المطر على فوهة أحد المدافع، وقمت بإعداد كوخ بسيط باثنين أو ثلاثة مدكات وجدتها، ورقدت بجوار مؤخرة مدفع آخر، وأنا أتساءل أين ذهبت ثعلبتى، وأين أنا. فى اللحظة التى استعددت فيها للنوم

سمعت خشخشة عُدَّة حرب ونخيرًا، ومر بى بغل يهز أذنيه المبللتين. كان يتبع كتيبة المدفعية، لأنى سمعت خشخشة الأطواق والحلقات والسلاسل وأشياء أخرى فوق سرجه. هذه المدافع تتكون من جزأين يتم وصلهما معًا عند الاستخدام. يصعدون بها الجبال، فى أى مكان يمكن للبغل أن يعثر فيه على طريق، وهى بغال شديدة النفع للقتال فى البلاد الصخرية. وراء البغل كان ثمة جمل يخوض وينزلق فى الوحل بأخفافه الكبيرة اللينة، وعنقه يهتز للأمام والخلف مثل عنق دجاجة ضلت طريقها. لحسن الحظ كنت أجيد لغة الحيوانات بدرجة كبيرة . ليست الحيوانات المتوحشة، إنما لغة حيوانات المعسكر بالطبع . حيث تعلمت من المواطنين المحليين ماذا تقول الحيوانات. لا بد أنه الجمل الذى دخل فى خيمتى، لأنه نادى على البغل وقال له: "ماذا سأفعل؟ إلى أين أذهب؟ لقد اشتبكت مع" شىء أبيض " كان يتمايل، ثم أخذ عصا وضربنى بها على عنقى.. (كان هذا الشىء عمود خيمتى المكسور، وقد سعدت بمعرفة ذلك) هل نستمر فى السير هكذا؟".

قال البغل: "أوه، لقد كنت أنت إذن، أنت وأصدقاؤك الذين أزعجتم المعسكر؟ حسنًا. ستُضْرَبون بسبب ذلك فى الصباح، لكن ربما ينبغى علىّ أيضًا أن أعطيك شيئًا على الحساب الآن".

سمعت صلصلة عُدَّة الحرب حين تراجع البغل للوراء ورفس الجمل رفستين فى ضلوعه أحدثتا صوتًا مثل قرع الطبول، ثم قال: "فى المرة القادمة ستقوم بشىء أفضل من الجرى بين بغال المدفعية

فى الليل والصياح : لصوص وطلقات!.. رصاص!.. اجلس ودع رقبتك الحمقاء تكف عن الحركة".

انحنى الجمل مثلما تفعل الجمال، وجلس على قائمتيه الخلفيتين وهو يئن. كان هناك وقع حوافر منتظم على الأرض فى الظلام، وخبب على نحو منتظم لأحد الخيول الكبيرة التابعة للجيش كما لو كان فى موكب، وقفز فوق الجزء الخلفى للمدفع، وحط بالقرب من البغل.

قال وهو ينفخ من منخاريه: "إنه أمر مُخْزٍ.. تلك الجمال اخترقت صفوفنا مرة أخرى. للمرة الثالثة هذا الأسبوع. كيف يستطيع حصان أن يحافظ على حالته الصحية إذا لم يُسمح له بالنوم؟ مَن هنا؟".

قال البغل: "أنا بغل جر الجزء الخلفى من المدفع رقم اثنين فى كتيبة المدفعية الأولى، والآخر واحد من أصدقائك، إنه أيقظنى أيضًا. من أنت؟".

"رقم خمسة عشر، "كتيبة إى"، حامل الرمح رقم تسعة.. حصان ديك كانليف. قف هناك قليلاً".

قال البغل: "أوه، عذرًا، الظلام يعوق رؤيتى. ألا تصاب تلك الجمال بالمرض من أى شىء؟ لقد سرت خارجًا من صفوفى لأحصل على قليل من السلام والهدوء هنا".

قال الجمل بتواضع: "سادتى! لقد انتابتنا أحلام سيئة فى الليل، وشعرنا بخوف شديد. أنا مجرد جمل يحمل الأمتعة فى كتيبة المشاة المحلية التاسعة والثلاثين، وأنا لست شجاعًا مثلكم يا سادتى".

قال البغل: "إذن لماذا لا تبقى فى مكانك وتحمل الأمتعة فى كتيبة المشاة المحلية التاسعة والثلاثين، بدلاً من الجرى فى كل أرجاء المعسكر؟".

قال الجمل: "لقد كانت أحلامًا سيئة جدًا، أنا آسف. اسمع! ما هذا؟ هل سنجرى مرة أخرى؟".

قال البغل: "اجلس، وإلا ستصطدم سيقانك الطويلة بالمدافع". حرك إحدى أذنيه وأصغى ثم قال: "ثيران! ثيران مدافع. بشرفى أنت وأصدقاؤك أيقظتم المعسكر كله.. إن الأمر يستغرق وقتًا طويلاً من الإثارة لإفزاع ثور المدافع".

سَمِعْتُ سلسلة تُسْحَب على الأرض، ومجموعة كبيرة من الثيران البيضاء قادمة معًا تَسْحَب كتفًا لكتف مدافع ثقيلة حين تمتنع الأفيال عن الاقتراب من خط النار. وكان هناك بغل مدافع آخر يكاد يدوس على السلسلة التى تقيده، ينادى بصوت عالٍ على "بيلى".

قال البغل العجوز لحصان الكتيبة: "إنه واحد من مجندينا الجدد، إنه ينادينى. أنا هنا أيها الصغير. كف عن الصراخ.. الظلام لم يؤذِ أى شخص حتى الآن".

ربضت الثيران معًا وبدأت تمضغ الطعام المجتر فى معدتها، وتكوم البغل الصغير بجوار بيلى.

قال: "أولئك الأشخاص مخيفون ومرعبون يا بيلى! لقد جاءوا إلى صفوفنا واخترقوها أثناء نومنا. هل تعتقد أنهم سيقتلوننا؟".

قال بيلى: "أفكر بمنتهى الجدية أن أركلك ركلاً شديدًا. إن فكرة وجود بغل فى الرابعة عشرة من عمره له مثل تدريبك، تجلب العار على كتيبة المدفعية أمام هذا الرجل النبيل!".

قال حصان الكتيبة: "بلطف، بلطف! تذكر أنهم يحبون دائمًا أن يبدءوا هكذا. فى المرة الأولى التى رأيت فيها رجلاً (كان هذا فى أستراليا عندما كنت فى الثالثة من عمرى) ظللت أجرى نصف يوم، ولو كنت رأيت جملاً، لظللت أجرى كذلك".

تقريبًا كل الخيول التى يحضرونها لسلاح الفرسان الإنجليزى، يتم جلبها إلى الهند من أستراليا، ويقوم رجال الجيش بترويضها بأنفسهم.

قال البغل العجوز بيلى: "هذا حقيقى تمامًا، كف عن الحركة أيها الصغير. فى المرة الأولى التى وضعوا فيها عُدَّة الحرب الكاملة بكل سلاسلها فوق ظهرى، وقفت على ساقى الأماميتين ورفست كل قطعة منها. لم أكن قد تعلمت العلم الحقيقى للرفس وقتها، لكن رجال الكتيبة قالوا إنهم لم يروا فى حياتهم شيئًا كهذا".

قال البغل الصغير: "لكن هذا لم يكن عُدة حرب أو أى شىء يصلصل.. أنت تعرف أنى لا أهتم بهذه الأصوات الآن يا بيلى. لقد

كانوا رجالاً مثل الأشجار، وقد تساقطوا فوق الصفوف وتحتها وهم يبقبقون، وانقطع الحبل الذى على رأسى، ولم أستطع العثور على سائقى، ولا عليك يا بيلى، لذلك أخذت أجري هكذا - مع هؤلاء النبلاء".

قال بيلى: "يااااه! بمجرد أن سمعت أن الجمال انفكت من قيودها، خرجت بمفردى على مسئوليتى الشخصية. عندما يطلق بغل من بغال الكتيبة - كتيبة المدفعية - على ثيران المدافع لقب نبلاء، لا بد أن يكون فى حال سيئة للغاية - مَن أنتما يا مَن تجلسان على الأرض هناك؟".

مَضَغَ ثورا المدافع الطعام فى فميهما، وأجاب الاثنان معًا: "الثور السابع من الفئة الأولى فى كتيبة المدافع الكبيرة. كنا نائمين حين أتت الجمال، لكن عندما داسوا علينا بأقدامهم استيقظنا وخرجنا. من الأفضل أن تتمدد فى هدوء فى الوحل من أن يقلقوك ويزعجوك فى فراش ناعم. لقد أخبرنا صديقك هنا (يقصدان البغل الصغير) أنه لم يكن ثمة ما يخافه، لكنه كان يعرف الكثير مما جعله يفكر بشكل مختلف. واه!".

واستمرا فى المضغ.

قال بيلى: "هذا يحدث بسبب الخوف.. لقد أثرتَ سخرية الثيران منك.. أتمنى أن يعجبك هذا أيها الصغير".

اصطكت أسنان البغل الصغير، وسمعته يقول شيئًا عن عدم خوفه من أى ثور عجوز بدين فى العالم، لكن الثيران لم تفعل أكثر من طقطقة قرونها معًا واستمرت فى المضغ.

قال حصان الكتيبة: "بعد أن كنتَ خائفًا لا تكن الآن غاضبًا. هذا أسوأ نوع من الجبن، أعتقد أنه يمكن أن نغفر لأى واحد أن يخاف فى الليل إذا رأى أشياء لا يفهمها. لقد فررنا من أوتادنا مرات ومرات، أربعمائة وخمسون منا، فقط لأن مجندًا جديدًا أحب أن يحكى حواديت عن "الثعابين السوطية" فى وطنه أستراليا، مما جعلنا كلنا خائفين حتى الموت من النهايات المفكوكة للحبال المربوطة إلى رؤوسنا".

قال بيلى: "هذا يحدث دائمًا فى المعسكر. أنا نفسى لست فوق السحق بالأقدام لمجرد متعة الرجل، عندما أظل حبيسًا لا أخرج لمدة يوم أو يومين... لكن ماذا تفعل عندما تكون فى خدمة الجيش؟!".

قال حصان الكتيبة: "أوه، هذا يتطلب زوجًا مختلفًا تمامًا من النعال (الحدوة) الجديدة، عندئذٍ يكون ديك كنليف فوق ظهرى، يخبط أجنابى بركبتيه، وكل ما علىّ أن أفعله أن أراقب موضع رِجلى، وأحافظ على وضع قائمتى الخلفيتين تحتى، وأن أكون متنبهًا مع لجامى".

قال البغل الصغير: "ما معنى أن تكون متنبهًا مع لجامك؟".

قال حصان الجند فى احتقار: بحق "الحجر الكريم الأزرق"، هل تقصد أن تقول إنك لم تتعلم أن تكون متنبهًا مع لجامك وأنت تؤدى عملك؟! كيف تؤدى أى شىء إلا إذا استطعت أن تدور فى الحال حين يضغط سير اللجام على عنقك؟ إنها تعنى الحياة أو الموت

للرجل الذى يمتطى ظهرك، وبالطبع الحياة أو الموت لك أيضًا. وإلا إذا استطعت أن تستدير بساقيك الخلفيتين لحظة أن تشعر أن اللجام يضغط على عنقك. وإذا لم يكن لديك مساحة للالتفاف، انتصب على قائمتيك الخلفيتين قليلاً ودر عليهما. هذا معنى أن تكون متنبهًا مع لجامك".

قال البغل بيلى بوقار: "نحن لم نتعلم هذه الطريقة، تعلمنا أن نطيع الرجل الذى يمتطى ظهورنا: نتوقف حين يقول لنا، ونتحرك حين يقول لنا. أعتقد أنه نفس المبدأ. والآن، مع كل هذا الشغل الرائع اللطيف، والوثب الذى لا بد أن يكون سيئًا جدًا بالنسبة لقوائمك، ماذا تفعل عندما تكون فى الخدمة؟".

قال حصان الكتيبة: "الأمر يتوقف على الظروف.. عامة أنا مجبر أن أسير وسط كثير من الصياح، رجال لهم شعر كثيف يحملون السكاكين. سكاكين براقة طويلة (يقصد السيوف)، أسوأ من سكاكين الطبيب البيطرى. وعلىّ أن أراعى أن حذاء ديك عندما يلمس حذاء الرجل المجاور فإن ساقه لا تتحطم. أستطيع أن أرى رمح ديك على اليمين بعينى اليمنى، وأعرف أننى آمن. ولا يعنينى الرجل أو الحصان الذى يتصدى لديك ولى عندما نكون فى عجلة".

قال البغل الصغير: "هل السكاكين تؤذى؟".

"حسنًا، ذات مرة أُصبت بجرح فى صدرى، لكنها لم تكن غلطة ديك ...".

قال البغل الصغير: "يعنينى كثيرًا أن أعرف غلطة مَن إذا كانت تؤذى!".

قال حصان الكتيبة: "لا بد أن الأمر يعنيك كثيرًا حقًا.. إذا لم تكن تثق فى رَجُلك ربما يتوجب عليك أن تهرب فى الحال. هذا ما تفعله بعض جيادنا، وأنا لا ألومها. كما كنت أقول، لم تكن غلطة ديك. كان الرجل ممددًا على الأرض، وأنا مددت جسمى حتى لا أدوسه، أما هو فضربنى وأصابنى. فى المرة القادمة علىّ أن أعبر الرجل الممدد على الأرض وأخطو فوقه.. بشدة!".

قال البغل بيلى: "هاااه! هذا يبدو فعلاً أحمق. السكاكين أشياء قذرة فى أى وقت. الشىء الصحيح هو أن تتسلق جبلاً وفوقك سرج متوازن جيدًا، تتشبث بالجبل بقوائمك الأربع وأذنيك كذلك، تزحف وتتسلل وتتلوى، حتى تتقدم عن أى شخص آخر مئات الأقدام، وتصل إلى حافة صخرية بها مساحة مناسبة لتضع فوقها حوافرك. عندئذٍ تقف ساكنًا فى هدوء... لا تطلب أبدًا من أى رجل أن يتحكم فى رأسك. أيها الصغير حافظ على هدوئك أثناء وضع المدافع معًا، ثم راقب تساقط دانات المدافع الصغيرة على قمم الأشجار بعيدًا هناك إلى أسفل".

قال حصان الكتيبة: "هل سبق أن تعثرت؟".

قال بيلى: "يقولون إنه عندما تزل رجل بغل يمكنك أن ترى أذنك! [فى الأصل: يمكنك أن تقسم أذن الدجاجة] . بين وقت وآخر ربما يوجد سرج غير معد جيدًا يزعج البغل، لكن هذا نادر الحدوث.

أتمنى لو أستطيع أن أريك عملنا.. إنه رائع. ولهذا السبب استغرق الأمر منى ثلاث سنوات لأكتشف إلى أين يندفع البشر. إن طريقة بنى البشر تعتمد على الا تظهر أبدًا عند الأفق، لأنك لو فعلت ذلك، قد تتسبب فى أن تصاب بطلق نارى. تذكر ذلك أيها الصغير: دائمًا تحاول الاختباء بقدر ما تستطيع، حتى لو استلزم ذلك أن تسير مسافة ميل بعيدًا عن طريقك الأصلى. أنا أقود المدفعية إذا وصل الأمر إلى ذلك النوع من الصعود".

قال حصان الكتيبة وهو يفكر بعمق: "يُطلق عليك الرصاص دون أدنى فرصة للجرى تجاه الأشخاص الذين يطلقون عليك النار! أنا لا أستطيع تحمل ذلك. أعتقد أن الرغبة ستحدونى إلى الهجوم مع ديك".

"أوه، لا، لا ينبغى أن تفعل ذلك. فأنت تعرف أنه بمجرد أن توضع المدافع فى أماكنها ستقوم (أى المدافع) بكل الهجوم. هذا موضوع علمى دقيق. لكن السكاكين ... ياالله!".

منذ فترة وجمل الأمتعة مستمر فى هز رأسه للأمام والخلف، فهو متلهف، لأن الآخرين مستمرون فى الكلام ولم يمنحوه فرصة أن ينطق بكلمة واحدة. ثم سمعته يقول، بعصبية وهو "يتنحنح":

"أنا - أنا - أنا حاربت قليلاً، لكن ليس بطريقة التسلق تلك ولا بطريقة الفرار".

قال بيلى: "حقًا!! الآن تقول هذا؟! لا يبدو عليك أنك خلقت للتسلق أو الجرى. لكن كيف يكون الحال معك، يا حامل بالات التبن العجوز؟".

قال الجمل: "يتم الأمر بالطريقة المناسبة.. نبرك كلنا..."

قال حصان الكتيبة وهو يلهث: "أوه، السير تحت ذيلى والطوق على صدرى يؤلمانني... وبعد أن تبرك!".

استمر الجمل فى كلامه: "لقد بَرَكْنا جميعًا .. كان عددنا مائة فى ميدان كبير، وراح الرجال يكومون أمتعتنا وسروجنا خارج الميدان. أطلقوا النيران من فوق ظهورنا.. لقد فعل الرجال ذلك.. أطلقوا النيران فى كل أنحاء الميدان".

قال حصان الكتيبة: "أى نوع من الرجال هذا؟ هل هم رجال جاءوا بهم من الطريق؟ إنهم يعلموننا فى مدرسة الفروسية أن نرقد وندع سادتنا يطلقون الرصاص من فوقنا، لكن ديك كانليف هو الرجل الوحيد الذى أثق فيه عندما يقوم بذلك، فإطلاق النار يجعل جسدى يصاب بالقشعريرة.. بالإضافة لذلك لا أستطيع الرؤية ورأسى على الأرض".

قال الجمل: "ما وجه الأهمية فيمن يطلق الرصاص من فوقك؟! هناك الكثير من الرجال والكثير من الجمال الأخرى القريبة من المكان، ومساحات ضخمة من سحب الدخان. أنا لا أخاف فى مثل ذلك الوقت.. أنا أجلس فى سكون وأنتظر".

قال بيلى: "ومع ذلك أنت تحلم أحلامًا مخيفة وتثير الاضطراب والقلق فى المعسكر بالليل. حسنًا! حسنًا! قبل أن أرقد، ناهيك عن الحديث عن الجلوس وترك رجل يطلق النار من فوقى، فإنه عندئذ يكون هناك تفاهم ما بين أطرافى ورأسه. هل سبق وسمعت أى شىء أسوأ من ذلك؟".

ساد صمت لفترة طويلة، ثم رفع أحد الثورين رأسه الضخم وقال: "هذا حمق شديد فى الواقع. هناك طريقة واحدة للقتال".

قال بيلى (ساخرًا): "بحقك هيا استمر من فضلك، لا تهتم بى.. أظن أنك أنت ورفاقك تقاتلون وأنتم واقفون على ذيولكم؟".

قال الثوران معًا: "فقط طريقة واحدة (لا بد أنهما توأمان)، وإليك هذه الطريقة، أن تضع كل عشرين ثورًا منا لجر مدفع كبير بمجرد صدور الصرخات المدوية من ذى الذيلين".

("ذو الذيلين" معناها بعامية المعسكر"الأفيال").

قال البغل الصغير: "لماذا تَصْدُر الصرخات الحادة من ذى الذيلين؟".

"ليوضح أنه لن يقترب من الدخان على الجانب الآخر. ذو الذيلين شديد الجبن، وعندئذٍ نجر المدافع كلها معًا - هيلا هوب! هيلا هوب! نحن لا نتسلق مثل القطط ولا نجرى مثل الجراء الصغيرة. نحن نسير عبر السهل المستوى.. عشرون ثورًا منا، إلى أن يفكوا وثاقنا مرة أخرى. ثم نأكل بينما المدافع الكبيرة تتحدث فوق السهل إلى بلدة ما ذات حوائط من الطين، وأجزاء من تلك الحوائط تتهدم وتسقط، ويرتفع الغبار، كما لو كان قطيع من الماشية فى طريقه لحظائره".

قال البغل الصغير: "بحق الله! وأنتم تختارون ذلك الوقت لتأكلوا؟".

"ذلك الوقت أو أى وقت غيره. الطعام دائمًا مفيد. نحن نأكل إلى أن يربطونا مرة أخرى، ونجر المدافع عائدين بها إلى المكان الذى ينتظرها فيه ذو الذيلين. أحيانًا تكون هناك مدافع كبيرة فى المدينة التى نطلق نحوها النيران، فترد علينا بإطلاق النيران أيضًا، ويتعرض بعضنا للقتل، عندئذٍ كل من يتبقى منا يجلس ليأكل. إنه القَدَر.. لا شىء سوى القدر. ومع ذلك فذو الذيلين جبان جدًا. هذه هى الطريقة المثلى للقتال. نحن أشقاء من هابور. كان والدنا عجلاً مقدسًا من ثيران الإله شيفا الذى تحدثنا عنه".

قال حصان الكتيبة: "حسنًا، لقد تعلمت بالتأكيد شيئًا نافعًا الليلة، هل تضطرون أيها السادة العاملون فى كتيبة المدفعية أن تأكلوا وقت إطلاق النار بتلك المدافع الكبيرة، وذوو الذيلين خلفكم؟".

قال بيلى: "بنفس القَدَّر الذى نشعر فيه أننا مرغمون على الجلوس وترك الرجال يتسلقون ظهورنا، أو الجرى وسط ناس يحملون السكاكين! لم أسمع بهذا الكلام من قبل!! ممر فوق جبل، حِمل متزن، سائس يمكنك أن تثق به وتتركه يوجه طريقك وتقول له أنا بغلك .. هذا ما أحتاج إليه... لكن تلك الأشياء الأخرى... لا!" قال بيلى ذلك ودق الأرض بقدمه.

قال حصان الكتيبة: "بالطبع، لم يُصنَع الجميع بنفس الطريقة، وأستطيع أن أرى بوضوح أن عائلتك، من ناحية الأب، قد فشلت فى استيعاب أمور كثيرة".

قال بيلى بغضب، لأن البغال جميعًا تكره أن يذكرها أحد أن والدها حمار: "دعك من عائلتى ومن موضوع الأب، كان والدى أحد نبلاء الجنوب، وكان يسحب على الأرض أى حصان يعترض طريقه ويعضه ويرفسه، تذكر ذلك، أيها البرومبى البنى الكبير!".

"برومبى" معناها حصان برى لم يلقَ أية تربية فى نشأته. تخيل شعور أورموند لو ناداه حصان يجر عربة قائلاً له يا كوكتيل (يقصد الجواد مقصوص الذيل)، عندئذٍ يمكنك أن تتخيل كيف شَعَرَ الحصان الأسترالى.. رأيت بياض عينيه يشع فى الظلام!

قال الحصان من بين أسنانه: "انظر إلىّ، يا ابن حمار مالاجا المستورد. كنت أظنك تعرف أننى قريب من جهة الأم لكاربين، الحاصل على كأس ملبورن، والمكان الذى جئت منه لسنا معتادين فيه أن يمتطى ظهورنا أى شخص ينتعل نعلاً ناتئ المسامير ويثرثر كالببغاوات، يا أيها البغل صاحب الرأس الذى يشبه رأس الخنزير، الذى يعمل فى جر المدافع التى تطلق النيران فى كتيبة المدفعية التى تطلق الذخيرة المدورة.. هل أنت مستعد [للمشاجرة]؟".

قال بيلى بصوت حاد: "على قائمتيك الخلفيتين!" زمجر الاثنان وواجه كل منهما الآخر، وكنت أتوقع معركة حامية، حين نادى صوت يقرقر ويقعقع فى الظلام من الناحية اليمنى: "أيها الأطفال، ما الذى تتقاتلون من أجله؟ اهدأوا".

قبع الحيوانان على الأرض وهما يصدران أصواتًا معبرة عن اشمئزازهما، لأنه لا البغل ولا الحصان كان يتحمل سماع صوت فيل.

قال حصان الكتيبة: "إنه ذو الذيلين! أنا لا أطيقه. ذيل من الأمام وذيل من الخلف.. ليس من العدل فى شىء!".

قال بيلى: "إنه نفس شعورى بالضبط"، واندفع ناحية حصان الكتيبة رغبة فى التودد إليه: "نحن متشابهان تمامًا فى بعض الأشياء".

قال حصان الكتيبة: "أظن أننا ورثناها من أمهاتنا.. الأمر لا يستحق أن نتقاتل من أجله. مرحبًا يا صاحب الذيلين، هل أنت مقيد؟".

قال صاحب الذيلين: "نعم"، وضحك ورفع خرطومه إلى أعلى: "أنا أقضى الليل مقيدًا فى الأوتاد. لقد سمعت كلامكم أيها الرفاق.. لكن لا تخافوا.. أنا لن آتى ناحيتكم".

قال الثوران والجمل بصوت مرتفع قليلاً: "نخاف من صاحب الذيلين؟!.. يا له من هراء!" واستمر الثوران فى كلامهما قائلين: "نحن نعتذر لأنك سمعت ما قلناه، لكن هذا حقيقى يا صاحب الذيلين، لماذا تخاف من المدافع عندما تطلق النار؟".

قال صاحب الذيلين وهو يدعك إحدى رجليه الخلفيتين فى الأخرى، تمامًا مثل صبى صغير يلقى قصيدة شعر: "حسنًا، لا أعرف إذا كنتما ستفهمان هذا الأمر".

قال الثوران: "نحن لا نفهم، لكننا مرغمون على جر المدافع".

"أعرف ذلك، كما أعرف أنكما أكثر شجاعة مما تعتقدان فى أنفسكما. لكن الأمر مختلف معى. قائد كتيبتنا قال ذات يوم إننى كائن فى غير زمنه، بليد الإحساس والشعور".

قال بيلى محاولاً استعادة مزاجه المرح: "تلك طريقة أخرى للقتال على ما أظن!".

"أنت لا تعرف معنى ذلك بالطبع، لكن أنا أعرف.. معنى ذلك "بين بين"، وهذا هو مكانى تمامًا. أستطيع أن أرى داخل رأسى ما سيحدث عندما تنفجر دانات المدافع، لكنكم أنتم معشر الثيران لا يمكنكم ذلك".

قال حصان الكتيبة: "أنا أستطيع، على الأقل بدرجة طفيفة. لكننى لا أحاول التفكير فى ذلك".

"أستطيع أن أرى أكثر منك، وأنا أفكر فى الأمر. أنا أعرف أن هناك جزءًا كبيرًا منى يجب أن أعتنى به، وأعرف أنه لا أحد يعرف كيف يعالجنى عندما أصاب بالمرض. كل ما يستطيعون فعله أن يتوقفوا عن دفع أجر السائس الذى يقودنى حتى يتم شفائى، وأنا لا أثق فى سائسى".

قال حصان الكتيبة: "آه، هذا يفسر الأمر. أنا أثق فى ديك".

"بإمكانك أن تضع على ظهرى كتيبة كاملة من ذلك المدعو ديك دون أن تشعرنى أنى بحال أفضل. أعرف ما يكفى لأشعر بعدم الراحة، لكنى لا أعرف ما يكفى لأستمر بالرغم من ذلك الشعور".

قال الثوران: "نحن لا نفهم...".

"أنا أعرف أنكم لا تفهمون. أنا لا أتحدث إليكم. أنتم لا تعرفون ما معنى الدم".

قال الثوران: "بل نعرف، إنه شيء أحمر اللون يتسرب على الأرض وله رائحة".

رفس حصان الكتيبة الهواء، ودار حول نفسه وأصدر صوت نخير، وقال: "لا تتحدثا عنه، أستطيع أن أشم رائحته الآن بمجرد التفكير فيه. إنه يجعلنى أرغب فى الفرار.. عندما لا يكون ديك فوق ظهرى".

قال الجمل والثوران: "لكنه ليس هنا، لماذا أنت غبى لهذه الدرجة؟".

قال بيلى: "إنه شيء بغيض.. لا أريد أن أجرى، لكنى كذلك لا أرغب فى الحديث عنه".

قال ذو الذيلين: "ها أنت هنا إذن!" ولوح بذيله.

قال الثوران: "مؤكد. نعم، نحن هنا طوال الليل".

أخذ ذو الذيلين يدبدب برجله حتى صلصلت الحلقة الحديدية الملتفة حولها. "أوه، أنا لا أتحدث إليكما، أنتما لا تستطيعان رؤية الأشياء داخل رأسيكا".

قال الثوران: "لا. نحن نرى خارج عيوننا الأربعة، نحن نرى ما أمامنا مباشرة".

"لو كنت أستطيع أن أفعل ذلك ولا شيء سواه لن يكون هناك داعٍ لجر المدافع الضخمة مطلقًا. لو كنت أنا مثل قائدى. فهو يستطيع أن يرى الأشياء داخل رأسه قبل أن تنطلق النيران، ويهتز جسده

كله، لكنه يعرف كذلك الكثير الذى يمنعه من الفرار هربًا. لو كنت أنا مثله كان بمقدورى إطلاق المدافع. لكن لو كنت أمتلك مثل هذه الحكمة لما كنت هنا.. كان ينبغى أن أكون ملكًا فى الغابة، كما كنت فى الماضى، أنام نصف اليوم وأستحم حين أرغب فى ذلك. أنا لم أحظَ بحمام طيب منذ شهر".

قال بيلى: "هذا رائع جدًا، لكنَّ مَنْحَ الشخص اسمًا طويلاً (ذو الذيلين) ليس فيه أى نفع".

قال حصان الكتيبة: "اصمت! أعتقد أننى أفهم قصد صاحب الذيلين".

قال صاحب الذيلين فى غضب: "ستفهمون بشكل أفضل خلال دقيقة واحدة.. والآن هل يمكن أن تفسروا لى سبب عدم حبكم لهذا؟".

وبدأ يضرب الأرض برجليه فى حنق وغضب بأقصى ما يستطيع. قال بيلى وحصان الكتيبة فى صوت واحد: "كف عن ذلك".. لكننى سمعتُه يدك الأرض دكًا وهم يرتعشون.. عندما يدق الفيل الأرض برجليه يصبح الأمر خطيرًا دائمًا، خاصة فى ليلة مظلمة.

قال صاحب الذيلين: "لن أكف عن ذلك، هل تفسرون لى عدم حبكم لهذا من فضلكم؟ هرر! برر! دررف! ررههه!"، ثم توقف فجأة، وسمعت أنينًا ضعيفًا فى الظلام، وأدركت أن الثعلبة قد وجدتنى أخيرًا. كانت تعرف مثلى تمامًا أنه إذا كان هناك شىء وحيد فى

العالم يخشاه الفيل أكثر من أى شىء آخر فهو نباح كلب صغير، لذلك توقفت لتتنمر على صاحب الذيلين فى أوتاده، وأخذت تنبح حول أرجله الكبيرة. تخلص منها صاحب الذيلين وصرخ: "ابتعدى أيتها الكلبة الصغيرة، لا تتشممى أرجلى، وإلا رفستك، أيتها الكلبة الصغيرة اللطيفة - أنت حقًا كلبة صغيرة طيبة! عودى إلى بيتك، أنت تنبحين أيتها الحيوانة الصغيرة! أوه، لماذا لا يأخذها أى شخص بعيدًا عنى، بعد دقيقة أخرى ستعضنى".

قال بيلى لحصان الكتيبة: "يبدو أن صديقنا صاحب الذيلين يخاف من معظم الأشياء. والآن لو كنت قد حصلت على وجبة كاملة مقابل كل كلب رفسته عبر أرض استعراض الجند، لكنت بدينًا مثل صاحب الذيلين تقريبًا".

صَفَّرْتُ فجرت الثعلبة نحوى، يغطيها الوحل تمامًا، ولَعَقَت أنفى، وحَكَت لى حدوتة طويلة عن بحثها عنى فى كل أنحاء المعسكر. لم أدعها تعرف مطلقًا أننى أفهم لغة الحيوانات، وإلا فإنها ستعطى نفسها كل أنواع الحريات. لذلك أخذتها تحت معطفى، وراح صاحب الذيلين يدق الأرض ويصرخ.

قال: "غير معقول! غير معقول تمامًا! إن الأمر يجرى فى دماء عائلتى. والآن، إلى أين ذهبت تلك الحيوانة الصغيرة المقززة؟".

سمعته يتحسس المكان بخرطومه.

استمر فى كلامه وهو ينفخ بأنفه: "يبدو أننا جميعًا نتأثر بطرق مختلفة، والآن، أيها السادة، لقد خفتم على ما أعتقد حين دككت الأرض بأرجلى".

قال حصان الكتيبة: "لم نخف بمعنى الكلمة، لكن ما فعلته أشعرَنى كأن هناك زنابير مكان سرجى.. لا تبدأ مرة أخرى".

"أنا أخاف من الكلاب الصغيرة، والجمل يخاف من الأحلام المخيفة فى الليل".

قال حصان الكتيبة: "من حسن حظنا أننا لسنا مضطرين للقتال بالطريقة نفسها".

قال البغل الصغير الذى ظل هادئًا فترة طويلة: "الشىء الذى أريد أن أعرفه، الشىء الذى أريد أن أعرفه، هو.. لماذا علينا أن نقاتل أساسًا؟".

قال حصان الكتيبة وهو يصدر صوتًا يعبر عن الاحتقار: "لأنهم يطلبون منا ذلك".

قال البغل بيلى وأسنانه تصطك ببعضها بعضًا: "إنها الأوامر".

قال الجمل وهو يقرقر: "هيا.. هيلا هوب!! إنها الأوامر"، وكرر وراءه صاحب الذيلين والثوران: "هيا.. هيلا هوب!".

قال البغل الصغير: "نعم، لكن من الذى يُصدر الأوامر؟".

قال بيلى وحصان الكتيبة والجمل والثوران واحدًا وراء الآخر: "الرجل الذى يسير أمام رأسك، أو يجلس على ظهرك. أو يمسك بالحبل حول أنفك. أو يلوى ذيلك".

"لكن من يعطيهم الأوامر؟".

قال بيلى: "الآن أنت تريد أن تعرف الكثير أيها الصغير، وهذه هى إحدى الطرق لرفسك. كل ما عليك هو طاعة الرجل الذى أمام رأسك دون طرح أسئلة".

قال صاحب الذيلين: "إنه على صواب تمامًا، أنا لا أستطيع أن أطيع دائمًا، لأننى بين بين، لكن بيلى على حق. أطِعِ الرجل الذى أمامك الذى يصدر الأوامر، وإلا ستتسبب فى توقف الكتيبة كلها، وعلاوة على ذلك ستُضرب بالسياط".

نهض ثورا المدافع استعدادًا للمغادرة وقالا: "الصباح يقترب، سنعود إلى صفوفنا. الحقيقة أننا نرى فقط ما هو أمام عيوننا، ولسنا على درجة عالية من المهارة، لكن مع ذلك نحن الوحيدون الليلة الذين لم يخافوا. ليلة سعيدة أيها الشجعان".

لم يجب أحد، وقال حصان الكتيبة ليغير مجرى الحديث: "أين تلك الكلبة الصغيرة؟ إن وجود كلب فى مكان ما معناه وجود رجل بالقرب من هذا المكان".

نبحت الثعلبة الصغيرة قائلة: "ها أنا هنا، تحت الجزء الخلفى من المدفع، مع الرجل الذى أنتمى إليه. أيها الحيوان الضخم المدعو جمل، الذى يتخبط فى سيره، أنت أقلقت خيمتنا، صاحبى غضبان منك جدًا".

قال الثوران: "حقًا! لابد أنه أبيض!".

قالت الثعلبة: "بالطبع هو رجل أبيض، هل تظنون أن من يعتنى بى سائس ثيران أسود؟".

قال الثوران: "هوو! أووه! أوم! هيا بنا نسرع بالرحيل من هنا".

سارا مباشرة يتخبطان فى الوحل، واستطاعا بشكل ما أن يجرا رباطهما من فوق عربة ذخيرة حربية، فاشتبك ذلك الرباط بها.

قال بيلى بهدوء: "والآن، هل أنجزتما ما كنتما تريدان؟!.. لا تقاوما، أنتما مربوطان فى مكانكما حتى تشرق الشمس.. ما الأمر بحق الأرض؟".

واصل الثوران سيرهما وهما ينخران فى هسيس طويل مثلما تفعل ماشية الهند، يتدافعان ويتصادمان ويتمايلان ويتخبطان وينزلقان، وتقريبًا يسقطان فى الوحل، وهما ينخران بطريقة وحشية.

قال حصان الكتيبة: "ستحطمان عنقيكما فى لحظة.. ما المشكلة مع الرجال البيض؟ أنا أعيش معهم".

قال الثور الأقرب إليه: "إنهم - يأكلوننا! هيا.. اسحب!"، طقطق النير الذى يحملانه مُصدرًا رنينًا، فرفعاه معًا.

لم أعرف من قبل ما الذى يخيف الماشية الهندية من الرجال الإنجليز. الآن أدركت أن السبب أننا نأكل لحم البقر - وهو شىء لا يلمسه سائق الماشية - وبالطبع الماشية لا تحب ذلك.

قال بيلى: "هل أجلد نفسى بالسلاسل التى تقيدنى؟! من كان يعتقد أن ثورين كبيرين مثل هذين يفقدان صوابهما بهذا الشكل؟!".

قال حصان الكتيبة: "لا تهتم. سأذهب لأرى.. معظم الرجال البيض الذين أعرفهم يحملون أشياء فى جيوبهم". (يقصد طعامًا).

"سأتركك إذن. لا يمكننى القول إننى أنا نفسى مغرم بهم جدًا. علاوة على ذلك، الرجال البيض الذين ليس لديهم مكان ينامون فيه، من المحتمل جدًا أنهم لصوص، وأنا أحمل على ظهرى كمًا كبيرًا من أملاك الحكومة. هيا أيها الصغير، سنعود إلى صفوفنا. ليلة سعيدة يا أستراليا! أراك غدًا فى الاستعراض على ما أظن. ليلة سعيدة يا حامل التبن العجوز! حاول السيطرة على مشاعرك، أليس كذلك؟ ليلة سعيدة يا صاحب الذيلين! إذا مررت بنا على أرض الاستعراض غدًا، لا تدق الأرض بأرجلك.. إنها تفسد تشكيلنا".

خطا البغل بيلى مختالاً بخطوات عرجاء لكنها تشبه خطوات المشارك فى حملة عسكرية، فى حين اقترب رأس حصان الكتيبة من صدرى، وقدمت له البسكويت، بينما الثعلبة الصغيرة، التى يتخيل أى شخص أنها كلبة صغيرة، حكت له أكاذيب عن أعداد الخيول التى نقوم بتربيتها أنا وهى.

قالت: "أنا ذاهبة للاستعراض غدًا فى عربتى، أين ستكون أنت؟".

قال لها بأدب: "فى الناحية اليسرى من سرية الخيالة الثانية أنا أكرس وقتى كله لجنود كتيبتى، يا سيدتى الصغيرة".

"والآن، لا بد أن أعود إلى ديك. ذيلى ملوث تمامًا بالوحل، وسيتطلب الأمر منه ساعتين من العمل الشاق ليلبسنى ويزيننى لحضور الاستعراض".

فى تلك الظهيرة أُقيم الاستعراض الكبير المكون من ثلاثين ألف رجل، وحُجِز للثعلبة الصغيرة ولى مكان مميز قريب من نائب الملك وأمير أفغانستان، بقبعته الكبيرة العالية السوداء المصنوعة من صوف أستراكان وفى منتصفها ماسة النجم الكبيرة. تم الجزء الأول من الاستعراض العسكرى أثناء شروق الشمس، ثم مرت الكتائب بخطوات عسكرية منتظمة معًا، والمدافع مرصوصة فى صف، حتى أصيبت عيوننا بالدوار. عندئذٍ نهض جنود كتيبة سلاح الفرسان إلى مركز الفرسان الجميل "بونى دوندى"، ورفعت الثعلبة الصغيرة أذنيها وهى تجلس فى العربة المخصصة للكلب. الجزء الثانى من الاستعراض كان لحاملى الرماح، وهناك جاء حصان الكتيبة، الذى يتلألأ ذيله مثل نسيج من الفضة، رأسه مشدود إلى صدره، إحدى أذنيه للأمام والأخرى للخلف، مكرسًا وقته للاستعراض، قوائمه تخطو فى نعومة كأنه يسير على نغمات موسيقى الفالس. ثم تقدمت المدافع الكبيرة ومرت. عندئذ رأيت صاحب الذيلين وفيلين آخرين مربوطين على شكل صف، يسحبون مدفعًا عيار أربعين رطلاً، بينما عشرون زوجًا من الثيران تسير خلفهم، وكان الزوج السابع يحمل نيرًا جديدًا وقد بدوا أكثر صرامة وتعبًا. فى النهاية مرت المدافع ذات الجزأين، والبغل بيلى يسير كما لو كان يلقى الأوامر لكل قوات الجيش، وكانت صلصلته ناعمة ومصقولة حتى

غمز بعينه. قدمت إيماءة التحية والترحيب للبغل بيلى، لكنه لم ينظر لليمين أو اليسار مطلقًا.

بدأت الأمطار تسقط من جديد، ولوهلة كان الضباب كثيفًا لدرجة تعوق رؤيتنا لما تفعله الكتائب العسكرية. قاموا بعمل نصف دائرة كبيرة فى منتصف الساحة، وانتشروا فى صف. ظل هذا الصف يزداد ويزداد حتى وصل طوله إلى ثلاثة أرباع ميل من طرف إلى الطرف الآخر. حائط صلب من الرجال والخيول والمدافع، ثم تقدم مباشرة نحو نائب الملك والأمير. وعندما اقترب من أرض الاستعراض بدأ فى التموّج، مثل ظهر مركب بخارى عندما تسرع محركاته.

إن لم تحضر إلى موقع العرض بنفسك لن تتصور مدى الخوف الذى أصاب المتفرجين من اقتراب القوات المستمر، حتى وهم يعرفون أنه مجرد استعراض. نظرت إلى الأمير. حتى تلك اللحظة لم يكن قد بدا عليه أى ظل لملامح دهشة أو أى مشاعر أخرى، لكن الآن بدأت عيناه فى الاتساع، ثم التقط اللجام من فوق رقبة حصانه ونظر خلفه. للحظة بدا كما لو كان سيشرع سيفه ويشق طريقه وسط الرجال والنساء الإنجليز فى عرباتهم فى المؤخرة. ثم توقف الموكب وسكنت الأرض، وقدم الصف كله التحية، وبدأت ثلاثون فرقة موسيقية فى العزف فى وقت واحد. كان هذا نهاية الاستعراض، وانصرفت الكتائب العسكرية إلى معسكراتها والمطر يتساقط، وشرعت فرقة كتيبة المشاة فى الغناء:

الحيوانات سارت زوجًا زوجًا

هوراه!

الحيوانات سارت زوجًا زوجًا،

الفيل وبغل سرية المدفعية،

والجميع ذهبوا إلى فلك نوح

ليحتموا من المطر!

ثم سمعت مقدم أول آسيوى كبير سنًا وطويل الشعر، كان قد حضر بصحبة الأمير، يطرح أسئلة على ضابط محلى.

قال: "والآن، بأية طريقة تم إنجاز هذا الشىء الرائع؟".

أجابه الضابط: "صدرت الأوامر، والتزم الجميع بها".

قال المقدم: "لكن هل الحيوانات حكيمة مثل البشر؟".

"إنهم يطيعون الأوامر مثل الرجال تمامًا، البغل، والحصان، والفيل، وحتى الثور، الجميع يطيعون سائسيهم، والسائس يطيع الرقيب الذى يعمل تحت إمرته، والرقيب يطيع الملازم الأول، والملازم الأول يطيع القائد، والقائد يطيع الرائد، والرائد يطيع الكولونيل، والكولونيل يطيع العميد الذى يرأس ثلاث كتائب، والعميد يطيع نائب الملكة، وهو خادم للملكة. وهكذا تم الأمر".

قال المقدم: "يا ليت الأمر يتم بهذا الشكل فى أفغانستان! لأننا هناك نطيع فقط ما تمليه علينا إرادتنا".

قال الضابط المحلى وهو يعبث بشاربه: "لذلك السبب، فإن أميرك الذى لا تطيعه، لا بد أن يأتى إلى هنا، ويتلقى أوامره من نائب الملكة".

أغنية استعراض حيوانات المعسكر

أفيال فريق المدافع

أعارنا الإسكندر الأكبر قوة هرقل،

والحكمة المطبوعة على جباهنا، وبراعة رُكَبنا،

حَنَيْنا أعناقنا للخدمة: لم ننعم بالحرية قط بعد ذلك.

أفسح الطريق هناك، الطريق للفرق التى تتكون كل واحدة منها من عشرة أفيال

فى موكب يجر مدافع من عيار أربعين رطلاً.

ثيران المدافع

أولئك الأبطال يتجنبون فى صلصلتهم دانات المدافع

وما يعرفونه عن البارود يغضبهم فرادى وجماعات،

ثم نأتى للعمل ونربط المدافع معًا مرة أخرى.

أفسح الطريق هناك، الطريق للعشرين ثورًا

فى موكب يجر مدفعًا من عيار أربعين رطلاً!

خيول الاستعراض

بالعلامة على كتفى، أسمى الأنغام،
يعزفها الرماحون و"الهوسار"، والفرسان،
وهى أحلى لى من "الإصطبلات" أو "الماء".
استعراض خيول "بونى دوندى"!
فلتعطونا إذن الطعام والنزهة وتمسكوا بنا وقودونا!
بفرسان جيدين ومساحة كافية
ثم أطلقونا فى صف طويل فى استعراض وانظروا
طريقة الخيول فى الحرب، خيول "بونى دوندى"!

بغال المدافع

بينما كنت أنا ورفاقى نتسلق التل
ضللنا طريقنا بين الأحجار، ومع ذلك سرنا للأمام
لأننا نستطيع أن نشق طريقنا ونصعد يا سادتى،
ونتوغل فى كل الطرق،
أوه، إنها بهجتنا على قمة الجبل، برجل أو اثنتين
نقف عليهما!
حظًا طيبًا لكل رقيب، ثم هذا يجعلنا

نضع أرجلنا على طريقنا،

حظًا سيئًا لكل السائسين الذين لا يستطيعون

ترتيب الحمولة.

لأننا نستطيع أن نشق طريقنا ونصعد، يا سادتى،

ونتوغل فى كل الطرق

أوه، إنها بهجتنا على قمة الجبل، برجل أو اثنتين

نقف عليهما!

جِمال المِيرَة (تزويد الجيش بالطعام)

ليس لدينا نحن الجمال لحن خاص بنا

ليساعدنا على المضى فى سبيلنا

لكن كل رقبة هى آلة موسيقية يغطيها الشعر

(راتات - تا - تا - تا! آلة موسيقية يغطيها الشعر!)

وهذه أغنية مسيرتنا:

لن نستطيع ! لن نفعل! لن يحدث! لن يكون!

نمررها عبر الصف!

واحد ما انسلَّت أمتعته من فوق ظهره

أتمنى لو كانت أمتعتى!

واحد ما انقلبت أغراضه على الطريق.

يا لفرحي بالمحطة وبالطريق!

أورر! ياررراه! جرر! آرره!

شخص ما يمسك بها الآن!

كل الحيوانات معًا

نحن أطفال المعسكر،

نخدم كل واحد حسب درجته،

أطفال النير والمهماز،

نصلصل و نحمل، الرَّجُلَ والأمتعة.

انظر صفوفنا عبر السهل،

مثل حبل يوثق القوائم، يلتوي مرة بعد أخرى،

نصلُ، نلتف، نستدير

نندفع جميعًا نحو الحرب،

بينما الرجال الذين يسيرون بجوارنا،

متربون، صامتون، عيونهم ثقيلة،

ليس بوسعهم أن يقولوا لماذا نحن أو هم

نسير ونعاني يومًا بعد يوم،

نحن أطفال المعسكر

نخدم كل واحد حسب درجته

أطفال النير والمهماز

نصلصل و نحمل، الرَّجُلَ والأمتعةَ!

وماذا بعد؟

نحن نقرأ كتاب الغابة باعتباره رواية، رواية عن صبى ينشأ ويكبر فى الغابة ويتعلم قانونها ولغتها، ويرد الدَّين الذى دفع افتداء لحياته. على أية حال، الفصول التى تشتمل عليها الرواية نُشرت فى البداية منفصلة، نُشر أغلبها على شكل قصص فى مجلة الأطفال الشهرية الكبيرة "سانت نيكولاس". فى الواقع كتبها كيبلنج كنوع من التحدى للمحررة مارى مابس دودج، عندما طرح عليها فكرة كتابة شىء لمجلتها الشهرية الشعبية، سألته بشكل لاذع: "هل تعتقد أنك مؤهل لهذا النوع من الكتابة؟"، وذلك السؤال طُرِحَ لأنه حتى تلك اللحظة، كانت سمعة كيبلنج تنحصر فى كونه صاحب لسان سليط وقصص قصيرة وأشعار مثيرة غريبة للكبار.

قَبِلَ كيبلنج التحدى، وعاد إلى بيته فى فيرمونت وكتب مجموعة قصص موجلى. اقتبس جو الغابة من السنوات الكثيرة التى قضاها كصحفى فى الهند، لكن الغابة التى كتب عنها لم يلتزم فيها بالواقع الحقيقى. وكما قال إرنست تومسون سيتون عالم التاريخ الطبيعى الكندى الكبير عن هذا الكتاب: "إن قصصه ليست قصص حيوان

من الناحية الواقعية، إنها حكايات خيالية رائعة وجميلة." إنها تحمل علاقة أكبر بحكايات الـ "جاتاكا" الهندية، إنها قصص الحيوانات التى سمعها كيبلنج من خدم العائلة عندما كان صبيًا.

حققت قصص موجلى وأشقائه شعبية كبيرة فى إنجلترا بعد ذلك بأقل من عشرين سنة، عندما أسس لورد بادن - باول "مجلة الكشافة الصغار"، وقدم نماذج على غرار أطفال الذئاب وأوكارها الموجودة فى حكايات كيبلنج.

كتب ذات مرة سى. إس. لويس مؤلف مجموعة كتب نارنيا: "أظننى أكثر ميلاً لأرسى ما سأقوله كقاعدة، ألا وهو أن قصة الأطفال التى يستمتع بها الأطفال هى فقط قصة أطفال سيئة". وبذلك التحديد يصبح كتاب الغابة بالفعل كتابًا جيدًا جدًا، لأنه قُرِئ على عدة مستويات بمرور الزمن لكل من الأطفال والكبار على حد سواء، والجميع يستمتعون به.

وإذا قرأنا قصص موجلى فى أبسط مستوى للفهم، نجدها قصص مغامرات، حيث يضيع رضيع قروى فى أعماق الغابة، ويتبعه شرخان النمر الأعرج قاتل الماشية إلى وكر الذئاب. وعلى الرغم من تهديد النمر المتبجح، تتبنى الذئاب الطفل الصغير "ليجرى مع القطيع ويصطاد معهم". ويكبر موجلى ليصبح ولدًا وسيمًا جذابًا وجسورًا. ليست فقط الذئاب هى التى ترعاه، بل أيضًا باجيرا النمر الأسود دمث الأخلاق، والدب بالو عاشق العسل، وكا ثعبان الأصلة الكبير، وهو، على نحو مؤكد، من أهم الشخصيات فى كل أدب الأطفال.

لكن على مستوى آخر، تعتبر قصص موجلى عن النمو وتعلُّم فَهْم أهمية قواعد القانون، مثالاً لمدرسة كيبلنج البريطانية، حيث تتم متابعة الدروس السابقة واللاحقة بقسوة، فالتعليم فى غابة موجلى يتم أيضًا بطريقة شاقة. بالو، مُدَرِّسه، يضربه غالبًا ضربًا شديدًا، مفسرًا ذلك بقوله: "أن يمتلئ بالكدمات والخدوش من قمة رأسه حتى أخمص قدميه من ضربى أنا الذى أحبه، أفضل مما يمكن أن يصيبه بسبب الجهل".

على مستوى ثالث، تعد مغامرات موجلى الصغير صياغة لحياة كيبلنج وهو طفل فى قالب روائى، لأن والدَىْ كيبلنج تركاه فى إنجلترا ولم يبحثا عنه عدة سنوات، وهو نفس ما حدث مع موجلى إذ تركته أمه الحقيقية ميسوا ولم تبحث عنه فى الغابة. فعودة موجلى للقرية، وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة والحكمة التى اكتسبها على مدار سنوات عمره، والمعرفة المتنوعة التى ملأ بها رأسه من معلميه، هى عملية اجترار لذكريات كيبلنج ذى السبعة عشر عامًا، الذى أنهى تعليمه المدرسي وعاد ليعيش مع والديه فى الهند. ومثلما كان حال ميسوا مع موجلي، كانت السيدة كيبلنج التى أحبت ابنها وأعجبت به، لكنها لم تستطع قط أن تفهمه لأنه نشأ بعيدًا عنها.

إن كتاب الغابة قصة غريبة محيرة ومثيرة، وعلى الرغم من ذلك فهناك حزن كبير فى نهايتها. هناك حزن لموت أكيلا، وحزن لفراق موجلى ورحيله، حزن لمعاملة ميسوا من جيرانها. لكن الحزن الأعظم والأكثر قسوة فى الكتاب هو العزلة والوحدة. فإن موجلى،

على الرغم من رعاية خمسة آباء محبين له ومشجعين، وعلى الرغم من إعجاب أهل الغابة جميعًا به، فإنه لا يستطيع الانتماء للغابة. إنه يريد أن يكون ذئبًا . لكنه إنسان.. يستطيع أن يحملق فى عيون أسرته التى تبنته حتى ينزلوا أعينهم، يستطيع أن يضحك ويبكى، يستطيع السيطرة على النار المتأججة (الزهرة الحمراء).. مع ذلك، وعلى الرغم من أنه يستطيع أن يعيش جنبًا إلى جنب مع أصدقائه، فهم لا يعيشون بشكل متساوٍ، فهو فى النهاية غريب وسيد. إنه أمر لا يستطيع أى منهم أن يتجاهله أو ينساه.

عندما يقرأ الكبار الكتاب، هناك حزن آخر: إنه إدراك أن أحدهم تفوق فى النمو على أقرانه من الأطفال (فى الغابة)، ولا بد أن يتعلم كيف يتلاءم مع غيره من الكبار (فى القرية)، بغض النظر عن مدى الروعة التى تبدو عليها هذه الطفولة.

جين يولين

المؤلف فى سطور

روديار كيبلنج: (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦):

بدأ حياته الأدبية بالعمل فى الصحافة فى الهند، ثم نشرت له مجموعات قصصية ومجموعات شعرية، وعندما عاد إلى إنجلترا كانت شهرته الأدبية قد سبقته إلى هناك واعتبره النقاد ديكنز المعاصر، وقد حصل على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٠٧ قدم إسهامات وفيرة فى أدب الطفل، من أهم كتبه:

حكايات بسيطة من التلال

عفريت تل بوك

مكافآت وحوريات

ستوكى ورفاقه

مجرد قصص

كتاب الغابة الأول

كتاب الغابة الثانى

القباطنة الشجعان

المترجمة فى سطور

إيزابيل كمال خليل:

حاصلة على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة أسيوط ١٩٨٦.

ودبلوم الآدب المقارن، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٧.

من الكتب التى نشرت لها:

١ - عدوى اللدود وأحلى سنين، روايتان ترجمتا عن ويللا كاثر، سلسلة آفاق الترجمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨.

٢ - الدليل الصغير لكتابة المرأة العربية، ترجمة عن الدكتورة فاطمة موسى، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

٣ - أسطورة برومثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى، ترجمة عن الدكتور لويس عوض، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠١.

٤ ـ عروس البحر، ترجمة مجموعة قصص للأطفال من الأدب العالمى، سلسلة أدب الطفل حول العالم، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١.

٥ ـ القصص التى يحكيها الأطفال (محاولة لفهم السرد عند الطفل)، ترجمة عن سوزان أنجيل، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢.

٦ ـ مناظر من أرض جديدة، مجموعة قصص قصيرة، ترجمة عن أشهر كاتبات أمريكا اللاتينية، سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤.

٧ ـ مجموعة قصص أطفال، ترجمة عن هانز أندرسون، فى ستة كتب عن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦.

٨ ـ دراما العتبات (تأليف) ديوان شعرى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إبداعات ٢٠٠٦.

٩ ـ القلعة البيضاء، ترجمة عن أورهان باموق، سلسلة الجوائز، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦.

١٠ ـ خطابات من تركيا، ترجمة عن ليدى ورتلى مونوتجو، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧.

١١ ـ الريشة ويشا (تأليف) مجموعة قصص للأطفال، كتاب قطر الندى، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٧.

١٢ ـ مقدمة فى أدب الطفل، ترجمة عن بيتر هنت، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٩.

١ - حصلت على منحة تفرغ من المجلس الأعلى للثقافة لعامين متواليين من ١ / ٧/ ٢٠٠٢ إلى ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤.

٢ - حصلت على جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب (الترجمة) لعام ٢٠٠٣ عن ترجمة كتاب القصص التى يحكيها الأطفال، (محاولة لفهم السرد عند الطفل).

المراجع فى سطور

أ/ يعقوب الشارونى:

- من رواد أدب الأطفال فى مصر والعالم العربى.
- كتب ونشر أكثر من ٤٠٠ كتاب للأطفال (روايات وقصص ومسرحيات وكتب معلومات).
- المسئول عن باب «ألف حكاية وحكاية» للأطفال بجريدة الأهرام.
- الرئيس السابق لمركز القومى لثقافة الطفل ـ مصر.
- شارك مرات متعددة فى لجان تحكيم جوائز أدب الأطفال المصرية والعربية.
- كتب عددًا كبيرًا من الدراسات حول أدب وثقافة الطفل، صدر بعضها فى ١١ كتابًا، من أهمها "تنمية عادة القراءة عند الأطفال" (سلسلة اقرأ ـ دار المعارف).
- فازت كتبه للأطفال بعدد كبير من جوائز أدب الأطفال المصرية والعالمية، من أهمها حصول كتابه "أجمل الحكايات الشعبية" على

جائزة معرض بولونيا الدولى بإيطاليا لكتب الأطفال عام ٢٠٠٢، وهو نفس الكتاب الذى فاز فى نفس العام بالجائزة الخاصة للجنة تحكيم جائزة سوزان مبارك فى مجال التأليف للأطفال وآخرها فوز روايته "سر ملكة الملوك" بشهادة أفضل مؤلف فى مسابقة سوزان مبارك عام ٢٠٠٦.

- ترجمت عدد كبير من رواياته إلى الإنجليزية والفرنسية والماليزية والإيطالية والمجرية والألمانية.
- نوقشت أعماله الروائية فى أكثر من رسالة دكتوراه وماجيستير.
- ترجم إلى العربية لليونسكو، مجموعة كتب «تعزيز مهارات المدربين فى مرحلة الطفولة المبكرة كما ترجم لدار نشر لونجمان بعض الأعمال الأدبية الموجهة للشباب، ولسلسلة "ليديبرد" عددًا كبيرًا من كتب الأطفال.
- أصدر عنه المركز لقومى لثقافة الطفل دراسة مهمة بعنوان «الإبداع فى أعمال كاتب الأطفال يعقوب الشارونى" كما فازت دراسة نقدية عن أعماله بعنوان "أفراح وأحزان طفل هذا الزمان" بالجائزة الأولى للدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة، ونشرتها الهيئة العامة للكتاب.
- منذ عام ١٩٨١ يقوم بتدريس مادة قصص وأدب الأطفال فى كليات التربية بجامعة مصر.

- تم إنتاج عدد من مسلسلات الأطفال للتليفزيون عن عدد من رواياته.
- شارك عدة مرات فى لجان تحكيم مهرجان القاهرة الدولى لسينما الأطفال، كما رأس مرات متعددة لجان مشاهدة الأفلام فى ذلك المهرجان.
- قدم على مدى ٣٠ سنة برامج أسبوعية فى التليفزيون للأطفال.
- ألقى مئات المحاضرات وشارك فى عشرات الندوات للآباء والأمهات حول تنمية عادة القراءة عند الأطفال.
- شارك فى عشرات المؤتمرات والحلقات الدراسية حول أدب الأطفال وثقافتهم.
- ألقى عددًا كبيرًا من الأحاديث لمختلف محطات الإذاعة والتليفزيون حول أدب الأطفال وثقافتهم.

التصحيح اللغوى : أمل عبدالفتاح
الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب